

THE HILLSIDE CURSE

# لعنة جانب التل



أحمد صلاح المهدي

جانب التل

رواية

**جانب التل**  
أحمد صلاح المهدي  
رواية

إهداء

إلى تلك التي تشبه حكايات جدي...

إلى زوجتي منار.

## تمهيد

الشمس حمراء قانية كقرص من دماء، ومن تحتها تتعالى صرخات الألم من القرية، بينما وحوش كظلال داكنة تهاجم بشرًا لا حول لهم ولا قوة. كانت الوحوش تفوق أسوأ كوابيسهم بشاعة، بينما هؤلاء الذين يملكون بعض الشجاعة لمواجهتها تعجز فؤوسهم عن ردع هذا الخطر المنبعث من أعماق الجحيم. رفع أحدهم فأسه بينما رموز عجيبة تتوهج بلون أحمر على نصله، والعرق يتصبب على جبينه. قال هامسًا: «فلترحم الشمس أرواحنا». راح يحدق إلى وحشٍ كاسر يكشر عن أنيابه، فتنبعث ألسنة اللهب من فمه، بينما عيناه الحمراء تلتصقان كتورين مشتعلين.

انقض الوحش على الرجل، ولكن في اللحظة ذاتها قفز الرجل إلى السماء بقوة غير طبيعية، قبل أن يهوي بنصله على جسد الوحش، فتعالى زئير هادر ليرج البيوت القرية، بينما جسد الوحش يتحول إلى بخارٍ أسود. قبل أن يلتقط الرجل أنفاسه كانت وحوش مظلمة أخرى قد انبثقت من الظلال السوداء وهي تزار في غضب، وشعر بقبضة باردة من اليأس تعتصر قلبه.

كان عواء الوحوش يصم الأذان، بينما صرخات المعاناة والألم من البشر تبلغ عنان السماء، وقد وصلت الأصوات إلى مسامع عديد من قاطني القرية الذين لاذوا ببيوتهم، فراحوا يتضرعون للشمس كي تحمي أرواحهم المسكينة. الشمس التي لطالما كانت ذهبية دافئة، تمد قريتهم بالضوء والأمان، قد صارت قرمزية كأنها تشتعل غضبًا، فتعالت صلواتهم البائسة خشيةً وتوسلاً.

في أحد البيوت تتألم امرأة شابة لسبب مختلف، فقد اختار طفلها هذه اللحظة بالذات لكي يولد، ولم يكن بجوارها سوى امرأة عجوز تحاول التخفيف عن المسكينة، بينما فرائصها ترتعد وهي تسمع الصرخات بالخارج.

قالت لها بصوت مرتجف: «تماسكي يا أميلدا، تماسكي يا بنيتي».

صرخت الشابة: «زوجي، أريد نامار».

قالت لها العجوز: «لقد خرج ليواجه هذا الكابوس في الخارج، ولكنني أعرف أنه سيعود بخير». الأصوات بالخارج جعلتها لا تصدق كلماتها، ولكنها تمنّت أن تصدقها الشابة المسكينة.

صرخت الشابة مرة أخرى، فشعرت العجوز بالخوف من أن تجذب الأصوات وحوش الظلام، فوضعت يدها على فم المرأة الشابة تكتم صرخاتها، وهي ترتجف خوفًا وألمًا.

فجأة سمعت صوت ارتطام بالباب، فشهقت العجوز في خوف. تعالى صوت الارتطام عدة مرات بينما الخشب يتشقق، والعجوز تتلو صلواتها بصوتٍ مرتعش، وقد اتسعت عينا المرأة وندت عنها صرخات مكتومة.

تحطم الباب ودلف إلى الداخل بخطوات بطيئة وحش مظلم تتطاير ألسنة اللهب من فمه مع لهائه، وقد ثبتَّ عينيه الحمراء على فريسته.

مشى الوحش للأمام بخطواته البطيئة مكشّرًا عن أنيابه، وقد أيقنت المرأتان بالهلاك. وفجأة قفز رجل كهل عبر الباب يحمل فأسًا، وصرخ في غضب، فالتفت إليه الوحش، وفي هذه اللحظة هوى الرجل بفأسه على عنق الوحش ليحوّله إلى دخان أسود، قبل أن يتوقف في موضعه وهو يلهث.

نظرت العجوز إليه في عدم تصديق، ثم سألته في لهفة: «نامار... ابني...؟».

لم تستطع أن تكمل سؤالها، ولكن الكهل هز رأسه في أسي، وهو يطرق بعينه أرضًا.

وفي هذه اللحظة تردد صوت بكاء رضيع، فنظرت العجوز إلى الفراش، إلى ما بين ساقبي المرأة. ثم مدت يديها وحملت الرضيع. اتسعت عيناها في دهشة وهي تنظر إليه، شعره أبيض، وبشرته شاحبة البياض. نظرت إلى الشابة، فوجدت المسكينة قد فارقت الحياة.

نظرت إلى الكهل، ثم ضمت الطفل الغريب إلى صدرها بحنان، ومشاعر شتى تضطرب بداخلها، بينما بكاؤه يمتزج مع صوت المعاناة البشرية الذي يتعالى في القرية.

## الفصل الأول

### حانة الغزال الوائب

قطعت الشمس الذهبية شوطاً كبيراً عبر السماء في رحلتها نحو الغروب، وهي تلقي بأشعتها الدافئة على القرية المقامة على جانب تل مرتفع ينحدر أحد جانبيه انحداراً متدرجاً حتى يصل السفح المستوي، بينما الجانب الآخر منحدر بشكل حاد ولا يمكن تسلقه. كانت القرية مقامة على الجانب الواسع المتدرج، واسمها قرية جانب التل. تتناثر البيوت البسيطة عبر القرية من طابق أو طابقين، وجميعها مطلية بألوان مختلفة زاهية، مزيج من الألوان الزرقاء والصفراء والخضراء وألوانٍ أخرى، فبدت من بعيد كزهور متناثرة على جانب التل. وعلى مسافة غير بعيدة عن القرية تمتد المراعي الخضراء، حيث تتمايل الأعشاب مع نسيم الهواء، وثغاء الأغنام يتعالى، فيتردد صده مع الرياح عبر الجانب المنحدر للتل.

كان هناك راع وحيد يحمل عصا يحدو بها الأغنام وهي تتناول الأعشاب من المرعى تحت أشعة الشمس. شاب يبلغ من العمر ثمانية عشر عاماً، ورغم سنه الصغير كان شعره ناصع البياض، منسدلاً على وجهه أبيض وشاحب تماماً، ولكن عينيه الزرقاوين تشعان بحيوية كبيرة. يرتدي وشاحاً من الصوف مصبوغاً بالأزرق يحيط بعنقه وكتفيه، فوق معطف من الصوف الأبيض، وسروالاً قماشياً بنياً فضفاضاً مزين بخطين من الفراء، وفي قدميه نعل جلدي سميك يساعده على المشي فوق الأرض الوعرة.

كان منهمكاً في عمله وهو يصفر للأغنام ويلوح بعصاه من آنٍ لآخر، قبل أن يرفع بصره نحو السماء وهو يظل عينيه بيده. شعر بالامتنان لوجود الشمس التي تمنحه الدفء في تلك الأيام الباردة، القرية بأسرها تمتن للشمس وتقدرها، إنها حامية القرية وراعتها.

ألقي بصره نحو الأفق فلم ير سوى الأشجار الطويلة بالغابة التي تحيط بالتل وقريته إحاطة القلادة بالعنق. تختلف هذه الأشجار عن الأشجار القليلة المترامية في أرجاء القرية، فهي بالغة الارتفاع وسميكة للغاية، فيكون سمك جذعها بحجم بيت تقريباً، ويخيل للرائي أن قمم هذه الأشجار تلمس السحاب. لا يمكن لأحد أن يرى في الأفق سوى الأشجار على مسافات مترامية الأطراف، حتى لو وقف أعلى قمة التل، وهو ما يخشاه قاطنو القرية وينفرون منه، كما ينفرون من الغابة.

انتاب جسده قشعريرة باردة، فجذب وشاحه الصوفي حول جسده. أدرك أن الشمس توشك على الغروب، ويجب عليه أن يعود إلى القرية مع بقية الرعاة. لمحهم من بعيد في مراعيهم وهم يستعدون لرحلة العودة، فراح يلوح بعصاه ليجمع قطيعه ويحثه على الإسراع بدوره.

اقتربت الشمس كثيراً من الأفق فوق قمم الأشجار الطويلة، وهي تلقي بآخر ما تبقى من أشعتها الشاحبة من بين الغيوم التي اصطبغت بلون الغسق الأحمر الداكن، فتكاثفت الظلال بين أشجار الغابة، مما جعلها تستحق ذلك الاسم المخيف الذي أطلقه عليها قاطنو القرية؛ غابة الظلال.

ألقي نظرة أخيرة نحو الغابة، واقشعر جسده.

يخشى الرعاة الغابة ويتهامسون بشأن وحوش مخيفة تهجم منها على القرية يطلقون عليها اسم الذئاب. لطالما سمع القرويين يتحدثون في خوف عن هجوم الذئاب، ورأهم ينظرون بخوف نحو غابة الظلال وهم يتمتمون ويتوسلون للشمس نهاراً أو القمر والنجوم ليلاً، وشاهد الرعب في أعينهم في الليالي التي يكون القمر فيها محاقاً. كثيراً ما سمع في خوف عن ذئب هجم على القرية قبل أن يتولى الحرس أمره، ولكنه لم ير

الذئاب بعينيه من قبل، ولا يعرف حتى كيف تبدو، حتى كاد يظنها خرافة أخرى كخوفهم من الغابة والأطالال.

وكخوفهم منه... بسبب شعره الأبيض، وبشرته الشاحبة، لذا لم يسمحوا له بأن يرعى قطيعه إلا في هذه البقعة النائية من المراعي، القريبة بشكل خيف من الغابة، ولم يكن بوسعها أن يعترض، بل كان ممتناً لأنه يجد فرصة للعمل. إنه لا يملك هذا القطيع، بل يمتلكه السيد نيربو، الذي يمنحه أجرًا نظير تعبته في رعي الغنم طوال اليوم، ولكنه لم يفعل هذا بدافع من طيبة قلبه، بل لأنه يعلم أنه سيتقاضى أجرًا أقل بكثير من غيره من الرعاة.

رأى الرعاة يقتادون قطعان الماشية والأغنام عائدين إلى القرية من المراعي المتناثرة على جانب التل الواسع، بعضهم يطلق صفيراً، أو ينشد بغناءٍ عذبٍ تتبعه الأغنام والماشية، بينما الأجراس المتدلّية من أعناقها تصدر نينياً يتردد مع الصفيير والغناء وتحمله الرياح إلى أماكن بعيدة.

كان الرعاة يرتدون ملابس صوفية ذات ألوان متعددة، ويضع بعضهم على رأسه غطاء رأس صوفياً يتدلى على أذنيه، ومن بعض الأغطية تتدلى كرات صوفية تتطاير مع الريح. ضم الرعاة أوشحتهم إلى أجسادهم مع هبات الرياح الباردة، وضغط بعضهم على غطاء الرأس بيده لكيلا يطير بعيداً مع الرياح، وهم يحملون ببيوتهم الدافئة، والبعض يحلم ببعض المشروبات الساخنة في حانة القرية مع بعض الطعام الذي يتصاعد منه البخار، وصوت طقطقة الحطب في نيران المدفأة، فجعلهم هذا يسرعون من وتيرة سيرهم في الطرق الترابية الممهدة الصاعدة والهابطة على جانب التل.

تحاشى الرعاة النظر إلى أعمدة قديمة متداعية ومبانٍ صخرية متهدمة تتناثر على جانبي الطريق وهم يمرون من جوارها، وتمتم بعضهم بكلمات خافتة غير مسموعة. هذه المباني والأعمدة - التي يطلقون عليها اسم الأطالال - تحمل على جوانبها رموزاً ونقوشاً غريبة يجهل معناها قاطنو القرية، حيث يعتقدون أن وجودها يسبق وجود القرية، بل لعلها قديمة قدم الزمان ذاته، ويخشونها كما يخشون الغابة، ولكنهم تعلموا احترامها وعدم لمسها، بل ويعتقد بعضهم أنها تحميهم من شرٍ قديم مجهول يكمن داخل غابة الظلال.

كانت المحاصيل تتمايل مع الرياح في الحقول القريبة من القرية، وقد تركها المزارعون عائدين إلى بيوتهم بصحبة الرعاة، ومن ورائهم على مسافة ليست بعيدة يسير الراعي ذو الشعر الأبيض. كان معظم الرعاة الآخرين يتظاهرون بعدم رؤيته، وبعضهم يختلس النظر إليه من بعيد بين الفينة والأخرى. شعر بنظراتهم الخاطفة لكنه تجاهل هذا فقد اعتاد عليه منذ طفولته.

عند اقترابه من القرية شاهد السور الخشبي الذي يحيط بالقرية من الناحية المواجهة للغابة، والأبراج الخشبية القصيرة التي يقف عليها الحرس في ثياب صوفية صفراء من فوقها معطف جلدي متين بلا أكمام، يضع كل منهم يده على مقبض سيفه الموضوع في غمده، بينما يراقبون أفواج الرعاة والمزارعين العائدين إلى القرية عبر البوابة الخشبية المفتوحة على مصراعيها.

شق طريقه عبر الزحام دالفاً إلى القرية، ثم صاعداً التل عبر درجات سلم صخرية، تبدو كأنها مصنوعة من نفس صخور الأطالال العتيقة، تتناثر مثل هذه الدرجات على جانب التل، ولكن الناس لا يخشونها كما يخشون الأطالال، ربما لأنها لا تحمل النقوش الغريبة ذاتها، ولا تبدو متهدمة ومتداعية. تربط مثل هذه الدرجات الصخرية بين مستويات القرية المختلفة التي تشبه مدرجاً كبيراً، وبين شوارعها المتشابكة والمتداخلة.

مشى الراعي الشاب وحيداً، لا يبدو عليه أنه مكترث بالهواء البارد الذي يصفع وجهه، غارقاً في أفكاره الخاصة، والأهم من كل هذا أنه لم يكن مكترثاً بتمتمات الناس ولا نظراتهم الخائفة أحياناً، والمزدرية أحياناً أخرى.

أيقظه من أفكاره صوت يناديه من ورائه: «بارسينو! ها أنت ذا!».

جفل بارسينو، ثم نظر وراءه فرأى شاباً يكبره عمراً بقليل، بجسد مفتول العضلات، وشعر أسود قصير يحيط به طوق جلدي بني يشده للوراء، ويرتدي معطفاً أسود قصير الأكمام، فوق قميص من خطوط حمراء وذهبية، وسروالاً قماشياً بدوائر متداخلة من اللونين الأبيض والأسود، ويتعل في قدميه حذاءً من الجلد.

ابتسم بارسينو وقال: «مرحباً يا أكينو. أرى أنك قد أنهيت عملك أيضاً».

قال له: «أنا لا أنتظر مثلكم أيها الرعاة حتى اقتراب غروب الشمس». يعمل أكينو في المزارع الواقعة على تخوم القرية، فمنح العمل الشاق جسده بعض المتانة.

غالباً ما يجذب حديثهما معاً بعض النظرات المستنكرة من بعض المارة، ولكنها تجاهلا هذه النظرات. قال له أكينو وهو يكزه في كتفه: «ما رأيك أن نذهب اليوم إلى الحانة ونقضي بعض الوقت هناك؟».

ابتسم بارسينو ابتسامة حزينة وقال: «دوماً ما تلح عليّ في الذهاب إلى الحانة، رغم معرفتك بما يشعر به الناس حيالي، لن يقبلوني بينهم يا أكينو».

قال أكينو بإصرار: «لا تقلق يا باري لن يحدث شيئاً».

نظر بارسينو ناحية الغسق الآخذ في الإظلام وقال: «الحانة؟ وفي اليوم الأول من احتفال اكتمال القمر؟ لا أعتقد أن هذه فكرة جيدة».

كور أكينو قبضته اليمنى وضرب بها راحة يده اليسرى وهو يقول: «سأكون بجانبك ولن يجرؤ أحد على إزعاجك، ولن أسمح لأحد أن يضايقك».

أشاح بارسينو ببصره وهو يقول: «لا أرغب في المتاعب. هذا لن يعجب جدتي».

أحاط أكينو عنقه بذراعه وهو يقول: «اليوم هو أول أيام اكتمال القمر الثلاثة كما قلت، والجميع سيسهرون ويغنون. أعتقد أنك بحاجة إلى بعض المرح. أما عن الجدة أورتينا فلا تقلق بشأنها، لا شك أنها تعرف أنك بصحبتني».

ابتسم بارسينو ابتسامة شاحبة وهو يقول: «وكأن هذا سيجعلها تطمئن».

قهقهه أكينو بصوت عالٍ ف جذب إليه المزيد من الأنظار، ثم ربت على كتف صديقه وقال: «دعنا نعيد أغنامك هذه إلى نيربو ثم نفكر بعدها في الأمر».

سارا معاً صاعدين الدرجات الصخرية والأغنام تصدر ثغاءها متعجلة العودة إلى البيت. مع حلول الليل بدأ الناس في إشعال المصابيح الزيتية، فأضاءت نوافذ بعض البيوت، وبدأت الأصوات المرحية تتصاعد في سكون الليل، بينما المزارعون والرعاة يعودون إلى بيوتهم، والحرس يشعلون المزيد من المصابيح الزيتية على طول السور. رغم أنهم يكونون أكثر استرخاءً عادة في أيام الاحتفالات. يعتقد الجميع أن القمر المكتمل يمنحهم الحماية من قوى الظلام تماماً كالشمس.

وقف بارسينو بصحبة أكينو أمام بيت السيد نيربو، وراح ينادي عليه، وسرعان ما فتح الباب رجل ضئيل الجسد قصير القامة، وما إن رأى بارسينو وأكينو حتى تجهم وجهه ثم قال مخاطباً الأول: «لم تأخرت يا فتى؟». أدرك بارسينو أنه متعجل هذا اليوم لأنه يرغب في الذهاب للاحتفال باكتمال القمر مع مجموعة من أصدقائه، ولكنه لم يقل شيئاً واكتفى بأن هز كتفيه.

منحه نيربو نظرة غاضبة أخيرة، ثم اقتاد الأغنام إلى داخل البيت قبل أن يعود ويضع في يد بارسينو بعض العملات النحاسية قائلاً: «ها هو أجرك. لا تتأخر في صباح الغد». ثم صفق الباب وراءه بقوة.  
قال أكينو في غيظ بعد أن ابتعدا عن البيت: «يا له من رجل فظ».  
هز بارسينو كتفيه وقال: «إنه لطيف بما يكفي للسماح لي بالعمل من أجله. لا يمكن قول هذا عن الكثيرين من سكان القرية». رغم محاولته لأن يكون ساخرًا اكتسى وجهه بالوجوم.  
قال أكينو وهو يحك ذقنه: «ربما يمكنني إقناع السيد أسيار بأن تعمل معنا».  
تنهد بارسينو ثم قال: «لا أرغب في العمل مزارعًا، لقد اعتدت على المرعى».  
قال أكينو ضاحكًا: «هذا لأنه يسمح لك بالكثير من النوم على الحشائش».  
وعندما رأى أن صديقه لا يزال واجمًا قال: «فلتجرب الاحتفال معنا اليوم، هذا سينسيك كل شيء».  
حاول بارسينو أن يعترض، ولكنه وجد نفسه يستسلم ليد صديقه التي تجذبه بعيدًا.

\*\*\*

عندما اقتربا من الحانة رأى بارسينو الضوء منبعثًا من نوافذها، يصحبه أصوات صاخبة وموسيقى وغناء. وقف بصحبة أكينو أمام باب الحانة ينصت إلى الأصوات، بينما تتأرجح مع الهواء فوق رأسه لافتة خشبية تصدر صريرًا مع حركتها، مكتوب عليها «حانة الغزال الوائب» وبجوار الكلمات قد رُسم غزالًا يرفع قائمته الأماميتين كأنها يستعد للوثب. لم يكن قادرًا على قراءة الكلمات، فهو لم يتعلم القراءة، ولكنه حفظ بعض الكلمات من طول الاعتياد عليها.

وقف بارسينو أمام الحانة وشعره الأبيض يتطاير مع الهواء وقد عاد إليه ترده فقال وهو يحاول التراجع إلى الورا: «لا أعتقد أنه يجب عليّ أن أدلف إلى الحانة، ربما يجب أن أترك الناس واحتفالهم».  
وضع أكينو يده على كتفه بحزم وقال: «من حقك الاحتفال كالبقية يا صديقي، فالأيام القمرية الثلاثة يشعر الجميع فيها بالامتنان، ويجب عليك أن تشعر بالامتنان كالأخرين».

وقبل أن يجد بارسينو وقتًا أطول للتفكير دفع أكينو الباب بقدمه ودلف إلى الداخل، ليدلف معه الهواء البارد، فتهايلت على إثره ألسنة اللهب في مدفأة الحانة، وصممت الأصوات بينما التفتت إليه وإلى بارسينو أعين كل الموجودين بالحانة، وعند رؤية الأخير تجمدت بعض أقذاح الشراب في الأيدي وهي في طريقها إلى بعض الأفواه التي لا تزال مفتوحة.

كانت هذه هي المرة الأولى التي يرى فيها الحانة من الداخل، فراح يحدق إلى المدفأة الأكبر من أي مدفأة قد رآها في حياته، تتأجج بالنيران المشتعلة في الحطب، وعلى الجدران بعض اللوحات المنسوجة التي تمثل مشاهد طبيعية، وفي زاوية الحانة على منصة مرتفعة قليلًا يجلس بعض العازفين على الكراسي وكل منهم يمسك مزمارًا أو قيثارة أو يدق على بعض الطبول، والراقصون يتهايلون أمامهم مع اللحن المرح وهم يحملون الأقذاح في أيديهم فيتناثر منها الشراب، ولكن الصمت زحف إلى الجميع كموجة من الوجوم، حتى توقف العازفون عن العزف، وتوقف الراقصون عن الرقص، والأعين كلها مصوبة نحو شخص واحد؛ بارسينو.

ظل الصمت محيماً لثوانٍ لا يقطعه إلا طقطقة الحطب في نيران المدفأة، واللافتة التي يصفعها الريح بالخارج. وفجأة انكسر الصمت وبدأت التتمتات تتعالى، وصل بعضها إلى أذني بارسينو؛ «هذا الأمهق!»، «ما الذي جاء به إلى هنا؟»، «ألا يمكننا أن نحفل في سلام؟».

أراد بارسينو أن يستدير على عقبيه ويفر هاربًا، ولكن أكينو أمسك بيده وهو يقول له: «تجاهلهم، سرعان ما سيندمجون في الشراب والاحتفال وسينسون أمرًا تمامًا».

«أتمنى هذا». همس بها بارسينو وهو يشعر بالنظرات المصوبة عليه وهي تخترق جسده كخنجر حادة. ولكن صوتًا واحدًا لم يكن هامسًا، فقد رفع رجل عقيرته بصوتٍ ثَمَل وهو يقول: «ما الذي تفعله هنا أيها الأمهق؟».

أحس بارسينو بالدماء تتدفق إلى وجهه وهو يشعر بغضب شديد، بينما التفت إليه أكينو وقال بصرامة: «هذا ليس من شأنك».

اندفع ناحيتها رجل رفيع الجسد متورد الوجه، يحيط بفمه شارب رفيع ولحية مدبية، ويحيط بخاصرته منشفة بيضاء، كان يمسح فيها يديه وهو يصيح: «ما الذي جاء بكما إلى حانتي؟». نظر أكينو إلى صاحب الحانة وهو يقول: «من حق كل شخص في القرية أن يأتي إلى الحانة، نحن هنا بنقودنا ولا نتسول منك يا طابيو».

رفع صاحب الحانة صوته وهو يقول: «أجل من حقك المجيء إلى الحانة ولكن...». ثم نقل بصره إلى بارسينو وقال: «زبائني لا يشعرون بالراحة لوجود صديقك ال... الشاحب هذا هنا». أطرق بارسينو ببصره قائلاً: «سأرحل».

أمسك به أكينو ليمنعه من الرحيل دون أن يبعد عينيه عن طابيو وهو يقول: «ما هي مشكلتك مع صديقي بالضبط؟».

بدا على طابيو المفاجأة من هذا السؤال، ثم قال: «أنت تعرف، والجميع يعرفون، إنه...». ولكنه لم يستطع إكمال إجابته فنظر حوله بحثًا عن الدعم. وقف بعض الأشخاص وراء صاحب الحانة، والنظرات الغاضبة تطل من أعينهم، بينما البقية واقفون بعيدًا وهم ينظرون إلى ما يحدث بخوف وترقب، وأدرك بارسينو أن الموقف على وشك الاشتعال، لم يعد هناك مفر من الأمر، والدائرة تضيق من حوله هو وصديقه، دائرة من الأعين الغاضبة والقبضات المتأهبة.

## الفصل الثاني

### رجل وكلبه

مع حلول المساء أظلمت غابة الظلال تمامًا، وحتى ضوء القمر المكتمل الذي اعتلى السماء من ناحية الشرق لم يكن قادرًا على اختراق أغصانها الكثيفة المتشابكة. ولكن من بين الظلال خرج رجل عجوز، تتطاير خصلات شعره الفضية مع الرياح، وقد حفر الزمن أخاديد عميقة في وجهه تشي بعمره، ولكن جسمه كان على النقيض من هذا، يبدو مستقيمًا وحيويًا، ولم ينحن مع الثقل الذي يحمله على ظهره؛ سلة خوصية كبيرة بشكل لا يتناسب مع حجم جسده، يعلقها على كتفيه وترتفع كومة الحطب بداخلها أكثر من ارتفاع جسده، ومن حزامه يتدلى على خاصرته فأسه عريض النصل الذي يستخدمه في تقطيع الحطب، بينما أشعة القمر المكتمل تنعكس على نصله الحاد. كان الكلب الأسود عجوزًا مثله، وقد اكتسى بعض الفرو الأسود على وجهه باللون الرمادي مع كبر سنه.

كان الحرس على وشك إغلاق البوابة، فترددوا عند رؤيته، ثم شاهدوه يمر بصحبة كلبه في صمت، قبل أن يتنفسوا الصعداء ويغلقوا البوابة التي أصدرت صريرًا في سكون الليل.

شق الحطاب العجوز طريقه عبر الدرجات الصخرية، وشوارع القرية، بينما العدد القليل من المارة الذين لا يزالون في شوارع القرية في تلك الساعة - دون أن يذهبوا إلى بيوتهم أو إلى الحانة للاحتفال بأول أيام اكتمال القمر - راحوا ينظرون إليه برهبة، وأسرع بعضهم الخطى وكأنهم يفرون من أمامه، ولكن لم يبدُ عليه أنه قد لاحظ شيئًا من هذا.

وأخيرًا وقف الحطاب العجوز أمام حانة الغزال الواثب. لم يسمع الصخب المعتاد من الداخل فعقد حاجبيه، ثم دفع الباب ليدلف إلى الداخل فرأى مجموعة من الناس يتقدمهم صاحب الحانة متحلقين حول شاين، أحدهما يحمل شعراً أبيض مميّزًا، والأعين تقدح بالشرر.

التفت الجميع ناحية الباب عندما انفتح، واختفى الشرر من أعين أكثر الرجال شجاعة ليحل محله الخوف، وتراجع بعضهم إلى الوراء. أسرع صاحب الحانة ناحيته وهو يقول في توقيير: «مرحبًا بالعجوز أوركين». كان صوته يرتجف وبعض نقاط العرق تسيل على وجهه رغم برودة الجو.

قال الحطاب بصوت هادئ ولكنه يحمل نبرة غضب كامنة فيه: «ما الذي يحدث هنا؟».

قال طابيو على الفور: «لا شيء يا سيد أوركين». ثم اختلس النظر ناحية بارسينو، قبل أن يقترب من الحطاب ويهمس بشيء ما.

أنصت الحطاب إليه ثم قال بصوت عالٍ: «اترك الفتى وشأنه يا طابيو. إن أراد أن يجلس قليلًا في الحانة فليفعل، ولا أريد أن أعرف أنك قد منعته من المجيء مرة أخرى». ثم زفر وقال كأنها يخاطب نفسه، ولكن صوته كان مسموعًا: «عقول الجهلة المليئة بالخرافات».

بدا الدهول على وجه طابيو، وزبائن الحانة، حتى أكينو وبارسينو بدا عليهما عدم التصديق، ولكن أحدًا لم يستطع أن ينطق بكلمة.

ظل طابيو متجمدًا في موضعه يمدق إلى الحطاب، بينما عاد الآخرون إلى طاولاتهم على مضض وهم يتبادلون الهمسات، وقد أدركوا أن الأمر قد حُسم.

تلقت الخطاب حوله حتى عثر على طاولة شاغرة، فاقترب منها وهو ينتزع سلته الخوصية من على كتفيه، ووضعها على الأرض بصوت ارتطام مرتفع يشي بثقلها، ثم استل فأسه من حزامه ووضعها على الطاولة، قبل أن يجلس على الكرسي الخشبي الموضوع أمامها ويسترخي في جلسته متجاهلاً الهمسات التي تصاعدت من حوله، بينما كلبه الأسود يستلقي على الأرض بجواره واضعاً رأسه بين قائمته الأماميتين.

كان بارسينو وأكينو لا يزالان واقفين، فنظر الخطاب ناحيتهما، ثم أشار إليهما أن يقتربا، ففعلاً هذا على الفور. قال لهما بنبرة أمرة وهو يشير إلى كرسيين شاغرين أمامه: «اجلسا».

فعلاً هذا على الفور، بينما طابيو لا يزال واقفاً كأنها لم يستوعب كل ما حدث بعد. فجأة قال بحدة كأنها أفاق من ذهوله: «العمدة...». ولكنه لم يستطع أن يكمل جملته.

رفع الخطاب حاجباً وقال: «أمر يد؟ ماذا عنه؟ هل هو من يدير حانتك؟».

ثم نظر ناحية سلته التي يفوق ارتفاع الحطب فيها طول صاحب الحانة وقال: «ربما يمكن للعمدة أن يجلب لك الحطب بدلاً مني».

قال طابيو بصوت مرتجف: «لا، لم أقصد هذا بالطبع».

كان بارسينو يراقب حوارهما في حيرة. بالطبع لن يقدر صاحب الحانة على رفض طلب لأوركين، إن أوركين هو الشخص الوحيد الذي يجروء على الذهاب إلى غابة الظلال لقطع الأشجار وجلب الحطب من أجل مدافع القرية. يقولون إن كل شخص غيره يجروء على الذهاب إلى هناك لا يعود، ولكن كيف يقدر على قطع تلك الأشجار العملاقة؟ يزعمون أن الخطاب يمتلك قدرة سحرية ما تحميه هناك، وتساعد على قطع الأشجار. لهذا يخافونه، بقدر ما يحترمونه. ولكن في كثير من الأحيان يشعر أن الناس يكرهونه. لماذا؟ يعرف بارسينو لماذا يكرهه الناس ويخافون منه، بسبب شعره الأبيض وملامحه الشاحبة، يقولون إنه قد ولد بدون مباركة الشمس - أيًا كان ما يعنيه هذا - وهذا هو السبب وراء هيئته الغريبة، يعتقدون أنه ملعون بطريقة ما. ولكن لم قد يكرهون الخطاب؟

نظر بارسينو إلى الخطاب أوركين وهو يشعر بالامتنان لمجيئه في الوقت المناسب، ولكن الخطاب لم ينظر ناحيته، بل اختار بعض قطع الحطب من سلته الخوصية الكبيرة، ثم وضعها على الطاولة أمامه، فحملها صاحب الحانة بين ذراعيه على الفور وقال: «آه، حسناً، شكراً لك، كم ثمن هذه القطع الممتازة من الحطب؟».

قال أوركين وهو يميل بكرسيه إلى الوراء: «الطعام والشراب لي ولهذين الشابين».

تضاعفت الدهشة المرتسمة على وجهي بارسينو وأكينو، أما طابيو فقد تلفت حوله ثم قال متلعثماً: «الطعام... آه... بالطبع...».

نظر أوركين إلى كلبه وقال: «ولا تنس إحضار بعض الطعام من أجل برق».

نظر بارسينو إلى الكلب وهو يفكر، اسم غريب لأن يُسمى به كلب عجوز بطيء. أما صاحب الحانة فقد ازدرد لعابه وقال: «آه، أجل، بالطبع». ثم التفت إلى العازفين وقال: «فلتعودوا إلى عزفكم، لن نضيع الليلة الأولى من احتفال القمر».

بدأوا يضربون على أوتارهم وطبولهم وينفخون مزاميرهم، وبيطء استطاع الناس العودة إلى المرح، رغم أنه لم يكن بنفس الروح السابقة، ولكنهم مع الأقداح المناسبة من الشراب يمكنهم أن ينسوا أي شيء.

توجه صاحب الحانة ناحية المطبخ، وبعد قليل خرج ومن ورائه شابة تبدو في مثل عمر بارسينو أو أصغر قليلاً، ترتدي كنزة صوفية زرقاء وتنورة فضية، ولها شعر أحمر ناري يتناثر من حول وجهها وتتدلى منه

أشرطة فضية، كانت عيناها عسلتين، فبدت في عيني بارسينو كالنار المتقدة، وليست شاحبة كالثلج مثله، ولكنه ما إن رآها حتى احمر وجهه قليلاً.

وكزه أكينو بمرفقه في جانبه وهو يقول: «انظر، إنها كينورا».

قال له بارسينو في حرج: «أجل، رأيته». لم يأت بارسينو إلى الحانة من قبل ولكنه لطالما اختلس السمع إلى الاحتفالات في الساحة الكبرى، وقد سمع غناءها وعزفها من قبل، إنها لا يشبهان أي شيء قد سمعه من قبل. وفي كل مرة يلح عليه أكينو في المجيء إلى الحانة يكاد أن يقبل هذا بسببها، حتى اليوم بعد أن أصغى إلى صديقه أخيراً، فقد كان يتمنى في قلبه أن يراها ويسمعها.

تنهد أكينو وقال: «من يصدق أن هذه الزهرة الرقيقة بنت طاييو؟».

أحس بارسينو بقبضة باردة تعصر معدته عند سماع هذا.

كانت كينورا تحمل صحيفة عليها ثلاثة أطباق من قطع الخضروات ومثلها من الحساء الساخن الذي يتصاعد منه البخار، وضعتها على الطاولة، ووضعت طبقاً من العظم الملتصق به بعض اللحم أمام برق، ثم ترددت قليلاً قبل أن تربت على رأسه برفق.

راقبها بارسينو وهي تتعد مندهشاً، فقال أكينو: «إنها لا تشبه أباهاً حقاً».

قال الخطاب بصوته الرخيم: «كفا عن الشرثرة وتناول طعامكما قبل أن يبرد».

جفل الاثنان كأنما قد نسيا أنهما جالسان بصحبة الخطاب. راح الكلب الأسود يلتهم الطعام بحماس بينما أوركين يتناول طعامه بتؤدة. تردد الاثنان ثم مد كل منهما يده إلى طبقه، وما إن ارتشف بارسينو الحساء الساخن حتى شعر بالدفء.

قال أوركين: «إذن، ما الذي جاء بك إلى الحانة الليلة؟».

أدرك بارسينو أن الخطاب يخاطبه، فكاد أن يخبره أنه لم يرغب في المجيء من البداية، ولكنه استجمع شجاعته وقال: «لقد أردت أن أحتفل بالليلة الأولى مثل غيري من قاطني القرية».

ارتشف الخطاب العجوز الحساء من الطبق وهو ينظر إليه بعينين جامدتين، وخيّل إليه أن الخطاب سيوبخه، ولكنه تفاجأ عندما قال له الخطاب: «أحسنت قولاً».

هنا ضحك أكينو وقد عادت إليه طبيعته المرححة فقال: «أجل، ربما يأتي غداً إلى الساحة الكبرى من أجل الاحتفال الكبير».

شعر بارسينو بقلبه يغوص بين قدميه وقال: «ليس إلى هذا الحد».

قال أكينو محتجاً: «ولم لا؟ يجب عليك أن تكف عن الخوف من سكان القرية».

قال بارسينو في حزن: «هم من يخافون مني».

زفر أكينو وقال: «هذه القرية بحاجة إلى تغيير حقيقي».

برقت عينا أوركين عندما قال أكينو هذا، وراح يتأملها كأنها هناك فكرة ما تدور في عقله العجوز. ثم أنهى ثلاثتهم الطعام في صمت، بينما الموسيقى تتعالى من حولهم.

ظهرت كينورا مرة أخرى وهي تحمل بعض الطعام إلى طاولة أخرى، فصاح أكينو فوق صوت الموسيقى: «كينورا، هنا».

اقتربت منهم بخطوات رشيقة وهي تبسم ابتسامة أحس بارسينو معها بالدفء، ثم قالت: «هل ترغبون في الشراب أيها السادة؟».

قال أوركين: «ثلاثة أكواب من النبيذ المتبل».

قال بارسينو في تردد: «لم أشرب النبيذ من قبل، ربما كوبًا من الشاي». قال أكيينو بغیظ: «الليلة احتفال يا رجل، وأنت تريد الشاي؟». ولكن بارسينو قال بإصرار: «الشاي فقط من فضلك يا كينورا». انتابه شعور غريب مع نطقه باسمها، لم يستطع تفسيره، ولكنه بدا شعورًا جميلًا.

صاح طابيو من ورائها: «لا تتلكئي عندك يا فتاة، هناك زبائن في انتظارك». صاحت بدورها: «حسنًا يا أبي». قبل أن تسرع لأخذ طلبات الزبائن الآخرين. تتبعها بارسينو بنظره، ثم التفت ناحية الحطّاب الذي كان صامتًا وقال له: «شكرًا لك». نظر إليه أوركين متسائلًا فقال بارسينو: «لولاك ما استطعت البقاء في الحانة». قال أوركين وهو يتمطى: «صدقني لا أعرف إن كان ما فعلته هو الصواب، ولكنه بدا في تلك اللحظة صوابًا على أي حال».

هذه المرة جلب طابيو لهم المشروبات، ووضعها على الطاولة، ثم قال في ضيق حاول إخفاءه: «هل تحتاجون إلى شيء آخر؟». ابتسم أوركين في سخرية وقال: «لا تقلق، لن أطيل البقاء. يمكنك بعدها أنت ورواد حانتك أن تستكملوا مرحكم». شحب وجه طابيو وقال: «لم أقصد هذا...».

ولكن أوركين تجاهله وهو يمسك بقدحه ويتجرع شرابه على عدة جرعات قبل أن يمسح فمه بكم رداؤه. شاهده بارسينو يعتدل واقفًا ويحمل سلته الخوصية على ظهره ويعلق الفأس في حزامه، فالتفت الأعين إليه، ولكنه توجه ناحية باب الحانة بصحبة كلبه والنظرات تلاحقه. مشى أوركين ناحية الباب، وما إن خرج من الحانة مغلقًا الباب وراءه حتى خيل إلى بارسينو أنه قد سمع عدة زفرات من الارتياح بينما يمدق إلى الباب حيث اختفى أوركين. قال له أكيينو: «هل تصدق ما حدث؟».

هز بارسينو كتفيه ثم نظر ناحية طابيو متوقعًا أن يحاول طرده بعد رحيل الحطّاب، ولكنه كان منشغلًا بالحديث مع بعض الزبائن الآخرين متجاهلاً طاولتهما، فأمسك بكوب الشاي وارتشف منه رشفة طويلة، مستمتعًا بالمذاق العشبي.

فجأة تعالت أصوات الزبائن من حوله تطلب من كينورا الغناء، فانتبهت حواس بارسينو، لقد سمع كينورا تغني من قبل، ولكنه حينها لم يكن قريبًا منها إلى هذا الحد. توجهت كينورا إلى المنصة التي يجلس عليها العازفون، والناس يفسحون لها الطريق، بينما تحمل قيثارتها الصغيرة ذات الخشب البني الداكن المصقول، والمطعمة بلونٍ ذهبي التي كانت تلاًلًا مع ضوء المصابيح والنيران التي تتمايل في المدفأة. جلست كينورا على الكرسي، واضعة القيثارة على حجرها، ثم مدت أصابعها الرقيقة وبدأت تداعب الأوتار.

تصاعدت الموسيقى العذبة فصمت الجميع إلا من همسات متناثرة وقعقة بعض الأقداح، ثم بدأت كينورا تغني فكان صوتها أعذب من الموسيقى، وسكنت الأصوات تمامًا.

أحس بارسينو أن الزمان قد توقف به وهي تغني أمامه، لم يعد يشعر بشيء من حوله في الحانة، ولم يعد يرى سواها. أحس أن صوتها يحمله إلى عوالم أخرى، إلى ما وراء القرية وغابة الظلال، لو كان ثمة عالم آخر هناك، إلى حيث تغيب الشمس كل يوم، فربما ينتمي هذا الصوت إليه.

أنهت غناءها أخيراً، فراح الناس يصفقون ويصفرون. أحس في تلك اللحظة أنها تنظر إليه مبتسمة، ولكنها في اللحظة التالية انحنت وهي تمسك بقيثارتها، ولوحت بيدها في تحية لبقية المعجبين بغنائها. كان أكيانو بجواره يضع إصبعين بين شفثيه وهو يطلق صفيراً عالياً، ثم صفع بارسينو على كتفه وهو يقول: «ماذا بك يا فتى؟ ألم يعجبك الغناء؟».

فرك بارسينو كتفه بألم وهو يقول هامساً: «إنه أجمل شيء سمعته في حياتي». قهقهه أكيانو وقال: «لم لا تقول لها هذا بنفسك يا باري؟». وقبل أن يمنعه بارسينو من فعل شيء أحرق راح ينادي على كينورا.

اقتربت منه وهي تقول: «ما الأمر يا أكيانو؟».

قال لها: «صديقي هذا يريد أن يقول لك شيئاً».

نظرت إليه وهي تقول: «حسناً؟ ما الأمر؟».

قال بارسينو بمزيج من الحرج والغیظ: «لا شيء، يبدو أن صديقي يرغب في قدح آخر من الشراب». ثم تجرع ما تبقى من كوب الشاي - الذي كان قد برد - دفعة واحدة.

قال أكيانو: «أعرفين؟ أعتقد أنه محق، أنا بحاجة إلى قدح آخر من الشراب». ثم أمال رأسه للوراء وقهقهه ضاحكاً.

لاحظ بارسينو في هذه اللحظة أن طابيو ينظر ناحية طاولتهما في غضب، فقال وهو يعتدل واقفاً: «سأعود للبيت».

اتسعت عينا أكيانو وقال: «ماذا؟ ألن تكمل الاحتفال معنا؟».

هز رأسه وقال: «لم أخبر جدتي أنني سأذهب إلى أي مكان بعد العمل، ربما تشعر بالقلق حيالي». ثم بدأ يسير ناحية باب الحانة.

ناداه أكيانو: «باري! بارسينو! انتظر!».

ولكنه لم يتوقف حتى خرج من الحانة، وأفكار شتى تتصارع بداخل عقله.

## الفصل الثالث

### الطيف

ما إن خطا بارسينو خارج الحانة حتى صفعه الهواء البارد الذي يؤرجح لافتة الغزال الواثب من فوقه، فضم رداءه إلى جسده ليحمي نفسه بعض الشيء من البرد وشعره الأبيض يخفق مع الهواء، ومن ورائه تعالي صوت الموسيقى من جديد وقد عاد العازفون إلى عزفهم، ممتزجاً معه صوت الضحك وقعقة الأقداح. التقى ببعض المارة في الطريق، فتجاهلهم وتجاهلونه. في المعتاد لا يخرج الناس كثيراً من بيوتهم في الليل، ولكنهم يفعلون هذا في أيام القمر المكتمل الثلاثة، حيث يحميهم القمر المكتمل ليلاً كما تحميهم الشمس نهاراً.

سار صاعداً شوارع القرية ودرجاتها الصخرية، ما بين الأطلال التي بدت مخيفة في الليل أكثر منها نهاراً. البيوت غارقة في ظلام إلا من بعض النوافذ القليلة التي يشع منها ضوء شاحب هنا وهناك، وبعض الحشائش البرية التي تشغل بعض الفراغات فيما بين البيوت، وبعض الأشجار المتناثرة على مسافات متباعدة. فكر أن هذه الأشجار لا تصلح لصنع الحطب للأسف، فهي تحترق بسرعة تاركة وراءها الفحم والرماذ، أما حطب أشجار الغابة فقد يظل محترقاً لأيام طوال يشع بالضوء والحرارة، وهو ما لم يفهمه بارسينو قط، كل الأشياء الأخرى تحترق بسرعة، ولذلك تظل قرية جانب التل معتمدة على الحطاب العجوز، رغم كرهها له، أو خوفها منه.

أعاده ذلك للتفكير في الحطاب، فامتزج بداخله الامتنان لأنه أنقذه، والحيرة من سبب تصرفه. لم يعامله أحد بلطف من قبل سوى صديقه أكينو، ربما لأن أكينو يتيم مثله، قد فقد والديه في سن صغيرة للغاية دون أن يعرف شيئاً عنها. فكر كيف سيكون شكل حياته لو أن والديه لا يزالان على قيد الحياة. ملأته الفكرة بالحزن فنفضها عن رأسه، وفكر بدلاً من ذلك في غناء كينورا الساحر وعزفها الجميل.

أفاق من شروده عندما أحس فجأة أن كل شيء ساكن من حوله، لا يوجد صوت سوى حفيف الرياح، ولا يوجد ضوء من أي منزل قريب منه، فتسارعت نبضات قلبه، وقرر أن يسرع الخطى في عودته إلى بيته، عليه أن يحصل على قسط من النوم لكيلا يكون مجهداً عندما يستيقظ من أجل عمل الغد، كما أنه لا يريد أن تقلق عليه جدته كثيراً.

فجأة تجمد في موضعه، فقد حُيِّل إليه أن يرى شيئاً من بعيد، كأنها هو ضباب داكن يتماوج في منتصف الطريق، أو هو شيء... أشبه بالطيف. أحس كأنه ينظر إلى رجل يقف هناك، ولكنه بطريقة ما يستطيع أن يرى من خلال الرجل. ولكن... لا، لم يكن رجلاً، كان هناك شيء غريب حياله، شيء غير بشري. ولكن هذا الرجل، أو هذا الشيء، أيّاً ما كان، ظل واقفاً هناك كأنها ينظر إليه، فأبطأ بارسينو من حركته، بينما تسارعت نبضات قلبه وأنفاسه، ثم... رفع الشيء يده، وأحس كأنها يشير إليه بإصبعه، قبل أن يتلاشى تماماً، كأنها قد تبخر، أو كأنها لم يكن.

تجمد بارسينو في موضعه وهو يحدق إلى الموضع الذي اختفى فيه... الطيف. لم يكن ثمة شيء هناك، ف شعر أنه تخيل الأمر برمته، ولكن لا، إنه واثق من أنه لم يتخيله.

ما إن استعاد قدرته على السيطرة على أطرافه، حتى أسرع عدواً ناحية بيته، وكاد أكثر من مرة أن يتعثر في الدرجات الصخرية. ربما التقى بأحد المارة، الذي نظر إليه بدهشة، وربما لم يحدث هذا، لم يكن واثقاً، صار

العالم ضبابياً من حوله، ولم يكن راغباً في التوقف حتى يصل إلى بيته.  
ما إن وصل بارسينو إلى الشارع الذي يوجد فيه بيته حتى لمح شيئاً في آخر الشارع، فجفل وتوقف في موضعه، ثم أدرك أنه شخصٌ ينعطف عند نهاية الشارع ليختفي عن ناظره. خيّل إليه أنه يحمل سلة خوصية، ويسير بجانبه كلب. تساءل بدهشة في قرارة نفسه: الحطّاب العجوز أوركين؟

وقف بارسينو أمام بيت صغير من طابقين، ملون كالبيوت الأخرى، ثم طرق على الباب وهو يلهث، بينما يتلفت يمنة ويسرة طيلة الوقت، خوفاً من ظهور ذلك الطيف مرةً أخرى، وبعد مرور بعض الوقت سمع صوت مزلاج الباب وهو يُزاح، ثم انفتح الباب ليرى على الضوء الشاحب القادم من الداخل امرأة عجوز متغضنة الوجه، ومنحنية الظهر، تتوكأ على عصي.

كان القلق مرتسماً على محياها، ولكن ما إن رآته حتى استرخت ملامحها العجوز، ولكن القلق كان لا يزال ساكناً في صوتها وهي تقول: «بارسينو، لقد تأخرت كثيراً يا بني، أين كنت؟».

أفسحت له الطريق كي يدلف إلى البيت، حيث كان هناك مدفأة صغيرة بها بعض الجمرات التي تكافح لطرده البرودة من البيت الصغير. قال لها وهو يلقي بجسده على كرسي خشبي متداعٍ: «لقد خيّل إليّ أنني رأيت أوركين الحطّاب في شارعنا، هل كان هنا؟».

أومأت برأسها وقالت: «أجل، لقد جلب لنا بعض الحطب». ثم نظرت إليه وقالت: «لم تخبرني، أين كنت؟».

تنهد بارسينو وهو يتكئ بظهره إلى الكرسي ويميل برأسه للوراء، ثم قال: «لقد ذهبت مع أكينو إلى الحانة».

عقدت الجدة أوريثا حاجبيها وقالت: «الحانة؟ لم أعهدك تذهب إلى هناك».

قال وهو يتحاشى النظر إلى عينيها: «لقد أصر أكينو أن أصحبه».

قالت الجدة في قلق: «أتمنى ألا يوقعك أكينو في المتاعب».

قال لها بارسينو في شيء من الضيق: «لم يحدث أي متاعب، كما أن أكينو هو الوحيد الذي يعاملني في القرية كصديق، أو بالأحرى يمكنني أن أقول إنه الوحيد الذي يعاملني كإنسان وليس كمسخ». ثم تمالك نفسه، وتردد بعض الشيء، قبل أن يضيف: «لقد كادت أن تحدث مشكلة، ولكن الحطّاب كان هناك، وبفضله لم يحدث شيء».

عقدت الجدة حاجبيها بشدة، حتى خيّل لحفيدها أنهما لن ينفكا مرةً أخرى، وهي تقول: «ما الذي حدث بالضبط؟».

حكى لها بارسينو ما جرى في الحانة، ثم ختم حديثه قائلاً: «يبدو أن هذا الحطّاب شخص طيب عكس ما يقوله الناس».

زفرت الجدة أوريثا وقالت: «إن كان أكينو سيجلب لك المتاعب مرة، فهذا الحطّاب سيجلب لك المتاعب ألف مرة. عليك أن تبقى بعيداً عنه يا بني». ثم أضافت في ضيق: «وابق بعيداً عن تلك الحانة، وصاحبها الأحمق».

تنهد بارسينو، ثم لوح بذراعيه وقال: «حسنًا، سأفعل».

ابتسمت جدته وربتت على رأسه في حنان، ثم قالت له: «لقد أعددت لك العشاء، لا شك أنك تتضور جوعاً».

قال لها: «لقد تناولت بعض الحساء والخضروات في الحانة».

قالت جدته: «الحساء والخضروات لا يكفيان لإطعام شاب ناضج مثلك، وأنا قد أعددت الطعام بالفعل».

سارت جدته متوكئة على عصاها نحو المطبخ، وهي تشير إليه أن يتبعها، كان هناك قدر موضوع على الموقد، يتصاعد منه البخار مع بقبقة السائل بداخله. جلس بارسينو أمام طاولة خشبية صغيرة، بينما ملأت له جدته طبقاً من اليخنة، وضعت أمامه، مع رغيف من الخبز.

نظر لها بارسينو وهو يقول: «ألن تأكلي معي؟».

هزت رأسها وقالت: «لا، لقد تناولت طعامي قبل مجيئك».

تردد بارسينو وهو يفكر: هل تناولت طعامها بالفعل؟ أم أن ما أخبرها به قد أقلقها حقاً حتى إنها لم تعد راغبة في تناول الطعام؟

نظر إلى الطبق ولكنه لم يشعر بشهية حقيقية. كان لا يزال يفكر فيما حدث في الحانة ويسترجع تفاصيله، وأيضاً ذلك الطيف الغريب الذي شاهده أثناء عودته إلى البيت، في تلك اللحظة كان يسأل نفسه: هل شاهده حقاً؟ ربما كانت الظلال تتلاعب بعقله في تلك اللحظة، ربما... الظلال؟

كانت جدته تتأمله ولما رأت شروده سألته: «ما الأمر يا باري؟».

رفع بارسينو بصره إليها، وفكر ملياً قبل أن يسألها: «ما الذي يوجد وراء غابة الظلال يا جدي؟».

بدا أن السؤال قد باغت جدته، فقد اتسعت عيناها، وتزايدت التجاعيد من حولها، ثم قالت له ببطء: «أنا... لا أعرف يا بني. لا أحد يعرف».

وضع لقمة في فمه وراح يلوكها ببطء وهو يقول مفكراً: «ولكن هناك من يعرف بلا شك».

هزت العجوز رأسها وقالت: «ربما، لا أعرف. ولكن هناك حكايات تتردد عبر الأجيال. يقال إن هناك عالماً واسعاً وراء غابة الظلال، قرى أخرى، وبشرًا آخرين، ولكني لم أر شيئاً سوى قرية جانب التل منذ أن وعيت على الدنيا. يقول بعض الناس إنه في الماضي كان هناك زوار يأتون من وراء غابة الظلال، ولكن لم أر هؤلاء الزوار المزعومين، فلم يأت أحدٌ منهم إلى قرية جانب التل طيلة حياتي. على الأرجح لا يوجد أحد هناك، وإنما هي حكايات يرويها الناس لتسليتهم أنفسهم في الليالي الباردة عندما يتحلقون حول النار، كحكايات هؤلاء الناس الذين هبطوا في الماضي من السماء، بأجنحة بيضاء، وكانوا... كلها خرافات لا يجب على المرء أن يشغل باله بها».

عقد بارسينو حاجبيه، أحس أنه فقد شهيته للطعام تماماً، أزاح الطبق جانباً وهو يسأل جدته: «وماذا عن هذه الأطلال؟ من أين أتت؟ ولم يهاها الناس؟».

تنهدت الجدة وقالت له: «أنت تكثر من الأسئلة التي لا يعرف لها أحد جواباً. فلتكمل عشاءك».

قال وهو يعتدل واقفاً: «لقد شبعت، سأذهب إلى فراشي». لم يمنح جدته فرصة لأن تجادلها، أسرع خارجاً من المطبخ، ثم صاعداً السلم إلى الطابق الثاني، حيث تقع غرفة نومه، وغرفة جدته. فتح الباب ليُدلف إلى الداخل، ثم أغلقه وراءه بقوة. كانت النافذة مفتوحة وضوء القمر يتسلل من بين الستائر التي تتمايل مع الريح، القمر المكتمل.

بدل ملابسه بملابس النوم ثم ألقي بجسده على الفراش قبل أن ينظر إلى القمر، وهو يفكر في الحانة، فخيّل إليه أنه يسمع صوت الموسيقى والضحكات والرقص وقرع الأقداح، فكر في كينورا وصوتها العذب فجعله هذا يبتسم، ثم اقتحم الصورة وجه أبيها النحيف الغاضب، فتحولت ابتسامته إلى عبوسٍ على الفور.

كانت الرياح تصفر بالخارج، والهواء البارد يتسلل من شقوق في النافذة المغلقة، والقمر يحاول أن يبدد الظلمة بضوئه الشاحب دون أدنى نجاح في مهمته، فأدار ظهره إلى النافذة وهو يتدثر جيداً بالغطاء، وبدأ يدعو النوم إلى عينيه، ولكن النوم أبطأ في المجيء إليه تاركاً عقله يتقلب على جمر هادئ. راح يفكر في أكيـنو، هل يستمتع بوقته هناك الآن؟ لم تأخر النوم كثيراً؟ لم يَأبى أن يريح عقله المجهد؟ ولكنه جاء أخيراً، وأسدل على عينيه غلالته، فلم يشعر باللحظة الفارقة بين غرقه في الأفكار، وغرقه في النوم.

## الفصل الرابع

### صباح معتاد

في صباح اليوم التالي استيقظ بارسينو مع شروق الشمس وصياح الديكة في بيوت القرية المختلفة. كانت الشمس تشرق من وراء أشجار غابة الظلال الطويلة وتلقي بضوئها على جانب التل، وفي المساء تغرب من وراء التل، وراء أشجار الغابة على الناحية الأخرى.

أدرك بارسينو أن ما أيقظه كان نداء السقاء الذي يحمل الماء من صهاريج الماء التي تجمع مياه الأمطار وتخزنها، قبل أن يحملها السقاؤون إلى البيوت نظير الأجر الذي يتلقونه. اقترب صوت السقاء من البيت، وسرعان ما سمع صوت جدته وهي تتبادل الحديث مع الرجل، فاعتدل ناهضاً من الفراش وبدل ملابس النوم قبل أن يسرع إلى الطابق السفلي.

كان السقاء يحمل قربة الماء الثقيلة على ظهره ويدلف بها إلى البيت ليصب بعضاً من محتويات قربته في وعاء قد وضعته جدته بالقرب من الباب. ما إن رآه السقاء حتى جفل، ولكنه لم يقل شيئاً، فلاذ بارسينو بالصمت.

ما إن رحل السقاء حتى حمل بارسينو الوعاء إلى المطبخ، بينما جدته تقول: «سأعد لك الفطور».

قال لها: «فلتستريحي يا جدتي، يمكنني أن أعد الفطور بنفسي».

جلب قطعة من الجبن المصنوع من حليب الماعز من أحد الأوعية، ثم وضع رغيفين من الخبز على جمرات المدفأة لكي يسخنهما قليلاً.

تناول بارسينو فطوره في صمت، ثم قالت له جدته: «قبل أن تذهب أريدك أن تضع الخيط في الإبرة، لقد جلبت لي إحدى الجارات بعض الثياب لحياكتها».

قال لها بارسينو مشفقاً: «لست مضطرة للعمل يا جدتي، فما أجنه من مال يكفي كلينا».

قالت بابتسامة حنون: «أعرف يا بني، ولكني أبحث فقط عما يشغل وقتي».

يعرف بارسينو أن هذا ليس حقيقياً، فالأجر الزهيد الذي يتلقاه لن يكفيها وحده، لذا تضطر جدته للعمل، ولكنها لم ترغب في جرح مشاعره، وقد أحس بالامتنان لهذا.

قال لنفسه مفكراً: ربما يجدر بي البحث عن عمل آخر. ولكن من غير السيد نيربو سيرغب في استئجاره؟ ومع ذلك ظلت الفكرة تلح على ذهنه.

أنهى فطوره في عجلة ثم قبل جبين جدته وهو يودعها، قبل أن يسرع إلى الخارج مستقبلاً هواء الصباح البارد، فراح شعره الأبيض يخفق، والرياح تداعب ملابسه الثقيلة. سار في شوارع القرية وهو يشاهد بعض المزارعين متوجهين إلى الحقول، وبعض الرعاة بقطعان الماشية والأغنام إلى المراعي المترامية على جانب التل، وبعضهم لا يزال النعاس بادياً على وجهه رغم أن العدد كان أقل من المعتاد، فالكثيرون لا يزالون نائمين بعد احتفال ليلة الأمس، وربما يتكاسل بعضهم حتى الظهر، ولكن رائحة الخبز كانت تتصاعد من بيت الخباز، والطاحونة تدور في بيت الطحان، والسقاء لا يزال يحمل الماء إلى بيوت القرية. لم يقرر الجميع النوم حتى الظهر.

سار بارسينو إلى بيت السيد نيربو، ثم طرق الباب وانتظر لبعض الوقت، قبل أن يطرقه مرة أخرى مرات متتالية، حتى فتح الرجل له الباب وهو يتثاب بقوة ولا يكاد يقدر على فتح عينيه. قال بارسينو لنفسه: من الواضح أنه أفرط في الشراب ليلة أمس. ولكنه تجاهل الأمر وهو يقتاد قطع الأغنام نحو المراعي المترامية على جانب التل.

في أحد المراعي الخضراء ترك بارسينو الأغنام ترعى في الحشائش، واستلقى تحت شجرة من الأشجار القليلة التي تنتثر في جانب التل بعيداً عن غابة الظلال. كان عقله لا يزال مثقلاً بأفكار ما دار في الليلة السابقة، وفجأة أفاق من شروده على صوت يناديه.

التفت ناحية الصوت فوجد أكينو يخطو مقرباً منه وهو يقول: «كنت أعرف أنني سأجدك هنا». تنهد بارسينو وقال: «وأين يمكنني أن أذهب؟ لا يوجد شيء سوى هذا التل وهذه الغابة». ثم أضاف ساخراً: «أنت لا تعتقد حقاً أنني قد أذهب إلى غابة الظلال؟».

كان أكينو يحمل في يده ثمرتين من الفاكهة، ألقي بواحدة إلى بارسينو فالتقطها بمهارة، بينما تناول أكينو قزمة كبيرة من ثمرته فسأل سائل أصفر على جانبي فمه وهو يمضغ في استمتاع. كانت الثمرة ذات قشرة فضية اللون، وقلبها ذهبي، وبها بذرة سوداء. يسميها قاطنو جانب التل ثمرة القمر. تناول بارسينو ثمرة باستمتاع مائل، كان طعمها حلواً أشبه بالعسل، مع مذاق لاذع بعض الشيء.

جلس أكينو بجواره وهو يقول بينما يحاول ابتلاع ما يمضغه في آن واحد: «لا أحد يذهب إلى غابة الظلال سوى ذلك الحطاب العجوز أوركين».

توقفت يد بارسينو في منتصف الطريق إلى فمه وشرد مرة أخرى، فسأله أكينو: «ما الأمر يا باري؟». تردد بارسينو قليلاً ثم قال: «هل تعتقد أن ما يقولونه عن هذا الحطاب العجوز في القرية حقيقي؟ أعني أنه... ساحر ولهذا لا يخشى غابة الظلال والشر الكامن فيها؟».

هز أكينو كتفيه وقال: «لا أعرف، ربما، ولكن هناك شيئاً لا يريحني حياله. لقد شاهدته ذات يوم يلمس بيده أحد أعمدة الأطلال التي يهابها الجميع».

عقد بارسينو حاجبيه وهو يفكر في الأمر ثم قال ببطء: «أجل أعتقد أنني رأيت شيئاً كهذا من قبل، ولكن ما الذي يعنيه هذا؟».

أنهى أكينو تناول آخر أجزاء الثمرة الذهبية من حول البذرة السوداء ثم ألقي بها في جيبه، قبل أن يقول وهو يمسح يديه في لحاء الشجرة: «ليتني أعرف، ولكن لا شك أنه يخفي سرّاً ما».

تردد بارسينو قليلاً، ثم قال: «ولكنه على أي حال كان قريباً معنا بالأمس». هز أكينو كتفيه وقال: «أجل، كان هذا كرمًا منه، ولكنه في الوقت ذاته يثير حيرتي، لم يكلف نفسه هذا العناء؟». ثم قال ضاحكاً: «أعتقد فقط أنه أراد إثارة غيظ ذلك اللئيم طابيو».

أوماً بارسينو برأسه وهو يتسّم له، ثم أنهى ثمرة وكاد أن يلقي بالبذرة بعيداً ولكن أكينو مد يده وأخذها منه وهو يقول: «أحتاج هذه لزرعتها من جديد». فأعطاهها له بارسينو بلا مبالاة.

هب النسيم البارد فتمايلت الحشائش، وتعالى ثغاء الأغنام. ساد الصمت للحظات قليلة، قبل أن يقول بارسينو: «لم تذهب إلى الحقل اليوم؟».

تثابب أكينو ثم قال: «لقد استيقظت متأخراً، ومررت على المزرعة فوجدت أنهم قد انتهوا من الري بالفعل لذا جلبت هاتين الثمرتين من هناك وجئت بحثاً عنك».

قال بارسينو متسائلاً: «ألم يغضب منك السيد أسيار؟».

قال أكينو بلا اكتراث: «لقد وبخني بالفعل، ولكنه لم يكن جادًا تمامًا. لا يعمل كل الناس بجد في أيام احتفال القمر. كما أن موسم الحصاد قد اقترب كثيرًا، سيكون هناك الكثير من العمل حينها، ربما لا بأس من بعض التلكؤ في أيام الاحتفال».

أوماً بارسينو برأسه وقال: «أنت محق». لم تنجح محاولته في تشتيت عقله عن التفكير في الخطاب، فوجد نفسه يفكر فيه مرةً أخرى.

فجأة قال له أكينو: «فيم تفكر؟».

ودون تفكير قال له بارسينو: «الخطاب أوركين».

وضع أكينو البذرة الثانية في جيبه وقال: «لا تشغل بالك به».

قال بارسينو في إصرار: «لم يهابه قاطنو القرية، رغم أنه الوحيد الذي يغامر بحياته لكي يجلب لهم الخطب؟».

تردد أكينو قليلاً ثم قال: «ربما لأنه الوحيد الذي يذهب إلى غابة الظلال ويعود حيًا، هذا سبب كافٍ لكي يخافه الناس».

قال بارسينو وهو يتدثر بوشاحه الأزرق: «ولكن لماذا يكرهونه؟ أنت ترى هذا في أعينهم أليس كذلك؟ ينظرون إليه نظرات كتلك التي ينظرون بها إلى».

قال أكينو: «الأمر مختلف معك، أنت...».

بتر جملته فنظر إليه بارسينو وقال بجمود: «أنا ماذا؟».

قال أكينو وهو يحاول انتقاء كلماته: «أقصد أن الناس يعاملونك بهذا الشكل لأنك... مختلف... أقصد أنه يبدو طبيعيًا وليس... أقصد...». تعثرت الكلمات على فمه واحمر وجهه في حرج شديد.

قال بارسينو باقتضاب: «لا يبدو وحشًا شاحبًا».

لوح أكينو بذراعيه وهو يقول: «لا، لم أقصد هذا على الإطلاق، كنت أقصد...».

تنهد بارسينو، ثم أجبر نفسه على الابتسام وهو يقول: «لا عليك يا أكينو، أعرف أنك لم تقصد شيئًا سيئًا». ساد صمت كئيب لبضع لحظات، وأكينو يلوم نفسه على ما قاله، بينما بارسينو يفكر فيما قاله صديقه وهو يشعر بالحزن. إن كان هذا رأي صديقه المقرب، صديقه الوحيد، فكيف يلوم قاطني القرية على تفكيرهم فيه بمثل هذه الطريقة؟

فجأة رفع أكينو رأسه وهو يقول: «ربما الخطاب يخفي سرًا حقًا».

نظر إليه بارسينو في ريبة وقال: «أنت تقول هذا لمجاراتي فحسب، أليس كذلك؟».

قال أكينو على الفور: «لا، لقد فكرت الآن في الأمر، هناك شيء لا يبدو منطقيًا، ربما علينا أن نكتشف السر بأنفسنا».

سأله بارسينو في دهشة: «نكتشفه؟ كيف؟».

قال أكينو وهو يستلقي على ظهره واضعًا ساقًا على الأخرى: «لا أعرف، ولكن الأمر يستحق التفكير». أدرك بارسينو أن صديقه قد قال هذا في محاولة منه للتخفيف عنه، وبطريقة ما جعله هذا يشعر بالامتنان، فقال له: «شكرًا لك يا أكينو».

نظر إليه أكينو في دهشة وقال: «على ماذا؟».

ابتسم بارسينو وقال: «شكرًا لك لأنك صديقي».

ابتسم أكينو ابتسامة عريضة وقال: «إن كنت تريد أن تشكرني حقًا فلتأت معي اليوم إلى الاحتفال الكبير».

عقد بارسينو حاجبيه، الاحتفال الكبير هو اليوم الثاني لاكتمال القمر، والذي يخرج فيه العمدة أمريد ليخطب في الناس في الساحة الكبرى حيث يجتمعون. لم تكن فكرة وجوده بالقرب من هذا العدد الغفير من الناس مريحة بالنسبة له فقال: «ربما أكتفي بالمراقبة من بعيد كما أفعل كل مرة». اعتدل أكينو جالسًا وراح يتمطى قبل أن يقول: «بحقك يا باري لا تكن مملاً، ربما تعزف كينورا في هذا الاحتفال الكبير، أنا أعرف كم تحب عزفها». تورد وجه بارسينو الشاحب، ثم قال متلعثمًا: «حقًا؟ أعني أنا معتاد على سماعه من بعيد، ولكن... ربما آتي... ولكن لا... سأفكر في الأمر».

قهقهه أكينو ضاحكًا وهو يضربه على كتفه فتأوه بارسينو وهو يفرك كتفه في مزيج من الألم والاحتجاج، ولكن أكينو لم يبدُ عليه أنه قد لاحظ هذا وهو يقول: «لا أكاد أطيع انتظرًا حتى يحل المساء». ابتسم بارسينو، كانت أيام اكتمال القمر الثلاثة هي الأيام الوحيدة التي يمكن أن يقول فيها واحد من قاطني جانب التل شيئًا كهذا، أما في الأيام الأخرى التي يتضاءل فيها القمر لا يكاد أحد يخرج من بيته بعد حلول المساء، أما أيام المحاق التي يختفي فيها القمر فلا يخطو فيها أحد خطوة خارج داره بعد غروب الشمس، ويقضون الليل وقد أشعلوا المدفأة وكل مصباح في البيت، ويتضرعون إلى الشمس والقمر حتى يغلبهم النوم.

ما الذي يخشونه في الظلام إلى هذا الحد؟ ما الذي لا يحميهم منه إلا الشمس والقمر المكتمل؟ تساءل بارسينو عن هذا وهو يحدق نحو غابة الظلال البعيدة، وأشجارها العملاقة كثيفة الأغصان تبدو مخيفة حتى في مثل هذا النهار. ما الذي لا يعرفه وتخفيه القرية عنه؟ نقل عينيه إلى الأطلال الحجرية المترامية على جانب التل، من أين أتت؟ لطالما تجنبت جدته الإجابة عن هذا السؤال، ربما لا تعرف حقًا؟ من يعرف إذن؟ أفاق من شروده على صوت أكينو وهو يقول: «باري؟ أين ذهبت بعقلك يا فتى؟». نظر بارسينو إليه للحظة كأنها على وشك أن يبوح له بما يدور في خلدته، ثم هز رأسه وقال: «لا شيء، لا شيء يا صديقي».

قال أكينو بابتسامة ماكرة: «لعلك تفكر في عزف كينورا، ولا تطيق انتظارًا حتى المساء مثلي». ابتسم بارسينو ولم يقل له شيئًا وهو يتأمل الأغنام التي ترعى بين الحشائش غير عابئة بشيء، ثم قال له: «لا يزال الوقت طويلًا حتى المساء، لم نلعب لعبة الحصى لتمضية الوقت؟». فرك أكينو شعره وهو يقول: «لا أعرف يا باري، أنت تغلبنني دومًا في هذه اللعبة». قال بارسينو مشجعًا: «من يعرف؟ لعلك تريح هذه المرة».

ثم راح يجمع بعض الحصى من الأرض، فجمع ثلاثة كبيرة الحجم، وفعل أكينو مثله، ثم انتقى قطعة ترايبية من الأرض خالية من الحشائش، ورسم شبكة من تسعة مربعات، وضع هو حصاه في ثلاثة منها، ووضع أكينو حصاه في الثلاثة المقابلة له، ليتبقى ثلاثة مربعات فارغة في المنتصف. كان الهدف بسيطًا، وهو أن ينقل اللاعب حصاه الثلاثة إلى مربعات خصمه بتحريك حصوة واحدة في المرة، متحاشيًا أن يفعل خصمه هذا أولًا.

لم يمضِ وقت طويل حتى قال أكينو في غيظ وهو يتأمل رقعة اللعب: «ها أنت قد غلبتني مرةً أخرى». ضحك بارسينو وقال: «ولكنك كدت أن تريح، ما رأيك في جولةٍ أخرى؟». تنهد أكينو وقال: «حسنًا لا بأس، ليس وكأن هناك ما يمكنني فعله عدا هذا الآن. جولةٍ أخرى إذن».

## الفصل الخامس

### الاحتفال الكبير

تقع الساحة الكبرى في منتصف القرية، منطقة خالية من الأطلال أو البيوت، ويقع في آخرها بيت العمدة المهيب. تكون الساحة عادة فارغة فحتى الأطفال لا يجروون على اللعب فيها في الأيام العادية، ولكن اليوم هو يوم الاحتفال الكبير. كانت الساحة غارقة في ضوء القمر الفضي، الذي أضاء بنوره القرية كلها، وضوء المشاعل العديدة المتناثرة على أعمدة خشبية قد غرست في الأرض، أو على الطاولات التي تحمل أشكالاً متنوعة من الحلوى والفاكهة، وأباريق مليئة بالشراب وأقداح. وأسفل قرص القمر المتوهج اجتمع الناس يحتفلون، بعضهم يفرقون الحلوى والفاكهة، أو يرفعون الأقداح عاليًا نحو السماء ويصيحون في بهجة قبل أن يتجرعوا محتوياتها، وآخرون يتلاعبون بالنار أو الكرات الملونة أمام حشد من المصفيين، وآخرون يغنون ويمرحون، وجميعهم ينتظرون العمدة أمريد.

من بعيد كان بارسينو يقف بصحبة أكينو، يراقب الحشد المحتفل، وبينما صديقه يحاول في إلحاح إقناعه بالانضمام إلى الاحتفال انفتح باب بيت العمدة، فخيم الصمت فجأة على المحتفلين، وقد تعلق أنظارهم بالباب المفتوح.

خطا خارجًا من البيت مجموعة من حرس العمدة في ثيابهم الصوفية الصفراء وكل واحد منهم يمسك بهراوة خشبية، فهؤلاء الحرس الموكلون بمهمة حفظ النظام في القرية، وخصوصًا في أيام الاحتفالات حين يجتشد الناس ويفرطون في الشراب، يستخدمون المهرات لا السيوف.

وقف الحرس في صفين أمام الباب، ثم خرج من الباب اثنان من الرجال في ملابس سوداء بها نقاط بيضاء كالنجوم يحمل كل منهما مبخرة تتوهج بالجمر ويتصاعد منها دخان البخور، ومن ورائهما رجل ثالث يحمل على ظهره كتابًا ضخمًا ذا غلاف جلدي ثقيل، ملونًا ومزخرفًا بصور ورموز عدة، يربطه إلى كتفيه بحزامين جلديين، يسمى هؤلاء رجال الشعائر، ويختص الثالث أحيانًا بلقب حامل الكتاب، ولا يظهر إلا في مثل هذه المناسبات الاحتفالية، أو في الاستسقاء حين يتأخر المطر، أو حين يحتجب القمر في الليالي المظلمة.

ظلت الأعين معلقة بالباب في انتظار خروج العمدة، ولكن خرج أولاً أوثار حاجب العمدة، وهو رجل قصير القامة ممتلى الجسد، نظر إلى الحشد المجتمع متفحصًا قبل أن يتنحى ويقول بصوت عالٍ: «جلالة العمدة السيد أمريد».

حينها خرج من الباب رجل طويل القامة، له شعر أشيب، ولحية وشارب اختلط بياضهما بسوادهما، وحاجبان كثان من تحتها عينان أحاطت بهما التجاعيد، ولكنها حادتان وثاقتان، راح يحدق بهما إلى المحتفلين. كان يرتدي روبه الاحتفالي الطويل، ذا اللون الفضي، ويحيط عنقه بوشاح صوفي ذهبي، وكلاهما مطرز بزخارف عدة.

سار العمدة وحاجبه وراء رجال الشعائر والناس يفسحون لهم الطريق في إجلال وتوقير، حتى صاروا في منتصف الساحة الكبرى يحيط بهم دائرة من الناس الذين صبغ الترقب وجوههم. وقف حامل الكتاب أمام العمدة، الذي أجال نظره بين الناس مرةً أخيرة قبل أن يفتح الكتاب الذي يحملة الرجل على ظهره. هذا الكتاب الذي لا يراه الناس إلا في المناسبات الاحتفالية، ولا يسمح بالاطلاع عليه إلا للعمدة وحده، تتوارثه عائلة العمدة جيلاً بعد جيل حسبما سمع، تمامًا كما يرثون العمودية. لم يكن تعلم القراءة شائعًا في

القرية، فيقتصر على العمدة وحاجبه وبعض القلة الخاصة، ومن بين هؤلاء القلة كان طايبو صاحب الحانة الذي يكتب حسابات حانته وديون زبائنه.

تنحج العمدة فسكنت المهمات القليلة التي كانت تتصاعد بين الناس هنا وهناك، ثم بدأ العمدة القراءة بصوته الجمهوري: «نشكر الشمس الذهبية التي تمنحنا بضياؤها الدفء والأمان، ونشكر القمر الفضي الذي يمنحنا النور حين يحل الظلام، لتبقى أرواحنا آمنة في وجه كل خطر، وكل ظلام، وكل ظل...».

واصل العمدة خطبته والناس ينصتون في توقيير، ولكن الأطفال راخوا يتململون وبعضهم يجذبون أكمام آبائهم، ولكن النظرات الحادة من الآباء جعلتهم يلوذون بالصمت في خوفٍ على الفور.

تثاءب أكينو وهو يقول: «هذا هو الجزء الممل من الاحتفال».

كان بارسينو يشاركه الرأي ولكنه لم يقل شيئاً، بل راح يفتش بين الحضور بحثاً عن كينورا ولكنها لم تكن موجودة بينهم.

ما إن أنهى العمدة خطبته حتى أغلق الكتاب بصوتٍ ثقيل وهو يقول: «والآن يمكنكم أن تبدأوا الاحتفال، فليبارككم القمر المكتمل».

كان على وشك أن يستدير عائداً إلى بيته، ولكن همهمات تصاعدت بين الناس جذبت انتباهه، فنظر إلى حيث ينظرون. كان الحطاب أوركين يخطو بصحبة كلبه الأسود، مقترباً من الحشد. لم يكن من المعتاد حضور الحطاب إلى الاحتفال، لذا تعلقت به كل الأنظار في مزيج من التساؤل والفضول والاستنكار.

رفع الحطاب صوته قائلاً: «هل أنهيت خطبتك يا أمريد؟».

تعالت بعض الشهقات، لم يكن من المعتاد أن يخاطب أحداً العمدة باسمه مجرداً، فتحفز الحرس وبدا من الاستياء الواضح على وجه أمريد أن هذا لم يعجبه أيضاً، ولكن أياً من هذا لم يبدُ على صوته الحازم وهو يقول: «لقد فاتتكم الخطبة للتو، ربما ينفعلك من وقتٍ لآخر أن تستمع لبعض المواعظ».

رفع الحطاب صوته وهو يقول: «هذه المواعظ لن تنفع الناس حين يحل الظلام الحقيقي. أنت تعرضهم جميعاً للخطر».

تعالت المهمات لتتحول إلى دمدمة بين الناس، فصاح أمريد: «صمتاً!». فصمت الناس جميعاً على الفور. أولى العمدة انتباهه إلى أوركين مرةً أخرى وهو يقول: «قلت لك من قبل إنني خير من يعرف مصلحة القرية وقاطنيتها أيها الحطاب، لا داعي لإثارة البلبلية في الاحتفال، إن كان لديك شيئاً لتتحدث فيه معي فليكن في بيتي، سأنتظرك غداً صباحاً».

قال الحطاب في صرامة: «الحديث معك لا جدوى منه، لقد شرحت لك الأمر مراراً وتكراراً، ولكن رأسك أكثر صلابة من الحجر».

عقد بارسينو حاجبيه وهو يحاول فهم ما يحدث أمامه، أما أكينو فقد حك رأسه وهو يقول: «ما الذي يرمي إليه هذا الحطاب العجوز؟».

قال العمدة بنبرة حاسمة: «سأنتظرك في الغد يا أوركين». ثم التفت إلى الناس وقال: «يمكنكم الآن استئناف احتفالكم بهذه الليلة المجيدة. فليبارككم القمر المكتمل يا أبناء جانب التل».

التفت العمدة وبدأ يسير نحو بيته، والحاجب القصير يلحق به ومن وراءهما رجال الشعائر، وحامل الكتاب يحاول اللحاق بهم بخطوات متعثرة وهو يوازن الكتاب الثقيل على ظهره. أما الحطاب العجوز فقد راح يراقبه بنظرة غاضبة حتى توارى عن الأنظار داخل البيت وانغلق الباب بقوة من ورائه.

ثم عاد ببصره إلى الحشد فوجد أنهم يمدقون إليه في مزيج من الغضب والخوف، فhez رأسه في يأس، ثم بدأ يسير مبتعدًا صاعدًا جانب التل نحو بيته. زجر الكلب الأسود في وجه الناس، ثم استدار وبدأ يلحق بسيده. نقل أكينو نظره بين بيت العمدة والخطاب المتبعد، ثم قال في حيرة: «ما الذي حدث للتو؟». قال بارسينو وهو يلاحق أوركين ببصره: «لا أعرف، ولكن لا شك أنه يعرف شيئًا لا نعرفه». أحس برغبة جارفة في أن يلحق بالخطاب ويسأله عن الأمر، ولكنه يعرف أن الخطاب لن يجيب عن أسئلته. ولكن لا شك في أن هناك سببًا وراء مواجهته للعمدة أمام الناس، أليس كذلك؟ فما الذي يسعى إليه تحديدًا؟

بينما تموج هذه الأسئلة في صدره تعالت أصوات هتاف وصفير من الحشد الذي عاد للاحتفال، فأدار بصره ناحيتهم ليعرف سر حماسهم. كانت كينورا هناك، بشعرها الأحمر المتوهج، تحمل قيثارتها، وتستعد للغناء، والناس يهتفون في حماس من حولها. جذبه أكينو من ذراعه على الفور ليقتربا أكثر. تلفت بارسينو حوله بحثًا عن طابيو، لا شك أنه هناك في الحانة، يخدم القليل من الزبائن الذين يفضلون الاحتفال بعيدًا عن زحام الساحة الكبرى.

وقف بارسينو عند حافة دائرة ضوء المشاعل، دون أن يختلط بالزحام، وهو يصغي بهجة إلى غناء كينورا، وعزفها على القيثارة. رمقه بعض الناس الذين لاحظوا وجوده بنظرات استهجان، ولكن وجود أكينو بجانبه ونظراته المتحفزة جعلهم يجمعون عن قول شيء. كان معظمهم يرغب فقط في الاحتفال دون شيء ينغص عليهم بهجتهم.

حرص بارسينو على ألا يقترب أكثر من اللازم، مستغرقًا في الموسيقى والغناء بكل جوانحه، وفجأة نظرت كينورا ناحيته ولاحظت وجوده فابتسمت. ثم عادت تجيل نظرها بين الحاضرين المستمعين إليها، فتساءل بارسينو إن كان قد خيل إليه أنها قد ابتسمت له.

ما إن انتهت كينورا من غنائها حتى راح الناس يصفقون ويصفرون، فانحنت لهم بطريقة مسرحية، قبل أن تعلق قيثارتها من حزامها على كتفها، ثم شقت طريقها ناحية أقرب طاولات الشراب إليها.

شاهد أكينو مجموعة من الشباب يتبارون في مصارعة الأيدي، فقال لبارسينو مازحًا: «هذه لعبة يمكنني أن أربح فيها». ثم أسرع ناحية الطاولة حيث تجمهر مجموعة من الفتية حول اثنين قد نفرت عروق أيديهما ووجهيهما وكل واحد منهما يحاول أن يسقط يد الآخر، وقال بصوت مرتفع: «من يراهنني؟».

لم يشعر بارسينو بالارتياح لوقوفه وحده بعد أن ابتعد أكينو عنه، ثم عاد ببصره ناحية كينورا فوجد مجموعة من الشباب يتحلقون حولها، وهي تبادلهم الضحك والمزاح، فشعر في قلبه بشيء من الغيرة.

راح يتأملها غارقًا في أفكاره الخاصة، ثم شعر بمن يدفعه في كتفه. جفل وهو ينظر جانبه فوجد أن أحد الفتيان قد وكزه بكتفه أثناء مروره دون أن يلتفت له كي يعتذر.

أحس بارسينو بالخوف والرغبة في الابتعاد، وفجأة بدأ مجموعة من الفتيان يتحلقون من حوله، وأحدهم يسأله: «ما الذي تفعله هنا؟».

تلفت حوله بحثًا عن أكينو، فلمحه يصارع رجلًا ويكاد أن يغلبه، ولم ينتبه لما يحدث مع بارسينو الذي قال: «أنا هنا من أجل الاحتفال الكبير».

قال آخر بنبرة متوعدة: «ومنذ متى تأتي للاحتفال؟».

استجمع بارسينو شجاعته وقال: «من حقي أن أحتفل مثل أي واحد منكم».

تبادل الفتيان نظرة ساخرة، ثم قال شاب منهم ضخمة الجثة: «أنصحك أن تبعد عن هنا؟».

قال بارسينو وهو يحاول منع صوته من الارتجاف: «وإن لم أفعل؟». ضرب الفتى قبضة يده اليمنى براحة يده اليسرى وهو يقول: «سنجبرك على الانصراف». ظل بارسينو واقفًا في موضعه، ثم قال بعناد: «لن أرحل». تفاجأ الفتيان من ردة فعله، ثم قال الشاب ضخم الجثة: «إذن لم تترك لنا خيارًا». ثم رفع قبضته وهوى بها على وجه بارسينو.

تجمدت قبضة الشاب على مسافة شعرة من وجه بارسينو الذي جفل، ثم نظر فرأى أكينو يمسك قبضة الشاب وهو يقول: «لن أسمح لكم بمضايقة صديقي».

قال الشاب وهو ينتزع قبضته من يد أكينو: «انظروا، إنه صديق الأمهق». احمر وجه أكينو غضبًا، ودون تفكير هوى قبضته على وجه الشاب.

تجمد بارسينو في موضعه وهو يشاهد الفتيان يتكالبون على صديقه للكمه وركله، وفي هذه اللحظة تفجر الغضب بداخله، وانقض عليهم وهو يضرب بكلتا قبضتيه دون تفكير، ثم تلقى لكمة على وجهه أسقطته أرضًا.

لفتت الجلبة أنظار الجميع، ثم اندفع حرس العمدة بالهراوات وهم يصرخون في المتشاجرين ويفرقونهم بينما يلوحون بالهراوات متوعدين.

على الفور انسحب الفتيان بينما تراجع أكينو للوراء وقد ظهرت عدة كدمات على وجهه.

حاول أحد الفتيان التذرع بأن أكينو هو من بدأ الشجار ولكن الحارس قال: «لا يهمني من بدأ الشجار، إن تشاجرت مرة أخرى فستذوقون جميعًا طعم هراوتي».

وهكذا انسحب الفتيان على مضض وهم ينظرون إلى أكينو وبارسينو في كراهية.

ظل بارسينو متجمدًا في موضعه يحدق إلى الفتية وهم يرحلون حتى ذابوا في الزحام، ثم نظر إلى أكينو الذي قال له: «يوجد كدمة زرقاء على وجنتك».

حدق إليه بارسينو في دهشة ثم قال: «إن وجهك مليء بالكدمات».

مسح أكينو خيطًا من الدماء سال من ركن شفثيه بكم ردائه ثم قال: «كان عليّ أن ألقن هؤلاء الأوغاد درسًا».

قال بارسينو في حزن: «كنت أعرف أن مجيئي إلى الحفل لن يجلب سوى المتاعب».

ربت أكينو على كتفه وقال: «هذا ليس خطأك يا صديقي. هؤلاء الحمقى لا يحسنون التفكير».

قال بارسينو: «ربما يجدر بي الذهاب الآن».

قال أكينو: «لا، فلتبق، لن يجرؤوا على فعل شيء آخر بعد تدخل الحرس».

تنهد بارسينو، ثم قال: «لم أعد أشعر بالرغبة في البقاء».

ولكن في هذه اللحظة سمع صوتًا رقيقًا يقول: «لا تبتسب بما فعله هؤلاء الفتية».

التفت وراءه فوجد كينورا تخطو نحوه وهي تحمل قدهين من الشراب، بينما تقول: «لقد شاهدت ما حدث، من حسن الحظ أن أكينو كان بالقرب منك».

ضحك أكينو وقال: «أنا من أقنعه بالمجيء لذا أتحمّل جزءًا من المسؤولية». ثم نظر إلى القدهين في يدها وقال: «سأذهب لأجلب لنفسي شرابًا».

قالت وهي تمد يدها بالقده إلى بارسينو: «أعرف أنك لا تشرب النبيذ لذا جلبت لك شراب ثمرة القمر، غير مخمر لا تقلق، فأنا مثلك لا أشرب النبيذ».

أخذ منها القدح وهدق إلى الشراب الذهبي داخله دون أن يشرب فقالت له: «أعرف كيف تشعر يا باري». رفع عينيه ونظر إليها في دهشة فقالت وهي تبتسم: «هكذا يناديك صديقك أكينو، أليس كذلك؟». قال وهو يشعر بخفقان في قلبه: «أجل، وجدتي أوريثا كذلك». أخذ رشفة من الشراب فوجده حلواً. كان مرتبكا لأنه لا أحد في القرية يعامله بلطف عدا جدته وصديقه أكينو. قال لها: «ماذا تقصدين بأنك تعرفين ما أشعر به؟».

قالت له: «عندما كنت صغيرة كنت أتعرض للسخرية من الفتيات بسبب شعري الأحمر، لأنه... مختلف، فكنت أشعر بالألم والحزن. لا شك أن هذا ما تشعر به».

قال لها وهو يشيح بوجهه: «الأمر أكبر من هذا بكثير، أكبر من مجرد غيرة فتيات صغيرات من بعضهن بعضاً».

مرت لحظاتٍ من الصمت قبل أن تقول له: «الناس حمقى يا باري، يخشون الكثير من الأشياء، ويخافون ما يجهلون وما يختلف عنهم. يخافون الغابة رغم أنهم لا يعرفون على وجه اليقين ما يوجد بها، ويخافون ملامحك لأنها تختلف عنهم. ليس ذنبك أن شعرك أبيض أو أن وجهك شاحب، لأن لا أحد يختار ما يولد به». قال وهو يضم قبضته على القدح: «أحياناً ما أتمنى لو كنت مثل الجميع، لا أختلف عنهم في شيء». قالت وهي تبتسم له من جديد: «لقد اختار لك القدر أن تكون مختلفاً لسبب ما، وربما تعرف هذا السبب يوماً ما».

قال لها وهو يبادلها الابتسام لأول مرة: «أتمنى هذا حقاً».

خيم الصمت عليهما للحظات وهما يرتشفان من قدحيهما ثم قال لها: «يعجبني عزفك وغناءك كثيراً». شعر بقلبه يخفق بمجرد نطقه لتلك الكلمات، لم يفكر فيها قبل التلفظ بها. اتسعت ابتسامتها وقالت: «لقد لاحظت تعلق أنظارك بي عندما كنت أغني في الحانة، والآن في الاحتفال الكبير».

ارتشف رشفة كبيرة من شرابه، ثم سعل، قبل أن يقول: «أعتقد أن أعين الناس كلها تكون معلقة بك في وقت كهذا».

اتسعت ابتسامتها وهي تقول: «ولكني أرى شيئاً مختلفاً في عينيك الزرقاوين».

أحس بارسينو بشعورٍ غريب، لأول مرة في حياته يشعر أن هناك من لاحظ شيئاً فيه عدا شعره الأبيض وبشرته الشاحبة. منحه هذا شعوراً غريباً بالدفء، وفي الوقت ذاته كان يشعر بالحرج. انتابه شعور متناقض، ما بين أن تستمر هذه اللحظة إلى الأبد، وأن يهرب منها ويعود إلى بيته.

أنقذته عودة أكينو وهو يحمل شراباً فقال له: «يجب أن تفعل شيئاً حيال كدماتك هذه».

قال أكينو ضاحكاً: «ستختفي في غضون بضعة أيام، لا يوجد شيء خطير، لا تقلق». ثم مال مقرباً منه وقال: «ربما يجدر بك أنت القلق حيال ما ستقوله الجدة أوريثا عند رؤية هذه الكدمة في وجهك».

رفع بارسينو يده إلى وجهه بشكل غريزي، ثم قال: «ستكون قد خلدت إلى النوم عند عودتي إلى البيت، وربما لن تلاحظ شيئاً في الصباح». ثم راح يفكر فيما ستقوله جدته عن تورطه في المتاعب.

قالت كينورا: «يمكنني فعل شيء حيال هذا».

نظر الاثنان إليها في تساؤل فقالت: «إن لدي بعض المعرفة بالأعشاب الطبية».

ثم أخرجت من جيبها علبة صغيرة، ما إن فتحتها حتى تصاعدت منها رائحة جميلة، فقالت: «هذه مستخلصات بعض الأعشاب، ستساعد على شفاء الكدمات سريعاً».

مضت بعض اللحظات من الصمت الحرج بينما كينورا تدهن كدمته، ثم قال بارسينو: «من أين تأتي هذه الأعشاب على أي حال؟ لا أعتقد أنني رأيت أحداً من المزارعين يزرعها في حقوله من قبل، أليس كذلك يا أكينو؟».

قالت كينورا ببساطة وهي تبدأ في الاعتناء بكدمات أكينو: «يجلبها الحطاب من غابة الظلال». اتسعت عينا بارسينو في دهشة، ثم قال ببطء: «ظننت أنه لا خير يأتي من الغابة». ابتسمت وقالت له: «الحطاب يأتي من الغابة، ونحن لا نستطيع العيش بدون الحطاب. لا يوجد شيء عبارة عن شر مطلق، حتى بين الظلال ستجد شيئاً من النور».

قال لها ببطء: «أجل، ولكن الحطاب...». خفت صوته حتى تلاشى وهو يفكر، إنهم لا يستطيعون بالفعل العيش بدون الحطاب، يتصاعد الدخان من مداخنهم ليلاً ونهاراً، حتى لو لم يكن الجو بمثل هذه البرودة، لماذا؟ لماذا هذا الحرص على إيقاد الحطاب طيلة الوقت؟ تذكر أنه عندما كان طفلاً صغيراً سكب بعض الماء في المدفأة، فأصيبت جدته بالذعر وهي تسرع لإزالة الرماد المتبل، وتضع حطباً جديداً في المدفأة وتشعله في عجلة حتى كادت أن تحرق يدها. أصيب في ذلك اليوم بالذعر ولم يعد يحاول بعدها إطفاء المدفأة أو حتى التفكير في هذا، بسبب ما أصاب جدته من خوف...

تلقت حوله وأدرك أن الناس قد لاحظوا ما تفعله كينورا له هو وأكينو وراحوا يرمقونهم بنظرات متسائلة مستهجنة، وبعضها نظرات عدوانية، تنتقل ما بين النظر إليه وإلى الحرس. قال فجأة: «ربما يجدر بي الذهاب الآن، سيكون عليّ الاستيقاظ باكراً في الغد من أجل أخذ الأغنام للمرعى».

قال له أكينو مستنكراً: «لم ينته الاحتفال الكبير بعد، لن ينام أحد باكراً هذه الليلة». قال بارسينو: «أنا لست معتاداً بعد على الاحتفالات، سأراك في الغد». ثم التفت إلى كينورا وقال: «شكراً لك على الشراب وعلى الاعتناء بكدمتي، وكلماتك الرقيقة، و... كل شيء».

وقبل أن تجد فرصة لإجابته، أسرع مبتعداً وقلبه يخفق بقوة. راح يبتعد عن دائرة ضوء المشاعل، وأصوات الاحتفال تخفت، والرياح الباردة تهب على جانب التل، فجذب معطفه على جسده، وهو يمسك باليد الأخرى الوشاح المحيط بعنقه.

كان عقله يموج بكلمات كينورا، ونظراتها، وابتسامتها، وهو يسأل نفسه: هل تعني ما قالتها حقاً؟ هز رأسه بقوة. لا يجب أن يسمح لمشاعره بأن تطنغي عليه. لقد أمضى لحظات جميلة ولكنه يعرف أنه في النهاية سيكون منبوذاً، كما كان منبوذاً طيلة حياته، لن تزيد مشاعره من حياته إلا تعقيداً، لا يجب عليه أن يستسلم لها وينجرف معها.

وفجأة راوده إحساس مألوف، أن كل شيء ساكن من حوله، ولا صوت سوى حفيف الرياح، وأن هناك من يراقبه. تلفت حوله في توجس، حتى رأى الطيف يحوم في الهواء من حوله، فتجمدت الدماء في عروقه من الخوف، وانتصبت الشعيرات القصيرة في جسده. لم يكن قادراً على تحريك أنملة من جسده، بينما يحدق إلى الطيف، ويشعر أنه يبادل التحديق. أحس في هذه اللحظة أن هناك ملامح لهذا الشيء المبهم، كأن هناك قماً يتحرك دون أن يند عنه صوت. راقبه بارسينو في ذهول، ثم شاهد الطيف يتلاشى ببطء، فأدار عينيه في الهواء ولكنه لم ير شيئاً. تردد في موضعه للحظة، ثم أسرع راکضاً عبر شوارع القرية، هرباً من شيء لا يراه.

## الفصل السادس

### بيت العمدة

وقف بارسينو أمام البيت وأخرج المفتاح الحديدي الكبير من جيبه ليفتح الباب، ثم خطا إلى الداخل بخطوات خفيفة، ولكنه تفاجأ بأن جدته لا تزال مستيقظة، جالسة في هجو البيت تحيك قطعة من الثياب على ضوء مصباح زيتي.

رفعت أوريتا بصرها إليه وتهللت أساريرها لرؤيته وقالت: «مرحباً بعودتك يا باري...». ثم بترت كلماتها عند رؤية الكدمة الواضحة على وجنته فقالت: «ما الذي حدث لك؟». قال لها على الفور: «لا شيء، لم أنتِ مستيقظة حتى الآن يا جدتي؟». قالت وهي تضع الثوب جانباً: «لم أقدر على النوم وأنت بالخارج في ذلك الاحتفال. والآن قل لي ما هذا الذي على وجهك؟».

قال وهو يشيح بوجهه: «مجرد كدمة بسيطة».

فسألت في خوف: «هل تشاجرت؟».

لاذ بالصمت فقالت في جزع: «هذا ما كنت أخشاه».

استجمعت قواها لتعتدل واقفة وتمشي مقتربة منه وهي تتوكأ على عصاها، ثم مسحت على وجهه وقالت: «لطالما خشيت أن يفعل هؤلاء الحمقى شيئاً لك».

قال لها: «لا تقلقي، كان أكينو معي، كما أن الحرس لم يسمحوا بحدوث شيء». قالت جدته: «آه، أكينو...».

عرف ما تفكر فيه، فقال على الفور: «إنه صديقي الوحيد».

قالت له في حنان: «أعرف».

نظر إليها في دهشة فقالت: «عدني فقط أن تحاول الابتعاد عن المتاعب قدر الإمكان».

قال لها مبتسماً: «أعدك». ثم تئأب وقال: «والآن أريد أن أنال قسطاً من النوم فأنا متعب».

قالت له أوريتا: «طابت ليلتك يا بني».

قال لها: «طابت ليلتك يا جدتي». ثم أسرع صاعداً السلم إلى غرفته.

\*\*\*

شق بارسينو طريقه عبر الصباح الضبابي متوجهاً نحو بيت السيد نيربو. كانت الشوارع شبه خاوية في هذا الصباح البارد، فقد سهر جميع قاطني القرية في الاحتفال الكبير، وسيبقى معظمهم في الفراش حتى الظهر، وربما ما بعد الظهر.

عند أحد المنعطفات ما بين الدرجات الصخرية الصاعدة والهابطة نظر بارسينو لأسفل عبر منحدر التل فلمح الحطاب أوركين وكلبه برق يشقان طريقهما عبر شوارع القرية. تذكر بارسينو ما حدث بالأمس في الساحة الكبرى، فقال لنفسه: إنه ذاهب لمقابلة العمدة بالتأكيد.

تذكر كلمات جدته بشأن الابتعاد عن المتاعب، ولكن فضوله غلبه فتحرك هابطاً الدرجات الصخرية بخطوات قافزة متبعاً الحطاب. تساءل في قرارة نفسه عما دفعه لفعل هذا، ولم يكن لديه إجابة سوى أنه

بحاجة لإشباع فضوله.

حرص على أن يبقي مسافة كافية بينه وبين الحطّاب وكلبه، لكيلا يشعر العجوز أوركين أن هناك من يتتبعه. كانت الأطلال الصخرية المترامية هنا وهناك كافية لتوفير مخبأ له حين يتلفت الحطّاب يمناً ويسرة. لم يمض وقت طويل حتى اقتربا من الساحة الكبرى التي يقع في آخرها بيت العمدة، وأدرك بارسينو أنه من المستحيل أن يتتبع الحطّاب عبر الساحة دون أن يغامر بكشف نفسه، وأن يعرف الحطّاب بأن هناك من يلاحقه.

كانت بقايا احتفال الليلة الماضية لا تزال موجودة في الساحة الكبرى، بعض الطاومات، والأعمدة الخشبية، وبقايا طعام، ورماد نيران قد أشعلها بعضهم أثناء الليل. اكتفى بارسينو بالاختباء بين الطاومات الخشبية وهو يراقب الحطّاب يقترب من بيت العمدة، قبل أن يطرق الباب بقوة، فوصلت الطرقات المكتومة إلى مسامع بارسينو خافتة من على هذه المسافة.

مضى بعض الوقت قبل أن يفتح الباب ويظهر على عتبه الحاجب أوثار بملابس النوم، والنعاس بادٍ على وجهه. تبادل الحطّاب والحاجب بضع كلمات لم يتمكن بارسينو من سماعها ولكن الضيق والانزعاج كانا واضحين على وجه الحاجب، بينما حمل وجه الحطّاب تعبيراً صارماً لم يتغير.

غاب الحاجب داخل البيت لدقائق بدت كالدهر، قبل أن يعود ويشير للحطّاب بالدخول ولكنه قال شيئاً وهو يشير إلى الكلب الأسود، فنقل الحطّاب نظره بين الحاجب والكلب وبدأ عليه التردد للحظة، ثم أوماً برأسه قبل أن يدلف عبر فتحة الباب تاركاً الكلب وحده بالخارج. نظر الحاجب إلى الكلب بامتعاض ثم تلفت يمناً ويسرة قبل أن يغلق الباب وراءه.

ظل بارسينو واقفاً في موضعه وهو يشعر بالتردد، ما الذي يجب عليه فعله الآن؟ كان يشعر بفضول شديد لمعرفة الحديث الذي سيدور بين الحطّاب والعمدة، ولكنه لن يجروء على الاقتراب وهذا الكلب واقف هناك. كان الحل الوحيد لديه هو أن يلتف حول الساحة الكبرى بطريقة ما ويعود من الناحية الأخرى.

نظر لأعلى عبر جانب التل المدرج، كان هذا الجزء المحاذي للساحة الكبرى شديد الانحدار، ثم قرر أن يعود أدراجه نحو أقرب مجموعة من الدرجات الصخرية، وما إن صعدها حتى بدأ يسير بمحاذاة الساحة الكبرى، ولكن على مسافة مرتفعة تعلو جانب التل. لم يمض وقت طويل حتى صار بيت العمدة أسفله، ولكنه لا يقدر على القفز من هذه المسافة دون أن يغامر بكسر عنقه، أو ساقه على أقل تقدير. تفحص جانب التل المنحدر جيداً، كان هناك نتوءات صخرية، وبعض الحشائش النابتة.

فكر في الأمر لبعض الوقت وهو ينظر ناحية بيت العمدة. لم يكن قادراً على رؤية الكلب الأسود من هذه الزاوية. تدلى بارسينو بجسده ببطء وهو يتشبث بيده بأحد النتوءات الصخرية، وباليد الأخرى أمسك ببعض الحشائش الذابلة، ولكن جذورها كانت عميقة في الجرف الترابي. ببطء راح يبحث بقدمه عن موطن قدم، فوجد جزءاً صخرياً بارزاً من جانب التل، وما إن اطمأن لثبات قدمه عليه حتى ثبت قدمه الأخرى على نتوء آخر.

نظر لأسفل فرأى الأرض بعيدة وأحس ببعض الدوار فأغمض عينيه وهو يرفع رأسه، ثم فتح عينيه مرة أخرى وهو ينظر عبر الطريق الذي تدلى منه، وهو يشعر بالامتنان لعدم وجود الكثير من الناس في هذا الصباح، فإن رآه أحد متديلاً بهذه الهيئة سيكون الأمر مثيراً للريبة والتساؤل.

بعد لحظات من الصمت والتلفت بدأ بارسينو يستأنف هبوطه الحذر، وهو يتحسس موضع قدميه بتردد، وقد بدأت يدها تؤلمانه من التشبث بالأحجار المسننة والحشائش اليابسة. وبعد دقائق من الهبوط الحذر كان

قد قطع منتصف الطريق للأسفل. راح يبحث بقدمه في حذر فلم يجد صخرة بارزة يمكنه أن يضع عليها قدمه، ولكنه عثر على جزء مجوف في جانب المنحدر يمكنه أن يدس فيه نصف قدمه تقريباً، فثبت قدمه هناك وهو يشعر بنعله الجلدي يكاد أن ينزلق على التراب.

ما إن اطمأن إلى موطن قدمه حتى بدأ يدي قدمه الأخرى بحذر، بحثاً عن جزء بارز يثبتها عليها، وفجأة أحس بالتراب يتفتت تحت قدمه، فاختل توازنه، وأدرك في فزع أنه يسقط. حاول أن يتشبث بأي شيء على طول المنحدر، ولكنه لم يستطع الإمساك بشيء، بينما جسده يحتك بجانب التل وهو يشعر بالأجزاء البارزة منه تؤلم جسده.

ارتطم جسد بارسينو بقوة بالأرض، ولكن الاحتكاك بجانب المنحدر خفف كثيراً من سقوطه، وأدرك أنه لولا هذا لتحطم جسده، ولكنه رغم الألم الذي يشعر به أدرك أن أيّاً من عظام جسده لم تنكسر. ظل متكوماً على نفسه خائفاً من أن يتحرك وقد سمع نباح الكلب يأتي من مقدمة البيت. تساءل إن كان الكلب قد سمع صوته وهو يسقط على الأرض. راح ينظر ناحية مقدمة البيت بحذر، ولكن الكلب لم يظهر، وسرعان ما توقف النباح، فخيم الصمت على المكان مرةً أخرى.

لم يغامر بارسينو بالتحرك من موضعه لبضع دقائق أخرى، ثم بدأ يتفحص نفسه، كانت ملابسه الصوفية قد تمزقت في أماكن عدة، وامتلاأت يده وقدماه ووجهه بالخدوش، ولكن لحسن الحظ لم يكن هناك جروح خطيرة. كان نعله قد انخلع من قدميه فراح يفتش عنه حتى عثر عليه على مقربة منه، ووجد أنه لم يتمزق لحسن الحظ. ستوبخه جدته على ما فعله بنفسه وبملابسه، سيكون عليه التفكير في حجة مقنعة، ولكن لاحقاً وليس الآن. الآن عليه أن يفعل ما خاطر بكل هذا من أجله، وهو أن يعرف ما الذي يتحدث الحطاب والعمدة بشأنه.

اقترب من النافذة الموجودة بمؤخرة البيت بخطوات بطيئة حذرة، وهو يشعر بالألم في جسده مع كل خطوة، ثم نظر عبر شيش الشباك الخشبي إلى الداخل، كان قادراً على الرؤية قليلاً. وجد نفسه ينظر إلى حجرة واسعة، قد فرشت ببساط سميك، ووضع عليها بعض الكراسي، ومكتب خشبي، وبالجدار رف وضعت عليه بعض الكتب الثقيلة التي تكوم عليها الغبار.

أدرك أن هناك رجلين جالسين على كرسيين، لا شك أنها الحطاب أوركين والعمدة أمريد، ولحسن الظن كانا يوليان النافذة ظهريهما، ولكنه رغم هذا أحس بالقلق وهو يختلس النظر. بدا من حركة يديهما أنهما يتناولان شيئاً، على الأرجح شايًا ساخنًا في مثل هذا الصباح البارد، وتعجب بارسينو من كون الحطاب أوركين يجلس مع العمدة ندا لند. كان هناك حديث يدور بين الرجلين، ولكن بارسينو لم يكن قادراً على سماع صوتٍ سوى همهمات مبهمّة فألصق أذنه بالنافذة.

لم يكن بارسينو قادراً على تمييز الكلمات، ولكنه أدرك أن الحديث لم يكن ودياً، فكل واحد منهما يلوح بيده التي لا تمسك بكوب الشاي بعصبية، وفجأة بدأ صوت أمريد يعلو فتمكن بارسينو من سماعه يقول: «قلت لك أكثر من مرة إن هذا جنون!».

فقال أوركين بحدة مماثلة: «وأنا أقول لك إن هذا المصلحة القرية وقاطنيها».

قال العمدة دون أن يخفف من حدة صوته: «وهل سيبقى هناك قرية بعد أن يهجرها الجميع؟».

عقد بارسينو حاجبيه الأبيضين وهو يقول لنفسه: يهجرها؟ ما الذي يعنيه بحق الشمس؟

اعتدل أوركين واقفاً وهو يضع الكوب الفارغ على كرسيه حيث كان يجلس وهو يقول: «يبدو أنك لا تبالي بشيء سوى العمودية، ولكنك لا تدرك أنه قد لا يتبقى شيء لتكون العمدة عليه. تذكر ما حدث قبل ثمانية

عشر عامًا، سيكون الأمر أسوأ هذه المرة وقد لا ينجو منه أحد. سيكون عليّ تحذير أهل القرية بنفسى إن لم تفعل أنت هذا!».

ازداد انعقاد حاجبي بارسينو وعقله يغلي بالأفكار كالمرجل، ما الذي حدث منذ ثمانية عشر عامًا؟ لا شك أن هذا حدث قبل مولده، أو ربما في العام الذي ولد فيه!

لم يمهله العمدة فرصة للتفكير، فقد صاح والخطاب يتوجه نحو باب الحجر: «لن يصدق أحد هذا الجنون، وحتى لو صدقوك فأين يذهبون؟ لا يوجد شيء وراء غابة الظلال، لا شيء مطلقًا، هل تسمعي؟». ولكن مع كلماته الأخير صفق أوركين الباب ورائه، تاركًا العمدة أمر يد وحده، يحدق نحو الباب المغلق، ورغم أنه كان يولى بارسينو ظهره كان الأخير قادرًا على أن يشعر بهالة الغضب المحيطة بالعمدة، فانحنى مختبئًا تحت النافذة خوفًا من أن يلتفت ويراه.

ظل بارسينو متجمدًا في موضعه لبضع لحظات، وهو يفكر في الرحيل. رفع رأسه ببطء فوجد العمدة يخطو مقتربًا من النافذة، فأسرع مبتعدًا على الفور، ثم التصق بالجدار بجانب النافذة وراها تفتح، وسمع صوت العمدة يأخذ نفسًا عميقًا.

تراجع بارسينو بحذر شديد، خشية أن ينتبه إليه العمدة، وقد يعرف حينها أنه كان يسترق السمع إلى حديثه مع الخطاب، ومن يعرف ماذا قد يحدث حينها. ولكن صوتًا آخر جاء من وراء النافذة جعله يتجمد في موضعه، الصوت الرفيع للحاجب أو ثاره.

«المعذرة يا سيدي، لم أستطع منع نفسي من سماع حديثكما».

تنهد أمر يد ثم قال: «ليس الأمر وكأننا كنا نهمس».

قال الحاجب: «الخطاب يبدو واثقًا من نفسه، أعني... ماذا لو كان محققًا؟».

قال العمدة بحدّة: «إنه ليس محققًا، ولكن حتى لو كان كذلك، فماذا يمكننا أن نفعل؟».

ساد الصمت للحظة، ثم قال الحاجب: «من قبل كان لدينا الخطابون، والآن لم يعد لدينا سوى خطاب واحد، لا أعتقد أنه سيقدّر على فعل شيء بمفرده».

زفر العمدة ثم قال: «لطالما نجت القرية، لن يحدث إلا ما يحدث كل مرة».

صمت كلاهما قليلًا، قبل أن يقول أو ثاره مترددًا: «وماذا لو أخبر الناس؟ ماذا لو صدقوه؟ ألا تعتقد أنهم سيفضلون الرحيل على البقاء والمخاطرة بحياتهم؟».

قال العمدة ببطء: «وأين سيذهبون؟ لا يوجد شيء وراء غابة الظلال سوى المزيد من الظلال. ليس لدينا سوى جانب التلّ وسندافع عن هذا بكل ما لدينا من قوة إذا ما تطلب الأمر». ثم تنهد قبل أن يضيف: «إن ما يفكر فيه الخطاب مغامرة مجنونة قد تؤدي إلى هلاكنا جميعًا. عليك أن تراقبه جيدًا أثناء وجوده بداخل القرية، وتخبّرني بكل ما يفعله، أو إن حاول أن يثير الاضطراب بين الناس. أما عندما يذهب إلى الغابة... حسنًا، فلنترك أمره للظلال». ثم مد يديه وأغلق النافذة.

تنفس بارسينو الصعداء، وقد أحس بالارتياح أن العمدة وحاجبه لم يشعرًا بوجوده، ولكن في أعماقه كان يشعر بالاضطراب أكثر من أي وقت مضى. وبعد أن اطمأن إلى أن أحدًا لا ينظر من النافذة بدأ يتسلل ويدور حول البيت بحذر. لم يجد أثرًا للخطاب وكلبه أمام البيت، فبدأ يمشي بخطوات مسرعة مبتعدًا عن بيت العمدة، متجاهلاً جسده الذي يحتج ألمًا من هذا المجهود، فقد غلب خوفه ألمه، وازدادت خطواته سرعة حتى صار يعدو، وما إن ابتعد مسافة كافية حتى أطلق ساقه للريح.

## الفصل السابع

### ألغاز... ألغاز...

وصل بارسينو إلى الحقول المتدرجة قرب سفح التل وقد جفت الدماء من حول جروحه، ولا تزال ثيابه مغبرة، فجذب أنظارًا أكثر من المعتاد. كان الوقت قد تجاوز الظهر ولكن الشمس كانت محتجبة وراء بعض الغيوم، فلم يكن الجو حارًا، ورغم هذا كان بارسينو يتصبب عرقًا، وقد راح يلهث وهو يميل للأمام ويتكى على ركبتيه.

وما إن التقط أنفاسه حتى رفع عينيه وجال ببصره باحثًا عن صديقه أكينو، كان هناك الكثير من المزارعين في الحقول، منشغلين بحراثة الحقول الخاوية من المحصول تمهيدًا لزراعتها من جديد، أو الاعتناء بالحقول التي تزدهر بالمحاصيل النضرة بالفعل، وكانت روائح التربة والنباتات والفاكهة الممتزجة ببعضها في أنفه وهو يلتقط أنفاسه مبهجة بالنسبة له. ولكنه ما إن لمح صديقه حتى نسي كل هذا وهو يناديه: «أكينو!». التفت إليه أكينو وبدا مندهشًا لرؤيته، وكذلك عدد من المزارعين الآخرين، ومن بينهم رجل ضخم الجثة مفتول العضلات من طول عمله في زراعة الحقول يقف بالقرب من أكينو. ما إن اقترب منها بارسينو حتى أدرك أنه السيد أسيمار، الذي يعمل لديه أكينو في حقله.

قال أسيمار بصوت أجش وبنبرة لم يحاول إخفاء الازدراء فيها: «ما الذي يفعله هذا الفتى هنا؟». كان يخاطب أكينو ولكن السؤال وصل إلى مسمعي بارسينو، وبدا واضحًا أن الرجل قد تعمد أن يسمع هذا السؤال.

قال أكينو: «على رسلك يا سيد أسيمار، إنه صديقي».

قال الرجل بسخرية: «أعرف». ثم أضاف بجدية: «ربما يجدر بك أن تحسن اختيار أصدقائك». احتقن وجه أكينو بالدماء وبدا أنه على وشك أن يقول شيئًا، ولكن مع اقتراب بارسينو منه استطاع بوضوح أن يرى لطخات الدماء الجافة والتمزقات في ثيابه، فصاح في دهشة: «ما الذي حدث لك بحق الظلال؟».

أمسك بارسينو بيده ليجذبه جانبًا وهو يقول بصوت هامس: «هذا ما جئت إليك بشأنه... لم أجذك في البيت... أو في الحانة... لذا خمنت أنك قد جئت للعمل...».

كان يتحدث بنبرة سريعة لاهثة، فقال له أكينو: «على رسلك يا باري، التقط أنفاسك أولاً ثم أخبرني ماذا حدث منذ البداية؟».

تلقت بارسينو حوله، ثم قال: «هنا؟ لا أريد أن يسمعنا أحد».

عقد أكينو حاجبيه وقال: «يبدو الأمر جادًا». ثم تلقت حوله بدوره قبل أن يقول: «تعال معي».

بدأ يسير مبتعدًا بصحبة بارسينو بينما الأخير لا يزال يعرج، ولكنه سمع صوت أسيمار الأجش من ورائه يقول: «إلى أين تظن نفسك ذاهبًا يا أكينو؟ لم ينته العمل بعد».

لوح أكينو بيده وهو يقول: «لن أتأخر، سأعود لاحقًا». فزفر السيد أسيمار وهو ينظر إليه مبتعدًا، قبل أن يهز كتفيه في استسلام.

قال أكينو متذمرًا: «من يقول إن علينا العمل حتى في أيام الاحتفال؟».

قال بارسينو في قلق وكأنها قد تذكر فجأة: «لم أذهب لاصطحاب أغنام السيد نيربو إلى المراعي اليوم، أخشى أنه سيغضب».

قال له أكينو: «دعنا نقلق بشأن نيربو لاحقًا، ولكن أولاً عليك أن تخبرني ما الذي جرى لك اليوم يا رجل؟ تبدو وكأنك سقطت من فوق التل».

تنهد بارسينو وقال: «هذا ما حدث لي تقريبًا!».

اتسعت عيننا أكينو وقال: «كفاك مزاحًا وألغازًا يا باري! فلتقل لي على الفور ما الذي حدث».

نظر بارسينو وراءه، كانا قد ابتعدا عن الحقول، ولم يكن من حولهما من يمكن أن يسترق السمع، فبدأ يحكي له ما حدث معه منذ الصباح. ومع كلمات بارسينو راح أكينو يضيق عينيه تارة ويفتحهما على اتساعهما تارة أخرى، وكلما حاول مقاطعة بارسينو أشار له أن يصبر حتى ينتهي من حكايته.

كانا يقطعان شوارع القرية، التي لم يكن بها الكثير من الناس حينها، ففي ذلك الوقت من الظهرية يكون الناس إما في عملهم وإما في بيوتهم، وخصوصًا في اليوم التالي للاحتفال الكبير.

أنهى بارسينو حديثه قائلاً: «وبعدًا جئت بحثًا عنك مباشرة، خشيت أن أعود إلى البيت فتراني الجدة أوريتا على هذه الحالة».

قال أكينو وهو يفكر في الأمر: «كنت أعرف أن هذا الخطاب يخفي سرًا ما، ولكن يبدو أن العمدة وحاجبه يخفيان سرًا أيضًا. ما الذي يقصدونه بحديثهم عن هجر القرية؟ وما مصلحة الجميع هذه التي يتحدث عنها العمدة أمريد؟».

هز بارسينو كتفيه وقال: «لا أعرف، ولهذا جئت إليك، إنهم يتحدثون عن شيء في غابة الظلال أو... أو فيما وراءها». أنهى جملة مترددًا.

هز أكينو رأسه وقال: «شيء وراء غابة الظلال! لم أسمع عن شيء كهذا من قبل».

أومأ بارسينو برأسه وقال: «أجل، أعرف يا أكينو، ولكن...». بتر جملة فجأة ثم نظر إلى صديقه وقال: «يقول الناس إن من يذهب إلى الغابة يموت، ولكن كيف يعرفون هذا؟ لقد ذهبوا بلا رجعة، ولكن ألم تسأل نفسك من قبل أين انتهى بهم المطاف؟».

قال أكينو: «كان الخطابون يجلبون جثثهم من الغابة ويعيدونها إلى جانب التل، هذا ما يحكيه العجائز».

توقف بارسينو في موضعه فجأة، بينما أكمل أكينو سيره لبضع خطوات دون أن يتبته، وعندما لاحظ توقف صديقه التفت إليه وهو يقول في دهشة: «ماذا دهاك؟».

ظل بارسينو متجمدًا في موضعه، فعاد إليه صديقه وقال: «لماذا توقفت يا باري؟».

قال له بارسينو: «ما هذا الذي قلته عن الخطابين؟».

قال له أكينو في حيرة: «ماذا تعني؟».

قال بارسينو: «لقد قال العمدة وحاجبه شيئًا عن الخطابين، ولكن لطالما افترضت أنه لا يوجد سوى خطاب واحد، العجوز أوركين».

فكر أكينو قليلًا وهو يمسك ذقنه ثم قال: «ما سمعته هو أنه كان هناك خطابون آخرون في الماضي، ولكن لم يعد هناك الآن سوى العجوز أوركين، الخطاب الوحيد الذي يجرؤ على الولوج إلى الغابة والوحيد الذي يقدر على العودة منها».

بدأ بارسينو يمشي مرة أخرى ببطء وهو يقول: «وهؤلاء الخطابون الآخرون... أين ذهبوا؟ ما الذي حدث لهم؟».

حك أكينو رأسه في حيرة ثم قال: «لم يحك أحد من العجائز شيئاً عن هذا في حكاياتهم، ولم أفكر فيه كثيراً من قبل، أعتقد أنه لغز كلغز الأطلال لا أحد يعرف إجابته حقاً».

قال بارسينو في حنق: «بحق الشمس! أولاً الحطاب، ثم العمدة وحاجبه، والآن أشعر أن القرية بأسرها تخفي عنا سرّاً ما».

قال أكينو: «الناس يخشون الحديث عن الغابة وكل ما يتعلق بها، ربما يعتقدون أنهم إن تجاهلوا فقد ينسون وجودها». ثم نظر ناحية الأفق وأضاف ساخراً: «ولكن كيف لك أن تتجاهل شيئاً بهذه الضخامة». سار بارسينو في صمت للحظات، ثم قال له: «العمدة وحاجبه يعرفان شيئاً ويخفيانه عن الناس، وكذلك الحطاب العجوز».

سأله أكينو: «ما الذي تفكر فيه؟».

قال بارسينو وعينه غارقتان في التفكير: «أعني... لم لا نتسلل إلى بيته ونحاول معرفة هذا السر؟».

اتسعت عينا أكينو في دهشة، ثم صاح: «نتسلل... إلى بيته؟ هل جنت؟».

أجابه بارسينو في حماس: «فلفتكر في الأمر، إن كان يخفي سرّاً فربما يخبي شيئاً في بيته. أعني إن كان ساحراً حقاً فسيكون بيته مليئاً بمختلف التحف السحرية التي سمعنا عنها في الحكايات ونحن صغار».

قال أكينو في تردد: «لا أعرف ما دهالك، في الصباح تتلصص على حوار بين العمدة والحطاب، والآن تريد التسلل إلى بيت الحطاب».

هز بارسينو رأسه وقال: «ليس الآن، فلنعملها في الغد. إنه يغادر بيته كل صباح بصحبة كلبه ويذهب إلى الغابة لجمع الحطب، ولا يعود إلا قرب غروب الشمس. سنذهب لنلقي نظرة سريعة ونغادر قبل عودته».

قال له أكينو وهو يعقد حاجبيه: «ولكنك قلت شيئاً عن أن العمدة قد طلب من حاجبه مراقبة الحطاب هذه الأيام، ربما سيكون من الأفضل أن نتظر قليلاً حتى لا نتورط في المتاعب».

قال له بارسينو في حماس: «سينشغلون بمراقبته بينما نفتش نحن البيت».

قال أكينو: «لقد نجحت في إثارة فضولي، ولكن ليس في الغد، دعنا نتظر بضعة أيام فحسب».

تنهد بارسينو وقال: «كما تشاء».

كانا يتحركان طيلة الوقت صاعدين جانب التل عبر الدرجات الصخرية، ويلتفان من حول البيوت والأطلال القديمة، وسرعان ما أدرك بارسينو أنهما يقطعان طريقاً مألوفاً، متوجهين نحو حانة الغزال الوائب.

قال له: «أنت متوجه نحو الحانة أليس كذلك؟ هل ستشرب في مثل هذا الوقت الباكر؟ أئن يغضب منك السيد أسيمار إن عدت له ثملاً؟».

ضحك أكينو وقال: «لا لست ذاهباً إلى هناك كي أشرب، كما أنني لا أخطط للعودة إلى السيد أسيمار، أو قد أعود لا أعرف، ولكن علينا أولاً أن نعتني بك».

سأله بارسينو في حيرة: «ما الذي تعنيه؟».

قال له أكينو: «لن تعود إلى الجدة أوريثا بهذه الجروح والكدمات الجافة ولطخات الغبار على وجهك. ستموت فزغاً عند رؤيتك. سأطلب من كينورا أن تعتني بك بخبرتها في الأعشاب الطبية. هل نسيت ما فعلته بالأمس؟».

تذكر بارسينو ما حدث في الليلة السابقة أثناء الاحتفال الكبير. سيكون هذا أفضل من العودة للبيت لكي تعتني جدته بجروحه، أو أن تطلب من إحدى العجائز الأخريات أن تطببه.

سرعان ما ظهرت لافتة الغزال الواثب من بعيد، ولكنها لا تتأرجح فليس هناك رياح هذه المرة، وعندما اقترب من الحانة أدرك أنه لا يوجد صخب منبعث منها أيضًا، ولكنه لم يتعجب من هذا، فلن يذهب أحد إلى الحانة في مثل هذا الوقت، إلا ربما لطلب فطور متأخر أو غداء مبكر، ولكنه خمن أن هذا شيء غير معتاد. دفع أكينو باب الحانة بلا تردد، وتبعه بارسينو بخطى عرجاء، وما إن دلفا إلى الداخل حتى رفع طابيو نظره مبتهجًا بابتسامة عريضة، ولكنه حين أدرك هويتهما تجهم وجهه وتلاشت ابتسامته على الفور. قال في نفاذ صبر: «ماذا تريدان؟». ثم ألقى نظرة مزدرية ناحية بارسينو، ولكنه عقد حاجبيه عندما لاحظ ما ألم به.

قال له أكينو ساخرًا: «أهذه هي الطريقة التي ترحب بها بزبائنك في الأوقات التي لا تجد فيها إلا عددًا قليلًا من الزبائن؟».

تلفت بارسينو حوله، لم يكن بالحانة عدد قليل من الزبائن، بل لم يكن بها زبائن على الإطلاق، فالطاولات والكراسي كلها شاغرة، ولكن المدفأة متقدة ببعض الحطب، فتطقطق بصوتٍ خافت، وتبعث الدفء في الحانة.

قال أكينو: «على أي حال لم نأتِ إلى هنا من أجلك، بل من أجل كينورا». وقبل أن يطرح طابيو المزيد من الأسئلة ظهرت كينورا بشعرها الأحمر معقوصًا وراء رأسها بشكل لم يعهده عليها، وهي تحفف يديها في مئزرٍ، ورائحة الصابون تسبقها. ما إن رأت الشابين حتى بدت عليها الدهشة وهي تقول: «لم أتوقع أن يكون لدينا زبائن في مثل هذا الوقت الباكر». نظر طابيو ناحيتها وهو يتنهد، ثم عاد إلى ما كان يفعله قبل مجيئها، وهو تلميع بعض الأطباق والأقداح بقطعة قماشية، قبل أن يرتبها أمامه بدقة.

قال أكينو: «في الواقع لقد جئنا لك لكي تصلحي صديقي». نظرت إلى بارسينو عاقدة حاجبيه وهي تقول: «ماذا تقصد...». ثم بترت جملتها فجأة وبدا عليها أنها قد انتبهت للمرة الأولى للجروح التي تغطي وجهه ويديه، فقالت: «ما الذي حدث لك بحق النجوم؟». قال بارسينو: «حكاية عجيبة لن تصدقها».

قال أكينو على الفور: «لقد انزلت قدم بارسينو على أحد المدرجات الصخرية، وسقط سقطة عظيمة». لم يخفَ على كينورا النظرة التي رمقه بها بارسينو، فقالت بشك: «أهذا ما حدث حقًا؟». قال بارسينو وهو يومئ برأسه: «أجل، هذا ما حدث». لاحظ حينها أن طابيو ينظر ناحيتهم عاقدًا حاجبيه، فازدرد لعابه وهو يقول مخاطبًا كينورا: «هل يمكنك علاجي؟».

قالت مازحة: «يمكنني الاعتناء بجروحك، أما عن ثيابك الممزقة فلا أعتقد أنني سأقدر على مساعدتك فيها».

ضحك أكينو على مزحتها، أما بارسينو فلم يفكر إلا فيما ستقوله جدته عندما ترى ثيابه بهذا الشكل. توجهت ناحية حجرة صغيرة في زاوية الحانة، ثم عادت بعد وقت قصير وهي تحمل بعض العلب الصغيرة. فتحت إحدى العلب وهي تقول: «حسنًا، دعنا نعالجك». فاحت من العلبة الرائحة العطرية العبقة، بينما بارسينو يحدق إليها.

بحق الشمس وضياؤها، لم هي جميلة هكذا؟ خفق قلبه وهو يسأل نفسه هذا السؤال.

مسحت كينورا وجهه بمنشفة مبتلة لإزالة آثار الدماء، فلم يبقَ إلا آثار الجروح التي بدت حمراء زاهية بالمقارنة مع بشرته البيضاء، ثم استخدمت إصبعها لتستخرج بعضًا من المادة الدهنية بالعلبة، وعندما بدأت تدهن بها وجهه أحس بألم حارق في موضع الجروح لثانية، قبل أن يشعر بالبرودة المُلطفة تسري بدلًا منها، فتنهد في ارتياح.

سرعان ما أدرك أنه لم يعد يشعر بالألم الحارق في جروحه، فقال لها: «شكرًا لك».

قالت مبتسمة وهي تلوح بيدها: «لا داعي لشكري».

تورد وجهه الشاحب قليلًا، ثم ابتسم وقال: «بالطبع».

قال أكينو: «الآن وقد انتهينا...». ثم مد يده في جيبه ليخرج بعض القطع النحاسية وهو يكمل: «هذا مقابل إصلاح صديقي».

قالت كينورا: «لا، لا حاجة لهذا...».

ولكن أكينو وضع العملات على الطاولة وهو يقول: «لا أعتقد أن أباك سيعجبه الأمر إن غادرنا دون أن ندفع». ثم أضاف ضاحكًا وهو يختلس النظر إلى طابيو: «فهو لا يعتبر الحانة سبيلًا للتصدق على الناس».

عقدت كينورا حاجبيها في عبوس مصطنع وقالت: «أعتقد أنك محق».

تبادل ثلاثتهم ضحكة مقتضبة، فنظر طابيو ناحيتهم في غضبٍ مما جعل أكينو يمسك بيد بارسينو ويجذبه نحو باب الحانة، وفي لحظات كانا بالخارج، ينحدران صاعدين وهابطين عبر شوارع القرية.

وأخيرًا قال بارسينو: «سأدفع لك ما دفعته بالحانة لاحقًا، فأنا لا أملك مالًا الآن».

لوح أكينو بيده وقال: «لا عليك يا باري، لا تشغل بالك بالأمر. قل لي، هل ستأتي اليوم مساءً إلى الحانة؟ أم نسيت أن هذا هو اليوم الثالث للاحتفال باكتمال القمر؟».

هز بارسينو رأسه وقال: «لم أنس، ولكن يكفي ما حدث في اليومين السابقين».

قال أكينو مبتسمًا: «لم يحدث شيء خطير يا فتى، كما أنك لا تريد أن تستسلم لهؤلاء الحمقى والخرافات التي تملأ رؤوسهم، أليس كذلك؟».

قال بارسينو: «في المرة التالية قد يحدث شيء خطير». ثم نظر إلى الشمس واضعًا يده على جبينه لتظليل عينيه قبل أن يقول: «سأذهب إلى السيد نيربو، تأخرت كثيرًا عليه وقد اقترب النهار من الانتصاف».

قال أكينو: «لا يمكنك أن تذهب إليه وأنت بهذه الحالة، فلتذهب له في الغد».

قال بارسينو وهو يتأمل حالته المزرية: «أعتقد أنك محق».

قال أكينو: «الجميع يعتقد أنني محق اليوم، ولكن أتعرف يعجبني كوني محقًا». ثم كتم تناؤبه بيده قبل أن يقول: «ربما يذهب نيربو اليوم للاعتناء بأغنامه بنفسه مرة على سبيل التغيير».

نظر إليه بارسينو للحظة، ثم تبادل الاثنان الضحك.

## الفصل الثامن

### اجترار الذكريات

أحست أوريتا بالجزع لرؤية حفيدها على هذه الحالة عند عودته قرب غروب الشمس، فقالت في جزع: «بحق الشمس! هل تشاجرت مرة أخرى؟».

قال لها بارسينو على الفور: «لقد تعثرت وانزلت قدمي من على أحد المدرجات». قالت له في ريبة: «هل هذا ما حدث حقاً؟».

تذكر بارسينو ما حدث له في الصباح، ثم قال لها: «أقسم لك أن هذا ما حدث، لم أتشاجر اليوم». تنهدت الجدة ثم قالت: «حسناً، لا بأس، فلتستحم وتبدل ثيابك بأخرى نظيفة، ولا تقلق بشأن ما حدث لثيابك سأصلحها لك».

قبل بارسينو جبين جدته ثم توجه إلى الحمام، حاملاً معه بعض الماء الساخن من القدر الذي كان يغلي فوق المدفأة، وحاول أن يطرد الأفكار عن عقله وهو يستحم. لا تزال الكدمات الزرقاء تؤلمه، فراح يدلكها برفق بالماء الساخن. وما إن استحم وارتدى ملابس أخرى نظيفة دافئة حتى أحس ببعض الارتياح، كأنها جسده قد استعاد حيويته أخيراً.

توجه إلى المطبخ فوجد جدته تضع الطعام على الطاولة، وعندما رآته قالت: «لقد جهزت لك الغداء يا باري، لا شك أنك جائع».

جلس بارسينو إلى الطاولة ثم بدأ يتناول طعامه وهو غارق في أفكاره الخاصة. لاحظت أوريتا شروده فقالت له: «ما بك يا بني؟».

لاذ بالصمت للحظات، ثم قال ببطء: «هل تعرفين أي شيء عن وجود حطّابين آخرين في القرية غير الحطّاب أوركين؟ أعني وجودهم في الماضي».

اتسعت عينا الجدة في دهشة، ثم قالت له: «من أخبرك بمثل هذا الكلام؟».

قال بارسينو في وجوم: «يبدو أن الجميع يعرفون هذا عداي، فشاب يتيم مثل أكيينو يعيش وحده يعرف عن الأمر وأنا لا أعرفه».

قالت الجدة بلطف: «هون عليك يا بني، كان هذا في الماضي، ولم يعد أحد يتحدث عنه».

قال في حيرة: «ولكن أين ذهبوا؟ ولم لا أعرف شيئاً عن الأمر؟».

صمتت الجدة قليلاً ثم قالت: «لأنها ذكرى حزينة ولا أحد يريد أن يجترها، فالجرح الذي تظنه قد اندمل ربما يتفجر ألماً ودمًا عندما تكزه بإصبعك. من الأفضل أن نترك جراح الماضي في الماضي».

قال بإصرار: «ولكنني أريد أن أعرف، أخبريني ما الذي حدث في الماضي؟».

تنهدت الجدة ثم قالت بحزن عميق: «لطالما جاءت الأخطار من الغابة، وكان الحطّابون هم الأكثر عرضة للخطر بسبب طبيعة عملهم. ولكن في إحدى المرات كان الخطر أكبر من قدرتهم على التصدي له، وقضى العديد منهم حتفه، ولم يبق سوى العجوز أوركين، الذي كان كهلاً حينها».

عقد حاجبيه وقال في حيرة: «أي خطر تقصدين؟ ما الذي حدث بالضبط؟».

قالت الجدة باقتضاب: «هجوم الذئاب».

اتسعت عينا بارسينو في دهشة وقال: «الذئاب؟ هل هي حقيقة؟».

قالت في أسي: «بالطبع يا بني».

سألها: «متى حدث هذا؟».

صمتت الجدة للحظة وهي تتحاشى النظر إلى عينيه ثم قالت: «قبل ثمانية عشر عامًا».

صمت بدوره ثم سألها: «هل كان هذا قبل مولدي أم بعد مولدي؟».

صمتت جدته ولم تجب عن سؤاله، فتفحصها ببصره وهو يشعر أنها تحاول إخفاء شيء ما عنه. لم يعتد هذا

من جدته، لطالما أحسها صريحة وصادقة، فما الذي يدفعها لإخفاء شيء عنه؟ أم تراه يخيل لي هذا؟

قال لها في رجاء: «أريد أن أعرف، لقد كبرت بما يكفي».

تنهدت الجدة طويلاً ثم قالت: «كان هذا يوم مولدك».

نزلت عليه إجابتها كالصاعقة؛ لقد هجمت الذئاب يوم مولده. قالت له جدته من قبل إن أمه ماتت وهي

تلده، وإن أباه مات في نفس اليوم، ولكنها لم تخبره كيف مات.

قال لها فجأة: «كيف مات أبي؟».

صمتت جدته وأطرت ببصرها، فقال بارسينو في حزن: «هل لهذا علاقة بلعنتي؟».

رفعت الجدة بصرها وقد اتسعت عيناها ذهولاً، ثم قالت: «أي لعنة يا بني؟».

اعتدل واقفاً وراح يقطع الحجرة جيئةً وذهاباً وهو يقول: «بشرقي الشاحبة، شعري الأبيض. أنا أمهق كما

يقول قاطنو القرية، ولدت بدون مباركة الشمس، ماتت أمي وهي تلدني، ومات أبي يوم مولدي. كنت لعنة

عليها، أليس كذلك؟».

قالت بصوتٍ مرتجف: «لا تردد مثل هذا الكلام، لا ذنب لك فيما حدث لوالديك، لقد اختارهما القدر كما

اختار الكثيرين من قبلها».

توقف في موضعه ونظر إليها، ثم قال في حزن: «لماذا أنا من يولد على هذه الهيئة؟ لم اختار القدر أن يسخر

مني ويجعلني شيئاً يخاف منه قاطنو القرية؟ لماذا أنا من بين كل الناس؟».

لطالما طرح على نفسه هذه الأسئلة، ولكنه أدرك أنه دومًا ما كان يهرب من الإجابات، لعله كان يخشى

معرفة الحقيقة، يخشى أن يكون... حقًا كما يقول الناس. ولكنه في هذه اللحظة أخذ نفسًا عميقًا، لقد كبر بما

يكفي وصار مستعدًا لسماع الإجابات، بل يحتاج إلى سماع الإجابات.

التفت إلى جدته وسألها مرةً أخرى بالحاح: «كيف مات أبي؟».

قالت جدته وعيناها تترقرقان بالدموع: «لقد مات في هجوم الذئاب، في يوم مولدك».

لاذ بارسينو بالصمت، ثم نظر إلى يديه الشاحبتين وقال: «لهذا يؤم الجميع أنني لعنة على هذه القرية».

اعتدلت جدته واقفةً واقتربت منه ثم احتضنته وقالت: «دعك من هؤلاء الحمقى، لا ذنب لك في شيء قد

حدث رغم إرادتك، وإني لأؤمن في قلبي أن القدر قد اختارك لأشياء عظيمة يا بني».

ربت على ظهر جدته وقال: «ربما يا جدي، ولكني لا أستطيع منع نفسي من التساؤل».

قالت جدته وهي تمسح دموعه قد سألت على وجتها: «لا شيء لتساءل بشأنه، ما حدث قد حدث في

الماضي وانتهى. عدني فقط أن تتوقف عن طرح مثل هذه الأسئلة».

شعر بارسينو بالتعب ينال من جدته فقال لها: «أعدك يا جدي». ولكن في قلبه اندلع جحيم مستعر من

الحيرة والتساؤل.

## الفصل التاسع

### هطول المطر

في الصباح التالي توجه بارسينو إلى بيت السيد نيربو، فوجده غاضبًا للغاية لتغيبه في اليوم السابق، ولم يقبل عذره بأنه تعثر وسقط بالأمس وكان محتاجًا للرعاية طوال اليوم، ولكنه سمح له أن يأخذ أغنامه إلى المرعى، وإن لم ينس أن يلوح له بإصبعه مهددًا: «إن تكرر هذا مرة أخرى فسأجد غيرك ليعتني بقطيعي».

تمتم بارسينو قائلاً: «أعدك أن هذا لن يحدث مرة أخرى».

توجه بالقطيع مباشرة نحو المراعي، وهو يحاول أن يطرد من عقله ما دار بينه وبين جدته بالأمس، وما سمعه قبلها في الصباح بين الحطاب والعمدة، وبين العمدة وحاجبه. كان قد قضى ليلة صعبة وهو يحاول النوم بينما الأفكار تتصارع في عقله، ولا يعرف كيف تمكن من النوم حقًا. نظر نحو السماء فرأى الشمس محتجبة وراء الغيوم، فقال لنفسه بصوتٍ خافت: «ربما نكون مُقبلين على أيام من المطر».

المطر هو مصدر الماء في القرية، به تمتلئ الصهاريج، فيشرب الناس ويزرعون، ويستحمون، ويسقون ماشيتهم. يقولون إن رجال الشعائريتلون صلواتهم إلى السماء كي ترسل السحاب حاملاً المطر، فتستجيب لهم السماء، ولكن ماذا لو لم تستجب يوماً؟ جعلته الفكرة يجفل.

قرب منتصف الظهر كان يراقب القطيع يلوك الحشائش في المرعى، مستلقياً على ظهره تحت ظل شجرة، رغم أنه لم يكن بحاجة لهذا، فالغيوم كانت لا تزال كثيفة، والبرودة تحيم على جانب التل. قال لنفسه إنه سيكون عليه العودة باكراً هذا اليوم، خشية أن يهطل المطر وهو لا يزال في المراعي.

عندما اقترب النهار من آخره بدأ يجمع القطيع، ويقوده عائداً إلى القرية عبر البوابة الخشبية ثم توجه إلى بيت السيد نيربو، قبل أن يعود إلى بيته ويتناول الغداء مع جدته، متجاهلاً حوار اليوم السابق، وبدا على جدته الارتياح لهذا.

عندما خلد إلى النوم عادت الأفكار لتهاجم على عقله بشراسة، فراح يتقلب في فراشه كأنها يتقلب على الجمر. كانت الرياح تعوي بالخارج، وتصفع نافذته، والستائر تتمايل مع الهواء المتسلل من بين مصراعها، فجذب الغطاء إلى ذقنه. وفجأة بدأ يسمع صوت طرقات ضعيفة على خشب النافذة. كانت في البداية على مسافات متباعدة؛ تك... تك... تك... ثم تزايدت وتيرتها بحدة؛ تك تك تك، فأدرك أن المطر يهطل بالخارج.

ساعده صوت المطر على تهدئة نيران عقله، ورغم برودة الجو وعواء الرياح بالخارج شعر ببعض السكينة والدفع وهو يتدثر بغطائه. قال لنفسه: سيأتي النوم في أي لحظة. لم يجيب النوم ظنه، فسرعان ما أسدل غلالته الرقيقة على عينيه، فغرق في نوم عميق.

عندما استيقظ في الصباح التالي كانت شوارع القرية غارقة بالمياه ويغطيها الطين اللزج الممتزج بالحشائش، وقد حذرته جدته قبل خروجه من البيت أن تزل قدمه فيسقط مرة أخرى، ورغم هذا يسود القرية حالة من الهجة بسبب مجيء المطر، بينما السقاة يحملون المياه من الصهاريج إلى البيوت، والمزارعون يحملون الماء إلى الحقول عبر القنوات الصخرية التي تمتد تحت الأرض عبر جانب التل.

كان الجو في اليوم التالي غائماً أكثر من سابقه، والسماء تبشر بالمطر طيلة الوقت، وقد أمطرت بالفعل في منتصف النهار، لم يكن مطراً غزيراً، ولكنه اضطر بارسينو للعودة بالأغنام قبل نهاية اليوم، خشية أن يهطل

المطر بغزارة وتظلم السماء فتهرب منه الأغنام ويحدث ما لا يحمد عقباه.  
في المساء راحت السماء تبرق وترعد، والرياح تعوي فتصفع النوافذ واللافتات، وجعلت الجميع يهربون من الشوارع الباردة المبتلة إلى البيوت الدافئة الجافة، وعملت المدافع بكل طاقتها، وتصاعد الدخان من المدافع ليصنع غيمة كثيفة فوق القرية تنافس السحب الداكنة في الأفق.  
استيقظ في الصباح وهبط إلى الطابق السفلي وهو يفرك عينيه طارداً النعاس، فوجد جدته تصرم نيران المدفأة بتحريك الجمرات بمذكي النيران. انتقل بصره إلى كومة الحطب، التي كانت تتناقص باستمرار طيلة هذه الأيام. لا يزال معهم ما يكفيهم لبضعة أيام أخرى، ولكنه يعرف أنه سيكون عليهم شراء بعض الحطب من الحطاب العجوز قريباً.

قال لجدته: «صباح الخير يا جدتي».

فالتفتت إليه جدته وابتسمت قائلة: «صبحتك الشمس بكل خير يا باري».

أحاط جسده بذراعيه وهو يقترب من المدفأة، ثم قال: «الطقس اليوم لا يشجع على العمل».

قالت جدته بحنان: «ربما يمكنك أن تستريح اليوم من العمل».

هز رأسه وقال: «لا أستطيع، سيغضب السيد نيربو، يكفي أنني لم أذهب بأغنامه للمرعى قبل بضعة أيام. أخشى أن يبحث عن راع غيري، وهو الوحيد في القرية الذي يسمح لي بأخذ أغنامه إلى المرعى».  
بدا الأسى على جدته، ولكنها لم تجد شيئاً لتقوله له، فقال محاولاً تغيير الموضوع وهو يومئ برأسه إلى كومة الحطب بجانب المدفأة: «سنحتاج إلى بعض الحطب قريباً».

قالت له مبتسمة: «لا تقلق، يعرف الحطاب من يحتاج الحطب، ويأتي إليه في الوقت المناسب».

أوماً برأسه في صمت، ثم تناول فطوره الذي أعدته جدته، بعضاً من جبن الماعز، ورغيفاً من خبز الذرة، وكوباً من الحليب الدافئ. كان هذا كافياً لمنحه بعض النشاط والحرارة لمواجهة مشاق العمل وبرودة الجو.  
قطع شوارع القرية متحسباً موضع قدميه خشية أن ينزلق في بركة من الطين لم ينتبه إليها. كانت الدرجات الصخرية مغسولة بالماء، والأطالال تلمع بفعل ما تكاثف عليها من قطرات الندى، فخيّل إليه للحظة أنها تنبض بالحياة. كان الهواء مشبعاً برائحة المطر، فأخذ نفساً عميقاً ملاً رئتيه بهواء الصباح البارد، ثم زفر فتصاعد البخار من فمه.

عند أحد المنعطفات المؤدية إلى بيت السيد نيربو شاهد أكيانو واقفاً بجانب أحد البيوت متكئاً بظهره إلى سوره. اتسعت عينا بارسينو في دهشة ثم صاح: «أكيانو! ما الذي تفعله هنا؟»  
أسرع صديقه إليه وهو يقول: «كنت في انتظارك».

قال بارسينو في ريبة: «في مثل هذا الصباح الباكر؟ ولم لم تذهب إلى عملك؟».

تمطى أكيانو وهو يقول: «منذ هطول المطر ونحن نعمل بجهد لنقل الماء عبر القنوات، وتوزيعه على الحقول المختلفة، لقد كان هناك الكثير من العمل لذا لم أجد وقتاً لمقابلتك. لقد افتقدتني، أليس كذلك؟ هيا، فلتعترف بهذا».

ضحك بارسينو وقال: «بل بالأحرى استرحت منك قليلاً». ثم اكتست ملامحه بالجدية وقال: «ولكن صدقاً، ما الذي تفعله في مثل هذا الصباح البارد؟».

وضع أكيانو يده على كتفه وقال: «هل نسيت ما تحدثنا بشأنه قبل بضعة أيام؟».

قال بارسينو بحيرة: «أي شيء تقصد؟ إن فمك الثرثار لا يكف عن الحديث».

وكزه أكيانو بمرفقه وقال: «ألم تكن راغباً في تفتيش بيت الحطاب؟».

اتسعت عينا بارسينو في دهشة، ثم قال بصوت هامس رغم أنه لم يكن هناك من هو على مقربة منهما لاستراق السمع: «أجل، ولكنني ظننت أنك غير متحمس للفكرة...».

هز أكيانو كتفيه وقال: «لقد أخبرتك فقط أن تنتظر بضعة أيام. الحقيقة أن ما قلته عن الحوار الذي دار ما بين العمدة وحاجبه قد أثار فضولي كثيراً، وإن كان الخطاب يعرف الإجابة فأنا أرغب حقاً في معرفتها». ثم نظر ناحية السماء وقال: «هذا هو الوقت الأنسب، فبعد هذا الهطول الغزير للمطر لن يخرج الكثير من الناس من بيوتهم في مثل هذا الصباح الباكر، ولن يلاحظنا أحد ونحن متوجهان إلى بيته».

قال بارسينو متردداً: «ولكن ماذا لو كان الخطاب لا يزال في البيت؟». ابتسم أكيانو ابتسامة عريضة وقال: «لقد شاهدته بنفسه بصحبة كلبه وفأسه وسلته الخوصية متوجهاً نحو الغابة هذا الصباح».

قال بارسينو في حماس: «هيا بنا إذن». ثم أضاف في تردد: «ولكنني أخشى أن أتأخر عن السيد نيربو؟». قال أكيانو: «أنت من أقنعني بالفكرة والآن ترغب في التراجع؟ على أي حال لا تقلق، سنعود قبل أن يتأخر الوقت».

قال بارسينو في عدم اقتناع: «البيت على قمة التل، سنستغرق وقتاً طويلاً في الصعود إليه والهبوط مرةً أخرى، ستأخر...».

قال له أكيانو وهو يعقد ذراعيه على صدره: «إما أن نذهب الآن أو فلتنس الأمر». كان بارسينو يشعر بالفضول تجاه الخطاب حقاً، وهناك الكثير من الأسئلة التي تموج في صدره، لذا قال له: «دعنا لا نضيع وقتاً إذن».

ثم بدأ يمشي إلى جانب صديقه نحو قمة التل وقد امتلأ قلبه بالعزيمة والتصميم من جديد.

## الفصل العاشر

### البيت على قمة التل

كانت رحلة الصعود شاقة، ما بين الطرق الزلقة بفعل المطر، والدرجات الصخرية المبتلة، والأطلال المتناثرة التي أحس بارسينو وكأنها تراقبها وتعرف نيتها. تجاهل هذه الأفكار وهو يصب تركيزه على صعود جانب التل، حتى لاحظ له القمة من بعيد، ومن وراء بعض الأعمدة المتداعية والأسوار المتهدمة استطاع أخيراً أن يريا بيت الحطّاب.

نظر بارسينو إلى المدخنة فأدرك أن المدفأة لا تزال مشتعلة، ولكنه نحى قلقه جانباً. لا شك أن الحطّاب العجوز يترك المدفأة تعمل طيلة الوقت، الكثير من الناس يفعلون هذا في القرية، إن لم يكن جميعهم، لسبب ما.

وقف الشابان ينظران إلى البيت والرياح تجذب ملابسها الثقيلة. بدا البيت مهيباً على قمة التل، فتجمدا في موضعها للحظاتٍ طويلة، ثم بدأ أكينو يمشي ببطء مقرباً منه، فلاحق به بارسينو وهو يتلفت حوله في حذر. وقفا أمام الباب، ثم مد بارسينو يده وحاول دفعه، قبل أن يعقد حاجبيه ويقول: «إنه موصد».

نظر إليه أكينو وقال بسخرية: «هل كنت تتوقع أن يترك بابه مفتوحاً؟». ثم بدأ يمشي ناحية جانب البيت وهو يقول: «دعنا نرى إن كان هناك نافذة خلفية يمكننا أن نفتحها».

دارا حول البيت، فوجد بارسينو نفسه في مواجهة حافة قمة التل، الجانب الأكثر انحداراً الذي لم يشاهده عن قرب من قبل، فوجد قدميه تأخذانه نحو حافة التل. ناداه أكينو من ورائه: «مهلاً، ماذا تفعل؟». ولكنه لم يصغ إليه وواصل السير نحو الحافة.

ثم تجمد في موضعه عندما رأى المشهد على الجانب الآخر، غابة الظلال ممتدة حتى الأفق البعيد، لا يرى شيئاً سوى الأشجار متتالية ومتلاحقة في تنوع من اللونين الأخضر والبني بدرجاتها التي لا تحصى. في تلك اللحظة تلاشى من قلبه كل شك في أن الغابة هي آخر حدود العالم ولا شيء وراءها.

ظل يحدق إلى هذا المشهد مشدوهاً، ولم يشعر باقتراب أكينو من ورائه وهو يقول له: «عليك أن تحترس فهذا...». ولكن صديقه بتر جملته وهو يشهق، ثم راح يحدق مثله بعينين مبهورتين.

قال له بارسينو: «لا يُصدّق، أليس كذلك؟».

أوماً أكينو برأسه، وكانت هذه هي إجابته الوحيدة، فلم يقدر على النطق، ولكن بعد بضع لحظات انتزع نفسه من ذهوله وهو يقول: «تذكر أنه لا وقت لدينا لنضيعه». ثم أجبر قدميه على الحركة وعاد إلى حيث النافذة في مؤخرة البيت.

ظل بارسينو يحدق إلى المشهد لبضع لحظات، ثم راح يدور حول نفسه وهو يتأمل بانبهار الغابة التي تطوق التل، قبل أن يتجمد في موضعه وقد لفت انتباهه شيء غريب لم يلاحظه من قبل ولا يعتقد أن أحداً سيلاحظه إلا إن صعد إلى قمة التل؛ بعيداً في الغابة رأى أن هناك شجرة يزيد ارتفاعها عن الأشجار الأخرى، وتبدو سميكة بشكل لا يصدق، حتى إن الأشجار العملاقة بجوارها تكاد أن تبدو أشجاراً طبيعية.

سمع صديقه يصيح من ورائه: «لا فائدة، النافذة موصدة».

نظر إليه فوجده ممسكًا بمقبض النافذة وهو يحاول دفعه للأعلى.  
ألقى بارسينو نظرة أخيرة ناحية الشجرة البعيدة، ثم اقترب من صديقه فوجده يحاول رفع النافذة بقوة أكبر، وقد نفرت عروق عنقه، وبدأت حبيبات العرق تتكاثف على جبينه. بدا المشهد متجمدًا لبضع ثوانٍ، ثم تعالا صوت تصدع وتشقق، قبل أن تنفتح النافذة بقوة.  
صاح أكينو فرحًا: «فعلتها!».

نظر بارسينو عبر النافذة المفتوحة بريبة وتوجس، ولكن صديقه لم يبدُ مبالياً كثيراً، فقد دفع بجسده العريض عبر فتحة النافذة وقفز إلى داخل البيت، ثم راح يشير إليه كي يلحق به.  
قال له بارسينو: «إن كان ساحراً حقاً فسيصنع منا حساء ضفادع».  
فهقه أكينو وقال ضاحكاً: «لا تقل لي إنك تصدق حكايات العجائز هذه يا باري».  
قال بارسينو: «أليس هذا ما جئنا للتحقق منه؟». ثم دفع بجسده النحيل من فوق إطار النافذة وقفز إلى الداخل. قبل أن يهمس لنفسه: «لم يعد هناك مجال للتراجع».

على ضوء الشمس المتسلل من النافذة تفحص الحجرة، بدا البيت بسيطاً، ولكنه يفتقر إلى التنظيم، أشياء كثيرة ملقاة بإهمال في أماكن عديدة، وملابس تحتاج إلى التنظيف والطي. أحس بارسينو بالرهبة وهو يقف في الحجرة، ولكن أكينو قال: «لا شيء يستحق التعليق عليه حتى الآن».

ثم اقترب من الباب المغلق في آخر الحجرة وأدار المقبض بيده، فانفتح الباب الذي يؤدي إلى ردهة البيت. كانت النيران تطلق في المدفأة، وعلى ضوء النيران رأى منضدة قديمة، وبضع كراسي تبدو متهالكة وكومات من أشياء أخرى تقليدية رغم كونها فوضوية. عقد بارسينو حاجبيه وقال بخيبة أمل: «لا شيء فوق العادة هنا أيضاً، ربما تسرعنا في الحكم على الرجل. لم يكن هذا ما توقعته على الإطلاق».  
قال أكينو: «نحن لم نبدأ البحث بعد».

قال بارسينو وهو يهز كتفيه: «لا، أقصد أن البيت يبدو تقليدياً للغاية».  
قال أكينو وهو يقلب بين الأشياء الفوضوية المختلفة في ردهة البيت: «سيكون علينا إصدار الحكم بعد الانتهاء من تفتيش البيت».

قال بارسينو وهو يتلفت حوله: «لا أرى شيئاً ذا أهمية».  
قال أكينو وهو يتوجه نحو بابٍ مغلق في الردهة: «لم نتفحص هذه الحجرة بعد». ثم أدار مقبض الباب ودفعه لينفتح بالفعل.

نظر بارسينو ناحية باب البيت وكأنها يشعر أن الحطاب أوركين سيعود في أي لحظة ويمسك بهما متلبسين بجريمتها، ولكن فضوله غلبه فلحق بصديقه إلى داخل الحجرة.

كانت فوضوية كبقية البيت، فراش غير مرتب، وملابس متناثرة هنا وهناك، بساط صغير على الأرض على الأرجح لكي ينام عليه الكلب، و... شيء ما في ركن الحجرة جذب انتباهه، فاقترب منه ليتبينه على ضوء المدفأة القادم عبر الباب، كان أمامه ما يبدو وكأنه... كومة من الكتب.

جاء صديقه من ورائه وهو يقول: «ما الأمر؟».

أمسك بارسينو بكتاب صغير للغاية بحجم كف يده تقريباً ومسح الغبار من عليه، ثم قال في دهشة: «من كان يظن أن الحطاب العجوز يجيد القراءة؟». طيلة حياته يعتقد أن هذا قاصر على العمدة أمريد، وربما حاجبه، وصاحب الحانة، ولكن أن يجيد الحطاب القراءة... بل أن يحتفظ بهذه الكتب التي لم يرَ مثلها من قبل...

كان الغلاف مصممًا وليس مزخرفًا كالكتاب الضخم الذي يخرج العمدة في الاحتفالات، وببطء فتح الغلاف ليتصفح صفحات الكتاب الصفراء العتيقة. كانت الصفحات تحمل رموزًا عجيبة لم يستطع تفسيرها، فهو لم يتعلم القراءة، ولكنها بدت له مألوفة بطريقة ما، رغم أنها لا تشبه الأحرف الأخرى التي يراها أحيانًا ولا يستطيع فهمها...

وفجأة تجمدت الفكرة في عقله، لقد أدرك لم بدت له الرموز في تلك الكتب مألوفة... إنها نفس الرموز الغامضة الموجودة على الأعمدة المتداعية والمباني المتهدمة... الرموز العجيبة على الأطلال... ألقى بالكتاب مرةً أخرى على الكومة كأنها لدغته أفعى وهو يقول: «يجب أن نذهب من هنا على الفور». عقد أكينو حاجبيه وقال: «ماذا دهالك يا رجل؟ ماذا الذي وجدته في هذا الكتاب؟».

قال بارسينو محققًا إلى الكتاب: «لا أعرف!».

قال في شك: «لا تعرف؟ لم أصبت بهذا الفزع إذن؟».

قال بارسينو وهو يشير إلى الكتاب بإصبع مرتجفة: «ألم تتعرف على الرموز في هذا الكتاب؟».

قال أكينو وهو يحك صدغه: «الآن وقد قلت هذا فإنها تبدو مألوفة بطريقة ما».

نظر إليه بارسينو وقال: «إنها نفس الرموز على الأطلال!».

اتسعت عيناه، ثم قال في حيرة: «ولكن ما علاقة أوركين العجوز بالأطلال؟ ما الذي يعنيه هذا بالضبط؟».

قال بارسينو وقد تمالك رباطة جأشه قليلًا: «إنه يعني أننا محققان، وأن هذا الخطاب العجوز يخفي شيئًا ما». ثم نظر ناحية الكتاب وهو يقول: «السؤال الآن هو ما الذي يخفيه بالضبط؟».

انتابه شعور بالانجذاب ناحية الكتاب، فمد يده وأمسك به من جديد، ثم وضعه في جيب صدره تحت معطفه، فسأله أكينو: «فيم تفكر؟».

قال له بارسينو: «سأحتفظ بهذا الكتاب الصغير».

قال له أكينو: «لا يعجبني هذا، لم نتفق على أخذ شيء من البيت. إن عرف الخطاب...».

قال بارسينو باقتضاب: «فلنصل للشمس إذن ألا يعرف».

ثم بدأ يسير نحو باب الحجرة في عجلة وهو يقول: «يجب أن نخرج من هنا».

وافقه صديقه للمرة الأولى وهما يسرعان نحو النافذة. قفز بارسينو بخفة خارجًا منها، ولحق به أكينو، الذي أغلق النافذة وراءه، ولكن المفصل المكسور كان واضحًا.

ضحك في توتر وهو يقول: «فلنأمل ألا يلاحظ هذا أيضًا». ثم نظر إلى آثار أقدامهما في الطين المحيط بالبيت وقال: «سيعرف أن شخصًا ما قد اقتحم بيته بالتأكيد، ولكن على الأرجح لن يعرف من هو على وجه التحديد».

ولكن بارسينو لم يكن ينصت إليه، بل كان واقفًا عند المنحدر، ينظر مرةً أخرى إلى مشهد غابة الظلال المهيب، ثم بدأ يمشي بخطوات مسرعة، مبتعدًا عن البيت، وهابطًا جانب التل.

## الفصل الحادي عشر

### الأمهق

وقف بارسينو أمام عيني السيد نيربو الغاضبتين، ورغم أن الرجل أقصر منه قامته، إلا أنه راح يلوح بذراعيه وهو يصرخ في غضب: «تجيئي بعدما اعتلت الشمس كبد السماء، وتجاوز الوقت الظهيرة، وتسالني عن غنمي؟».

لم يجد بارسينو شيئاً ليقوله، فاكتفى بأن أطرق برأسه بينما الرجل يقول: «وقبل بضعة أيام تحتفي ولا تريني وجهك نهراً كاملاً، وتترك قطيعي يتضور جوعاً؟».

قال له بارسينو في حرج: «كنت قد تعثرت، قلت لك هذا...».

قاطعته نيربو في حدة قائلاً: «واليوم؟ ماذا عن اليوم؟ أين كنت؟».

انعقد لسان بارسينو، لا يمكنه أن يقول لأحد شيئاً عما فعله عند قمة التل.

ساد الصمت لبضع لحظات قبل أن يقول نيربو: «لقد كنت مثلاً للعمل الجاد رغم ما يقوله قاطنو القرية عنك، ولكنك خيبت أمني...».

رفع بارسينو بصره بعينين تتقدين بالغضب، وصارت قسما وجهه الأبيض صارمة، مما جعل نيربو يبتز جملته وبدا كأن غضبه قد انطفأ كالماء أمام الغضب المشتعل في عيني بارسينو، وبدا نيربو ضئيلاً أمامه مرة أخرى.

قال بارسينو في غضب حاد: «ماذا يقولون عني؟».

قال نيربو في حدة: «أنت تعرف ماذا يقولون».

قال بارسينو وهو يجز على أسنانه: «يقولون إنني ملعون؟ ولدت من غير مباركة الشمس؟ هذا الأمهق الذي لا يأتي منه خير، أليس كذلك؟».

بدا على نيربو المفاجأة من رد فعله فقال: «فلتهداً يا فتى، سأسامحك اليوم على تأخيرك، وسأتركك تأخذ القطيع إلى المرعى، ولكن...».

صاح بارسينو: «فلتتهمك الظلال أنت وقطيعك، وقريتكم كلها! ألا لعنة الأفلاك عليكم!».

حذق إليه نيربو مصعوقاً، وشاهده وهو يتعد في عدم تصديق حتى اختفى عن ناظره.

كان بارسينو يشعر بقبضة ألم تعتصر قلبه، تلاشى الغضب بالتدرج، ولكن الحزن كان يحل محله، وما إن تلاشت غمامة الغضب السوداء التي تحجب عقله حتى أدرك أنه قد خسر مصدر رزقه الوحيد.

قرر أن يؤجل عودته إلى البيت قدر المستطاع، ولكن أين يذهب؟ فكر في أن يذهب إلى أكينو ويحكي له ما حدث، ولكن صديقه سيلوم نفسه، فهو من شجعه على الذهاب إلى بيت الخطّاب.

جعلته التفكير في الخطّاب يقول لنفسه: لم لا أعمل خطّاباً؟ الناس يخافون الخطّاب ولكنهم يحتاجون إليه لذا هم مجبرون على احترامه، ولكن... كيف يقطع الخطّاب تلك الأشجار الضخمة؟

هل يمكن أن يساعده الخطّاب؟ بعد ما فعله؟ ولكن كيف سيعرف الخطّاب العجوز أنه من فعلها؟

وفجأة تحسس موضع قلبه حيث يضع الكتاب الذي سرقه من بيت الخطّاب. سرقه؟ كان وقع الكلمة ثقياً على قلبه، لم يفكر في الأمر هكذا عندما فعل فعلته، ولكن... هل كان الأمر يستحق كل هذا العناء؟

هز رأسه لطرده الأسئلة منه، ولكن الأفكار راحت تحاصره وتضييق عليه الخناق. سيكتشف الحطاب أمرك، ويعرف بفعلتك، وستقع في مأزق كبير. هز رأسه وقال لنفسه: لا، لن يعرف، مستحيل أن يعرف أنه أنا من فعلها. ولكن هذا الكتاب دليل ضده! هل يتخلص منه؟ تلفت حوله كأنها يشعر أن هناك من يراقبه، ويعرف ما يدور في أسه من أفكار، ولكن لم يكن هناك أحد من حوله.

أسرع الخطى كأنها يهرب من عدو مجهول. ظل يهيم على وجهه بلا تفكير، يمر ما بين البيوت والأطلال دون أن يلتفت إلى أي منها، شاردًا في الأفق البعيد. وفي النهاية قرر أنه من الأفضل له أن يعود إلى البيت، ستكون مواجهة جدته أهون من مواجهة أفكاره الخاصة.

كان ينوي الكذب على جدته، وألا يخبرها بما حدث، وأن يؤجل المواجهة قدر الإمكان، ولكن ما إن رآته جدته يعود إلى البيت مبكرًا، والوجوم مخيم على ملامحه، حتى سألته في جزع: «ماذا حدث يا باري؟». أشاح بوجهه وقال: «لم يحدث شيء».

أحس قلب الجدة باضطراب حفيدها، فقالت: «أقسمت عليك بالشمس وضيائها أن تخبرني بما حدث».

زفر بحرارة، ثم قال لها وهو يتحاشى النظر إلى عينيها: «تركت العمل لدى نيربو».

نظرت إليه أوريتا في عدم تصديق، ثم قالت: «كيف؟ ولماذا؟».

تردد بارسينو ثم قال: «تأخرت في الذهاب إليه فوبخني، وقال كلامًا أغضبني».

قالت: «وما الذي جعلك تتأخر عليه؟».

طال تردده هذه المرة، ثم قال: «ذهبت مع أكينو، وتأخرنا، هذا كل شيء».

قطبت الجدة جبينها العجوز وقالت في قلق: «ذهبت مع أكينو؟ وأين ذهبت؟».

قال بحدة: «لا يهم أين ذهبت، المهم هو أنني لست عبدًا عند نيربو، وقد سئمت معاملته لي».

قالت الجدة موبخة: «قلت لك إن أكينو هذا سيوقعك في المتاعب، وقد حدث ما كنت أخشاه. أين ذهبتما؟ ماذا فعلتما؟».

قال بارسينو وهو يوليها ظهره: «لا يهم أين ذهبنا، ولا ذنب لأكينو في الأمر، كفي عن تحميله فوق طاقته».

قالت الجدة: «حسنًا، لن أضغط عليك كي تخبرني الآن، ولكن أخبرني ماذا ستفعل الآن بعدما تركت العمل لدى نيربو؟».

هز كتفيه وقال: «سأجد عملاً عند غيره».

قالت له: «ومن يقبل أن تعمل عنده؟ السيد نيربو وحده من سمح لك بأن ترعى غنمه».

قال في غضب: «سأعمل في أي شيء عدا رعي الغنم».

لمست كتفه وقالت: «وأي شيء تجيده غير رعي الغنم؟».

كاد أن يخبرها بالفكرة التي راودته عن العمل حطابًا، ولكنه لاذ بالصمت للحظات، ثم قال لها في حزن: «لا أعرف حقًا، وهذه هي المشكلة». ثم تنهد وقال لها: «لقد تعبت يا جدتي».

ضمت أوريتا رأسه إلى صدرها وراحت تمسده شعره الأبيض ثم قالت: «لا تبتئس يا بني، أنت بحاجة إلى

أن ترتاح قليلًا فحسب. لا تفكر في أمر العمل الآن. غدًا سيرسل لنا القدر الحل من تلقاء نفسه. أما الآن... فلتسترح».

أخذ بارسينو نفسًا عميقًا وهو في حضن جدته، فأحس بغضبه وحزنه ينحسران عنه، ثم قال لها: «سأصعد إلى غرفتي».

فأومات له جدته برأسها، وهي تتمنى له ليلة طيبة.  
ما إن اختلى بارسينو بنفسه حتى أخرج الكتاب من جيبه وراح يتصفحه، لم يكن قادرًا على فهم الرموز التي تملأه، أو تخمين علاقتها بالرموز الشبيهة الموجودة على الأطلال. حاول أن يجد شيئًا مميزًا أو طرف خيط، ولكن الكتاب كان مبهمًا للغاية، وفي النهاية استسلم ووضع الكتاب تحت وسادته قبل أن يخلد إلى النوم.

\*\*\*

خرج بارسينو من البيت في الصباح الباكر وهو يفكر في البحث عن عمل جديد، ولكنه لا يعرف أين يذهب. كان القلق والحيرة يموجان في صدره، والخوف من المستقبل المجهول يخيم بثقل على قلبه، ولكنه ما إن ابتعد بضع خطوات حتى وجد من يقف أمامه ويعترض طريقه. رفع بصره في حيرة، فوجد أمامه أحد حرس العمدة، بالملابس الصفراء المميزة.

سأله بارسينو في دهشة: «ما الذي تريده؟».

قال الرجل بنبرة صارمة: «العمدة أمر يدريد لقاءك».

قال بارسينو بدهشة متضاعفة: «العمدة يريد لقائي أنا؟».

قال الرجل باقتضاب: «أجل، فلتتبعني ولا تطل الحديث».

سار بارسينو وراءه في حيرة، وهو يفكر لم قد يرغب العمدة في لقائه؟ وفجأة شعر بالخوف من أن يكون هذا له علاقة باقتحامه لبيت الخطّاب، فتحسس موضع الكتاب في جيبه. إنه يخشى أن يتركه في البيت فتجده جدته وينكشف أمره، لذا كان يضعه في جيبه طيلة الوقت.

بعد سير طويل لمح بيت العمدة وراء الساحة الكبرى، فازداد اضطرابه وتسارعت نبضات قلبه. أفسح الحارسان الواقفان أمام الباب الطريق، فوجد بارسينو نفسه يدخل إلى بيت العمدة بصحبة الرجل.

كان البيت مهيبًا من الداخل، فخم الأثاث، ومُعلّق على الجدران عددًا من اللوحات التي أثارت انبهاره، ولكنه لم يكن قادرًا على التوقف لتفحص أي من هذا، والرجل يدفعه عبر الرواق حتى وقف أمام باب أدار مقبضه ليفتحه، ثم دفع به إلى الداخل قبل أن يغلق الباب وراءه.

أدرك بارسينو أنها نفس الحجرة التي التقى فيها العمدة بالخطّاب، كما أدرك على الفور أنه ليس وحده، كان هناك شخص يقف ناظرًا من النافذة ويوليه ظهره.

قال بارسينو في دهشة: «أكينو؟».

التفت إليه صديقه بوجه متجهّم، فقال له: «ما الذي جاء بك إلى هنا؟».

قال له: «جاء بي ما جاء بك، جليني أحد رجال أمر يدريد إلى هنا».

قال بارسينو في حنق: «صه يا رجل! أتقول اسم العمدة مجردًا وفي بيته؟».

تنهد أكينو ثم قال: «أحسست فقط بالضيق لجلبي بهذه الطريقة».

سأله بارسينو: «ألا تعرف لم أمر بجلبنا إلى هنا».

هز أكينو كتفيه وقال: «ليتنى أعرف».

قال له بارسينو: «أخشى أن هذا قد يكون له علاقة بما حدث في بيت الخطّاب».

عقد أكينو حاجبيه، وراح يفكر كأنها لم تخطر هذه الفكرة على باله قبل أن ينطق بها بارسينو، ثم سأله: «إن كان الأمر هكذا، فما الذي يدفعه للشك بنا نحن تحديدًا؟».

هز بارسينو كتفيه وقال: «لا أعرف، ولكن هذه الفكرة كانت تشغلني طيلة الطريق إلى هنا». سمعا صوت الباب وهو يفتح، فلاذ كلاهما بالصمت وهما ينظران إلى العمدة بينما يدلف إلى الحجرة، ويلحق به حاجبه أوثار. اعتدل كلاهما في وقفته، وراح العمدة يراقبهما بعينيه العجوزتين، اللتين تشعان بالقوة رغم كبر سنه، بينما الحاجب ينظر إليهما شامخاً بأنفه، كأنها يأنف أن يكون معها في نفس الحجرة. سار أمريد ببطء حتى جلس على كرسي وراء مكتب خشبي، بينما وقف أوثار في ركن الحجرة المظلم بعض الشيء، فلا يصله ما يكفي من ضوء الشمس المتسلل عبر النافذة.

قال العمدة مخاطباً بارسينو: «بارسينو، أليس كذلك؟ هيئتك المميزة تجعل من الصعب أن يخطئك أحد». لم يجبه بارسينو واكتفى بالنظر إليه في تحدٍ. فالتفت العمدة بعينه إلى أكينو وقال: «أكينو، صديقك المشاغب». قال أكينو ساخراً: «يشرفني تعرفك إليّ يا سيدي العمدة». تجاهل العمدة السخرية في صوته وقال وهو يلوح بيده بلا اكتراث: «لستما هنا لكي أتعرف إليكما، بل من أجل أمر آخر».

ساد الصمت للحظات وهما ينظران إليه في ترقب، بينما يشعران بعيني الحاجب من ورائهما. راح أمريد يتفحصهما لبعض الوقت قبل أن يقول: «بالأمس جاءني الخطاب أوركين...». ما إن سمع بارسينو هذه الكلمات حتى أحس بقلبه يغوص بين قدميه، وغاضت الدماء من وجهه فصار أكثر شحوباً، بينما راح أكينو يتململ بقدميه. لم يخفَ أيًا من هذا على عيني العمدة، الذي قال: «هل لديكما فكرة لماذا زارني؟».

قال أكينو بجمود: «لا نعرف يا سيدي». ابتسم العمدة وهو يقول: «يزعم أن شخصاً ما قد اقتحم بيته بالأمس». قال أكينو على الفور: «لم نكن من اقتحم بيته». مال العمدة إلى الأمام وقال: «ولم تظن أنني أتهمكما؟ أنا لم أقل هذا». قال أكينو بأكبر قدر ممكن من التهذيب: «إن لم تكن تتهمنا يا سيدي فلم جلبتنا إلى هنا؟». مال العمدة إلى الورا وقال بصرامة: «لستما هنا لطرح الأسئلة بل للإجابة عنها». قال أكينو: «كما تأمر يا سيدي». أما بارسينو فقد راح يفكر في كل أثر قد خلفاه وراءهما في بيت الخطاب بحثاً عن أي شيء قد يشير إليهما.

قال أمريد: «أخبرني أحد رجالي أنه رآكما متوجهين نحو قمة التل بالأمس صباحاً بعدما غادر الخطاب بيته، كما أنه شاهدكما بعد ساعة تقريباً تعودان مهرولين من هناك، لا أعتقد أن هناك الكثيرين ممن يتوجهون إلى قمة التل سوى الخطاب أوركين نفسه».

أدرك بارسينو أن العمدة لم يكتفِ بمراقبة الخطاب وحده، بل كان يراقب بيته أيضاً. لام نفسه وهو يفكر أن هذا ما حذره منه أكينو. ولكن مجيء الخطاب إلى العمدة يعني أنه يشك أن أمريد هو من اقتحم بيته، أو بالأحرى أحد رجاله، ولهذا جاء إلى العمدة مباشرةً لمواجهته. هل زادت فعلتهما من الطين بلة، وعمقت الشقاق بين العمدة والخطاب؟

قاطع العمدة أفكاره وهو يقول بصرامة: «لا تحاولوا الكذب، فأنا متيقن أنكما من اقتحم بيته». لاذ كلاهما بالصمت، وكانت الأفكار تدور في عقليهما، حتى خيل لكل منهما أن أفكاره لها صوت مسموع كأزيز المرجل، وتكاثفت قطرات العرق على جبينيها رغم برودة الجو.

ظل العمدة محققاً إلهما بنظراته، وهو يمسد لحيته الشهباء بأصابعه، ثم قال لهما: «ما السبب الذي دفعكما لفعل هذا؟ لا أحد في القرية قد تجرأ على هذه الفعلة سواكما، فهم يخشون الخطّاب، ويؤسفني القول إنهم ربما يخشونه قدر خشيتهم مني شخصياً». ثم أضاف وهو ينظر وراءهما: «هل يمكنك تصديق هذا يا أوثار؟». سمعا صوت الحاجب من ورائهما وهو يقول: «هذا مؤسف يا سيدي، ربما يحتاج الناس لتذكيرهم بقدر العمدة».

قال العمدة وهو يلوح بإصبعه: «بل يحتاجون لوضع الخطّاب في مكانه المناسب، وليس هذه المكانة الأسطورية. فهو خطّاب لا أكثر ولا أقل».

تساءل بارسينو في قرارة نفسه: أي مكانة أسطورية يتحدث عنها؟ ولكن العمدة لم يمهل له كي يستطرد في فكرته فقد قال بلهجة أمرّة وهو يشير إلى كرسيين آخرين أمام مكتبه: «فالتجلسا».

لم يصدق بارسينو ما سمعته أذناه، شاهد صديقه يجلس ببطء، ففعل مثله، ثم سمع العمدة يقول: «الجو باردٌ، فلتجلب لهما بعض الشاي الساخن يا أوثار».

سمعا صوت خطوات أقدام من خلفهما، وصوت فتح الباب قبل أن يُغلق مرة أخرى. ساد الصمت للحظات والعمدة ينظر إلى ما خارج النافذة، ثم التفت إليهما وقال: «أيمكن أن أعهد إليكما بسر؟».

أوماً بارسينو برأسه في تردد، بينما قال أكينو في ريبة: «بالتأكيد يا سيدي، هذا شرف لنا». مال العمدة للأمام وقال: «العجوز أوركين يخطط لشيء ما ليضر بالقرية، وهذا لا يعجبني». هنا تحدث بارسينو للمرة الأولى منذ مجيئه إلى مكتب العمدة قائلاً: «ما هو هذا الشيء يا سيدي؟». التفت العمدة إليه وقال: «لا أعرف، ولكنه حدس عندي. لقد ألمح الخطّاب لي أنه يريد رحيل الناس عن القرية، هل تصدقان هذا؟».

قال أركينو بنبرة جامدة: «لا، لا أصدقه». بينما قال بارسينو كأنما يكلم نفسه: «لا يوجد شيء وراء غابة الظلال». التفت إليه أمريد وقال: «ومن أخبرك أنه يريد الرحيل إلى ما وراء الغابة؟». قال بارسينو متردداً، وهو يخشى أن يدرك العمدة أنه قد اختلس السمع لحديثهما: «لا يوجد شيء سوى القرية والغابة، فإن كان يريد الرحيل عن القرية، فهو إما للغابة نفسها، أو أنه يظن أن هناك ما هو وراء الغابة».

تدخل أكينو على الفور لإنقاذ صديقه من هذا المأزق بأن قال: «ولكن السؤال يا سيدي، لماذا يريد هذا الرحيل؟».

قال أمريد بحزم: «لا يهم لماذا، فهذه الفكرة مجنونة أيّاً كان الدافع، فلا يوجد شيء وراء غابة الظلال كما قال صديقك، لن يحدث شيء سوى أن يضل الناس طريقهم ويموتون جوعاً وعطشاً، أو يفترسهم شيء من الأخطار الكامنة في غابة الظلال».

في تلك اللحظة دخل أوثار الحجرة، وراءه خادم يحمل صحيفة عليها كوبان من الشاي، وضعها على المكتب أمامهما. مد أكينو يده أولاً، وتبعه بارسينو، الذي ارتشف رشفة من الشاي على الفور، فأحس بحرارته تطرد البرودة من جسده.

قال العمدة: «أنا لذي أسبابي لكيلا أثق في الخطّاب، ولكن ما دافعكما أنتما لاقتحام بيته».

أحس بارسينو أنه يجرحها جرًّا للاعتراف بفعلتها، ولم يرغب في الإجابة، أما أكيينو فقد قال: «ما نسمعه من حكايات عن الحطّاب في القرية، هذا أثار فضولنا تجاهه فحسب، وأردنا أن نتيقن بأنفسنا من حقيقة هذه الشائعات».

أحس بارسينو بالامتنان لحصافة صديقه في إخفاء الدوافع الحقيقية. قال العمدة في نفاذ صبر: «ما يقلقنا بشأنه ليس ما يتداوله عنه عجائز القرية، بل الدافع الخفي وراء رغبته في حث الناس على الرحيل عن جانب التل».

تبادل بارسينو وصديقه النظر، ثم التفتا إلى العمدة، ولم يجد أيًّا منهما ما يقوله، فسألها أمريد: «هل وجدتما أي شيء مثير للاهتمام داخل بيت أوركين؟».

أجابه أكيينو في جمود: «لم نجد شيئًا سوى بيت معتاد طالته يده الإهمال». أما بارسينو فقد شعر بالكتاب في جيبه، كأنها هو ثعبان على وشك أن يلدغه، ولكنه قال: «هذا صحيح، لم نجد شيئًا مريبًا».

حدجها العمدة بنظره وهو يقول: «هكذا إذن؟». أوماً بارسينو برأسه وهو يزدرد لعابه، فقال لهما العمدة: «حسنًا، قد لا يخفي في بيته شيئًا، ولكن هذا لا يعني أنه لا يضم في قلبه شيئًا مهمتكما الآن إن عرفتما شيئًا يخص الحطّاب أو تحريضه للقرية فعليكما أن تخبراني على الفور».

قال له أكيينو: «لماذا نحن؟». قال أمريد وهو يمسد لحيته: «ماذا تقصد؟».

قال بارسينو: «أنك تعهد لنا بمهمة عظيمة، ماذا لو نقلنا ما دار بيننا للحطّاب؟ ماذا لو قلناه للناس؟». نظر إليه أكيينو في ضيق، فأدرك بارسينو أنه قد تسرع في حديثه، أما العمدة فقد حدج به بنظره باهتمام ثم قال له: «حينها سأقول للناس إنك كاذب، ومن سيصدق الناس حينها؟ عمدتهم؟ أم طفل اللعنة؟».

احتقن وجه بارسينو الأبيض بالدماء فصار وردّيًّا، ولكن العمدة ابتسم وقال: «لست أنا من أقول هذا، ولكنهم قاطنو القرية. أعترف أن ظروف مولدك كانت غريبة، ولكني لا أصدق مثل هذه الخرافات التي روجها من البداية الحطّاب وأمثاله. ولكن أنا وحدي من يمكنني رفع هذه الوصمة عنك، أنا من يمكنني أن أصطفيك من بين الناس فلا ينظرون إليك إلا بإعجاب، فينسبون لون وجهك وشعرك. بكلماتي ستباركك الشمس بعد أن ظللت في نظر الناس محرومًا من بركتها طيلة حياتك».

تساءل بارسينو عما يعنيه العمدة بأن الحطّاب وأمثاله هم من روجوا تلك الخرافات، ولكنه قال في كبرياء: «لا يهمني ما يقوله الناس عني».

قال العمدة بحزم: «بل يهملك كثيرًا، وإلا لما انفعلت هكذا. تذكر كلماتي جيدًا أيها الشاب، والآن يمكنك الانصراف أنت وصديقك».

اعتدل بارسينو واقفًا على الفور، دون أن يخفت احتقان وجهه، فوقف أكيينو بدوره، ومن ورائهما سمعا صوت الحاجب يقول: «من هنا أيها السيدان».

شاهدهما أمريد وهما يخرجان بصحبة حاجبه، وما إن صار وحده حتى غرق في أفكاره الخاصة. لم تمض دقائق معدودة حتى عاد أوثار بمفرده، لم يبدُ على العمدة أنه قد لاحظ عودته، حتى تنحج أوثار، فقال له العمدة: «هات ما عندك».

تردد أوثار قليلاً، ثم قال له: «المعذرة يا سيدي، لا أقصد التشكيك في حكمتك، ولكن لم تثق في هذين الشابين؟ أعني واحد منهما هو الأمهق الذي ينبذه الجميع عدا صديقه هذا».

قال العمدة وهو يطرق بإصبعه على سطح المكتب الخشبي: «أنا أراهن على أن ولاءهما للقرية وعمدتها يفوق ولاءهما لأي شخص آخر، سينفعا أن يكون هناك شخصٌ آخر غير رجالي قادر على مراقبة الخطّاب ومعرفة تحركاته ومخططاته، هذا إن قادهما فضولهما إلى معرفة شيء».

قال له أوثار متسائلاً: «ولكن يا سيدي... ماذا لو انضما إلى الخطّاب، وخصوصاً بارسينو هذا، إنه واحد منهم، حتى لو لم يعرف هذا بعد».

ابتسم العمدة وهو يقول: «حينها سيكون من مصلحتنا أن يكون طفل اللعنة في كفة الخطّاب حين يكشر عن أنيابه، فسيعرف الناس وقتئذ أي كفة يختارون، وصدقتي ستكون كفتنا هي الرابحة».

نظر إليه أوثار في دهشة، ثم ابتسم بدوره، واتسعت ابتسامته.

\*\*\*

ما إن ابتعد بارسينو بصحبة صديقه عن بيت العمدة حتى قال متسائلاً: «ما رأيك فيما قاله العمدة؟».

قال أكينو في وجوم: «الأمر برمته لا يربحني».

تنهد بارسينو ثم قال: «خشيت للحظة أنه سيعاقبنا على تسللنا إلى بيت الخطّاب، ولكنه فاجأني بما قاله».

قال له أكينو في شروء: «هذا شيء لا يطمئنني أيضاً، لم قد يثق العمدة فينا؟ ألا يقدر على إرسال بعض من رجاله لتفتيش بيت الخطّاب أثناء وجوده في الغابة؟ الأمر كله مثير للريبة».

حينها كانا ينعطفان بجانب بعض الأطلال، فتأملها بارسينو بعينه الزرقاوين، بينما جملة واحدة تتردد في عقله: الخرافات التي روجها من البداية الخطّاب وأمثاله.

قال بارسينو: «إنه والخطّاب يلعبان لعبة ما لا نقدر على فهمها».

سأله أكينو: «ما الذي تنوي فعله؟».

هز بارسينو رأسه وقال: «صدقاً لا أعرف».

هز أكينو كتفيه وقال: «سيكون علينا مجاراة السيد أمر يد حتى نعرف ما الذي يريده. كل ما يريده هو أن نخبره بكل شيء نعرفه عن الخطّاب، ونحن لا نعرف شيئاً حتى الآن».

تحسس بارسينو موضع الكتاب ولكنه لم يقل شيئاً.

تنهد أكينو ثم قال: «على أي حال، سأذهب إلى الحقول، سيوبخني السيد أسيمار على تأخري. وأنت هل ستذهب إلى نيربو؟».

لاذ بارسينو بالصمت لبضع لحظات، وهو يفكر هل عليه أن يخبر صديقه أم لا، ثم قال أخيراً: «لقد تركت العمل لدى السيد نيربو».

نظر إليه أكينو بدهشة وهو يصيح: «لماذا بحق الشمس؟».

قص عليه بارسينو ما حدث في جمل مقتضبة، فقال أكينو في غيظ: «يا له من وغد!». ثم ربت على كتف صديقه وقال: «ما رأيك أن تأتي للعمل معي في الحقول؟».

هز بارسينو رأسه وقال: «لم أعمل في الزراعة من قبل، ولا يبدو أن السيد أسيمار يحبني كثيراً، لذا لا أعتقد أنه سيقبل أن أعمل لديه».

تهدل كتفا أكينو وهو يسأله: «ماذا ستفعل إذن؟».

صمت بارسينو وهو يفكر في الأمر، ثم قال: «أفكر في أن أعمل خطابًا». اتسعت عينا أكيانو وصاح: «هل جنتت يا بارسينو؟ هذا مستحيل». قال بارسينو: «لماذا؟».

نظر إليه صديقه في عدم تصديق، ثم قال له: «لأن من يذهب إلى غابة الظلال لا يعود، أنت تعرف هذا جيدًا».

قال له بارسينو: «ولكن الخطاب يقدر على الذهاب، وقلت إنه كان هناك خطابون آخرون في الماضي، فلم لا أصير خطابًا؟».

قال أكيانو في عدم تصديق: «أنت؟ خطاب؟ أي ظلال لعينة تعبت في عقلك يا فتى؟».

قال له بارسينو بنبرة دفاعية: «نحن نرغب بالفعل في اكتشاف أسرار الخطاب، ربما يمكنني إقناعه بأن يجعلني مساعدًا له أو شيء من هذا القبيل».

قال أكيانو ساخرًا: «كان عليك التفكير في هذا الأمر قبل اقتحام بيته».

قال بارسينو في تصميم: «لم يعرف أننا من فعلها. كما أننا اقتحمنا بيته لمعرفة أسرارها ولم نكتشف الكثير، ربما إن اقتربت منه يمكننا أن نعرف شيئًا».

قال أكيانو في إصرار: «وما الذي سيقوله العمدة إن عرف أنك صرت مساعدًا للخطاب؟».

قال له بارسينو على الفور: «سأقول له حينها إنني أريد أن أكون بالقرب منه لكي أراقبه، لكي أعرف أي شيء ماكر يدبره للقرية، أليس هذا ما يريده العمدة؟».

ظهر التردد على وجه أكيانو، ثم قال: «لا أعرف، ربما، يبدو سببًا معقولًا». ثم عقد حاجبيه وهو يقول: «ولكن ليس المهم ما ستقوله للعمدة، المهم هو ما الذي تريده حقًا؟».

نظر بارسينو إلى صديقه وقال: «هل ستصدقني إن قلت لك إنني لا أدري؟».

تنهد أكيانو ثم قال: «سأصدقك، فأنت أكثر تعقيدًا من أشجار الغابة اللعينة المتشابكة».

ابتسم بارسينو لمزحة صديقه ثم قال: «على أي حال قد لا يقبل الخطاب أن يجعلني مساعدًا له، وحينها لا أعرف ما سأفعل».

مط أكيانو ظهره ثم قال له: «سنرى حينها. على أي حال، سأذهب الآن إلى العمل، ولكن دعنا نلتقي آخر النهار في الحانة لمناقشة فكرتك المجنونة هذه».

قال له بارسينو: «ما زلت مصرًا على أن أذهب معك إلى الحانة بعد ما حدث؟».

قال له أكيانو: «هل نسيت أن الخطاب قد حذر طابيو من منعك من الذهاب إلى الحانة؟ يجب أن تطرق على الحديد وهو ساخن».

نظر بارسينو نحو الأفق وقال: «ولكن القمر قد تناقص كثيرًا، لا يعجبني السهر في هذه الأيام».

قال أكيانو بمرح: «ما زال أمامنا بضعة أيام قبل أن يصير القمر محاقًا، كما أننا لن نسهر كثيرًا، اتفقنا؟».

فكر بارسينو في الأمر، ثم أومأ برأسه وقال: «اتفقنا».

افترق الصديقان عند بوابة القرية، فتوجه أكيانو إلى المزارع، بينما سار بارسينو على غير هدى، لا يعرف أين يذهب. كان يمشي بمحاذاة السور، ومن آنٍ لآخر ينظر إليه أحد الحرس من أحد الأبراج الخشبية الصغيرة، فيشعر كأنها يراقبه، ولم يشعر بالراحة إلا بعدما ابتعد عن السور متوجهًا ناحية المراعي.

## الفصل الثاني عشر

### في ضيافة الحطّاب

لا يعرف بارسينو السبب الذي دفعه للذهاب إلى المراعي، ولكنه عندما شاهد الرعاة من بعيد وقطعان الغنم أحس أنه يفقد كثيرًا القطيع الذي كان يرعاه، يفقد ثغاء الأغنام ومشاهدتها تآكل وتلهو، لم يدرك حتى هذه اللحظة أن الأغنام كانت أقرب كائنات حية له بعد جدته وصديقه، وتعجب من هذه الفكرة، ولكنه بعد تفكير أدرك أنه كان يقضي معها معظم وقته كل يوم.

كان الرعاة يشاهدونه من بعيد وينظرون إليه بدهشة، راع وحيد بدون قطيعه، وليس أي راع، بل الراعي الأهمق. كان يعرف أن هذا ما يدور في عقولهم، لذا تحاشى الاقتراب منهم، أراد أن يبقى لبعض الوقت وحيدًا مع أفكاره.

كانت السماء غائمة، ولكنها لم تمطر هذا اليوم. هب الهواء باردًا من ناحية الغابة، فاستلقى هناك تحت شجرة، متكئًا بجسده إلى جذعها الخشبي، وجسده ممدد على العشب الأخضر البارد، يراقب السماء، وحركة السحاب التي تخفي الشمس الباهتة ثم تظهرها لثوانٍ معدودة قبل أن تخفيها مرة أخرى.

راح تفكير بارسينو ينحرف من فكرة إلى فكرة، كالسحاب الذي ينحرف ببطءٍ عبر السماوات، ثم أخذه تفكيره إلى الحوار الذي دار بينه وبين العمدة هذا الصباح، وحديثه عن الحطّاب؛ ما الذي كان العمدة يرمي إليه بحديثه عن ترويح الخرافات؟ وللحظة راودته فكرة غريبة، هل يمكن حقًا ترك القرية والابتعاد عنها؟ أيوجد شيء وراء الغابة؟ أيعقل أن العالم أوسع مما يعتقد؟ كان قادرًا من موضعه في المراعي أن يرى كم هي شاسعة غابة الظلال، وتذكر رؤيته لها من على قمة التل... ممتدة... مترامية الأطراف... تبدو وكأنها لا نهاية لها...

بينما هو غارق في أفكاره في خمول لم يشعر بنفسه وقد غلبه النعاس، ولكن عندما فتح عينيه مرةً أخرى كانت الشمس قد قطعت شوطًا كبيرًا عبر السماء، وأوشكت على المغيب. أحس برودة شديدة فضم معطفه إلى جسده وهو يعتدل واقفًا، وفكر في العودة إلى البيت، ولكنه تذكر مواعده مع صديقه أكينو في الحانة، فقرر الذهاب إليه هناك.

في طريق عودته كان الرعاة يقتادون قطعانهم إلى القرية، فأحس بالوحدة وهو يمشي وحيدًا، منصتًا إلى رنين الأجراس المعلقة بأعناق الأغنام والماشية البعيدة. أسرع الخطى لكي يلحق بالآخرين، ولكن فجأة توقف في موضعه. كان هناك شيء أمامه، ضباب أسود يتموج في الهواء ويعترض طريقه.

أحس بارسينو بالخوف يملأ قلبه، ثم حُيِّل له من جديد أن الطيف على هيئة رجل، وهذه المرة يشير ناحية الغابة، فنظر بارسينو في خوف إلى حيث يشير، وهناك رأى الحطّاب أوركين ييزغ من بين ظلال الغابة، وبصحبه كلبه الأسود.

عاد بارسينو ببصره إلى حيث الطيف الضبابي، ولكنه لم ير شيئًا، فحدق في دھول، ثم نظر ناحية الحطّاب فوجده يمشي مقتربًا من سور القرية حتى أوشك على عبور البوابة.

أسرع بارسينو الخطى وراءه، وتجاوز البوابة متحاشيًا النظر إلى الحرس، ثم انتظر قليلًا وهو يشاهد الحطّاب يصعد درجات السلم الصخرية ويتجاوز أحد الأطلال على هيئة قنطرة متداعية، فأسرع ليلحق به، وما إن رآه من جديد حتى أبطأ من سيره، تاركًا مسافة كبيرة بينه وبين الرجل وكنبه، ولكنه لم يتركها يَخْتَفِيَان

عن ناظرية. لقد قرر الحديث إلى الخطاب، ولكنه يخشى أن يراه أحد حرس العمدة وهو يتحدث إليه، وخصوصًا بعد الحوار الذي دار بينه وبين السيد أمريد هذا الصباح.

راح يتلفت حوله بحثًا عن أي شخص يرتدي ملابس صفراء، وكلما لمح أحدهم كان يترك المسافة بينه وبين الخطاب تزيد بعض الشيء، وبعد أن يتوارى عن ناظرية يسرع الخطى مرةً أخرى، لاحقًا بالخطاب وكلبه.

كانا يقتربان من قمة التل شيئًا فشيئًا، وبمرور الوقت لم يعد حولهما الكثير من الناس، والغسق يزداد إظلامًا، ثم أدرك بارسينو فجأة أنه لم يعد هناك أحد يمكنه أن يراه سوى الخطاب، فأحس ببعض الخوف وفكر في التراجع، حتى لاح له بيت الخطاب في الأفق، ورأى الخطاب يمشي مقتربًا منه، وظن أنه سيدلف إلى الداخل، ولكنه اندهش عندما توقف الخطاب في موضعه فجأة أمام البيت.

تجمد بارسينو في موضعه بدوره وهو ينظر بخوف ناحية أوركين، وحينها استدار الخطاب على عقبه وحدث نحوه مباشرة. أحس أن عيني أوركين العجوز تخترقان روحه من حيث يقف، قبل أن يقول الخطاب بصوتٍ جهوري: «ماذا تريد؟». بينما راح الكلب يزمجر زمجرة خافتة.

أدرك بارسينو أن أوان التراجع قد فات، وحتى لو أراد التراجع فقد أحس أن قدميه قد تسمرت في الأرض، كما انعقد لسانه، ولم يقدر على الحديث حتى قال الخطاب بلهجة حازمة أمرية: «تكلم!». قال بارسينو على الفور: «أريد الحديث معك».

صمت أوركين لحظة ثم قال: «ما الذي ترغب في الحديث عنه؟».

تلقت بارسينو حوله ثم ازدرد لعابه وقال: «أريد العمل معك، أريد أن أصير حطابًا مثلك».

حينها ظهرت الدهشة على ملامح الخطاب التي ظن بارسينو أنها كالصخر لا تتبدل ولا تلين، ثم عادت ملامح الخطاب إلى جمودها السابق قبل أن يخرج من جيبه مفتاحًا وضعه في قفل الباب وهو يقول: «لا أحتاج إلى راعي غنم كي يكون حطابًا معي».

صاح بارسينو: «لم أعد راعي غنم! لقد تركت العمل لدى السيد نيربو!».

قال أوركين بصرامة وهو يفتح باب بيته: «فلتعد إليه إذن». ثم دلف إلى البيت بصحبة كلبه دون أن يغلق الباب وراءه.

صاح بارسينو في غضب: «لا أريد العودة إليه!». لم يأتِه رد من داخل البيت فاقرب منه ووقف عند عتبة وهو يقول: «لم لا تريد مني العمل معك؟».

شاهد الخطاب في ردهة البيت يضع بعض الحطب في المدفأة ويذكي النيران، قبل أن يلتفت ناحيته ويقول: «ألم تحذرك جدتك من الاقتراب مني؟».

رفع بارسينو حاجبيه في دهشة وقال: «كيف عرفت هذا؟».

قال أوركين ساخرًا: «جميع الجدات والأمهات في هذه القرية يجذرن أطفالهن مني. هل تعتقد أنني لا أعرف هذا؟».

قال بارسينو بألم: «إذن فأنت تعرف كيف أشعر إذن!».

تنهد أوركين، ثم قال وقد بدا في صوته بعض الشفقة: «أنا أطلب منك الانصراف من أجل مصلحتك».

أدار له بارسينو ظهره وقال: «ظننت أنك تعرف ما يعنيه أن يكون المرء وحيدًا، أن يكون منبوذًا». ثم بدأ يمشي هابطًا جانب التل.

\*\*\*

ما إن وصل بارسينو إلى الحانة حتى دفع الباب ودلف إلى الداخل. تفاجأ بأنه وجد نفسه يمدق إلى طابيو، الذي رمقه بنظرة في غضب، فبادله بارسينو التحديق في تحدٍّ، ولكن طابيو اكتفى بأن أشاح ببصره بعيداً. تلفت بارسينو حوله حتى وجد صديقه أكينو جالساً إلى إحدى الطاولات، وهناك قدح من الشراب أمامه بالفعل. تجاهل بارسينو النظرات المحدقة من الزبائن الآخرين وهو يقترب من صديقه، ويجلس على الكرسي المقابل له.

قال له أكينو: «مرحباً يا باري، يسعدني أنك قد جئت».

راح بارسينو يفتش بعينه بحثاً عن كينورا، فشاهداها بشعرها الأحمر والشرايط المتدللية منه، تحمل عددًا من الأقداح التي يتصاعد منها البخار إلى بعض الطاولات. لم تكن الحانة مزدحمة كأيام الاحتفالات، ولكن بها عدد لا بأس به من الناس. كانت النيران تطلق في المدفأة وتبعث بالدفع في المكان، وشخص ما يعزف على آلة وترية لحناً هادئاً في ركن الحانة، فساد الجو شيء من السكينة.

سأله أكينو بالحاح: «ماذا فعلت اليوم؟».

زفر بارسينو ثم قال: «لقد تحدثت مع الخطّاب».

عقد أكينو حاجبيه، ثم قال: «فلتشرّب شيئاً أولاً، ثم أخبرني بما حدث».

لوح بيده العريضة إلى كينورا التي اقتربت من الطاولة وهي تبسم، ثم قالت: «كيف حالك يا باري؟ أتمنى أن علاجي لك قد أتى بثماره».

ابتسم بارسينو بدوره وقال: «أشعر أنني بخير حال، شكرًا لك».

اتسعت ابتسامتها وقالت له: «حسنًا، ماذا ستشرب اليوم؟».

قال لها: «أي شراب دافئ سيفي بالعرض».

أومأت له برأسها قبل أن تمشي مبتعدة نحو الباب المؤدي لمطبخ الحانة.

مال أكينو ناحيته وقال: «والآن أخبرني ما الذي حدث؟».

قال له: «توجهت إلى بيته وطلبت منه أن أعمل لديه».

سأله أكينو في اهتمام: «وما الذي قاله؟».

قال بارسينو في ضيق: «لقد رفض الأمر، شعرت أنه يرفض حتى الحديث إليّ».

تنفس أكينو الصعداء، ثم قال له: «حسنًا أنا سعيد أنه قد رفض».

حدده بارسينو بنظرة، وفي تلك اللحظة اقتربت كينورا بقدح الشراب، فلاذ كلاهما بالصمت.

قالت له: «جلبت لك قدحًا دافئًا من شراب ثمرة القمر».

قبل بارسينو القدح منها بكلمات شاكرة، قبل أن يشاهدها وهو تبتعد إلى طاولة أخرى. أخذ رشفة من شرابه فأحس بالدفع يسري في أوصاله.

قال بارسينو فجأة: «هناك شيء غريب قد حدث معي اليوم، ولكنها لم تكن المرة الأولى».

سأله أكينو في فضول: «أي شيء هذا؟».

صمت بارسينو وهو يستجمع أفكاره قبل أن يقول: «أرى ما يشبه طيفًا، كأنها هو ظل رجل ولكنه ليس ظلًا على الأرض بل يتحرك من تلقاء نفسه».

حدق إليه أكينو في دهشة وقال: «هذا أشبه بالحكايات».

قال بارسينو: «صدقني لقد حدث هذا معي أكثر من مرة». ثم قص على صديقه المرات الثلاثة التي رأى فيها الطيف.

سأله أكينو: «هل حدثت أي شخص عن هذا الأمر؟».  
هز بارسينو رأسه وقال: «لا، أنا أخشى التفكير فيه حتى في قرارة نفسي. أنت تعرف ما قد يقوله الناس إن  
ظنوا أنني أرى أشياء لا يرونها».  
أوما أكينو برأسه وقال: «أنت محق». ثم تردد قليلاً قبل أن يضيف: «ولكن أنت واثق من أنك قد رأيت  
هذا؟».

قال بارسينو بحزم: «تمام الثقة».

قال أكينو: «هذا غريب».

شعر بارسينو بالارتياح لأنه قد تحدث أخيراً عن هذا الأمر الذي كان يثقل كاهليه. ولكنه في الوقت ذاته  
أحس بشيء من خيبة الأمل، فقد تمنى بطريقة ما أن يساعده أكينو على تفسير كل هذا، ولكنه بدا أكثر حيرة  
منه.

\*\*\*

في صباح اليوم التالي استيقظ بارسينو وهو يشعر بالعطش، فمد يده إلى الإناء الفخاري الذي يحتفظ فيه  
ببعض الماء بجانب فراشه، وتجرع الماء البارد حتى أحس بشيء من الارتواء. قال لنفسه في وجوم: سيكون عليّ  
جلب الماء من الصهاريج بنفسى لتوفير بعض النفقات حتى أجد عملاً.

وهكذا ما إن تناول فطوره حتى خرج من البيت وهو يحمل دلوين كبيرين توجه بهما نحو الصهاريج،  
حيث وجد بعض السقاة يدلون بدلائهم في الصهاريج ويملؤون قربهم الجلدية، قبل أن يحملوها على  
ظهورهم عائدين نحو بيوت القرية.

انتظر بارسينو دوره، لم يكن وحده من قرر جلب الماء بنفسه من الصهاريج، ولكن لم يكن هناك أحد معتاد  
على رؤيته، وقد أفسح له البعض الطريق مفضلين أن ينتهي من مهمته ويتعد عنهم في أسرع وقت ممكن على  
أن يظفروا بدورهم.

أدلى بارسينو الدلو الخشبي الموضوع بجانب فتحة الصهريج، وشاهده يغيب في الأعماق الصخرية الباردة،  
وما إن امتلأ هذا الدلو بالماء حتى جذب الحبل الغليظ، ليصب الماء في أحد دلويه، وما إن امتلأ الدلوان حتى  
حملهما وبدأ يقطع رحلة العودة الشاقة إلى البيت، وعروق ذراعيه نافرة بفعل المجهود.

بعد عودته بالماء إلى البيت، خرج من بيته متوجهاً نحو المراعي، هذا هو المكان الوحيد الذي يشعر فيه  
بالسكينة، ويتمكن من الاختلاء بأفكاره فيه. قضى النهار كله هنالك في المراعي، بين ثغاء الأغنام وخوار  
الماشية الذي يصل إلى مسمعيه من القطعان البعيدة.

مع اقتراب الشمس من المغيب نظر بارسينو ناحية الغابة في خوف، وكأنها يتوقع رؤية ذلك الطيف مرة  
أخرى، ولكنه لم ير شيئاً سوى الأشجار العملاقة الصامتة.

في النهاية قرر بارسينو أن يذهب مرةً أخرى إلى بيت الحطّاب، إنه بحاجة إلى بعض الإجابات.

صعد نحو قمة التل، حتى وصل إلى بيت الحطّاب، كان السكون مخمياً على المكان، بينما الدخان يتصاعد  
من مدخنة البيت، فبدأ يطرق على الباب.

ظل واقفاً في موضعه حتى انفتح الباب، وأطل من ورائه وجه أوركين العجوز وهو يقول: «ماذا تريد؟ إن  
كنت تريد أن تتحدث مرةً أخرى عن العمل...».

قال بارسينو على الفور: «أنا أرى أشياء غريبة».

نظر إليه أوركين ليتفحصه ثم سأله: «أي أشياء هذه؟».

صمت بارسينو وهو يستجمع أفكاره قبل أن يقول: «أرى طيفاً يشبه إنساناً، كأنها هو ضباب أسود أو دخان».

مد الحطّاب رأسه خارج باب البيت وتلفت يُمّنة ويسرة، قبل أن يجذب بارسينو من يده إلى الداخل ويغلق الباب وراءه.

أحس بارسينو بقلبه ينتفض لهذه الحركة المفاجئة، ولكن الحطّاب أغلق مزلاج الباب من الداخل، وشاهد الكلب النائم باسطاً قدميه الأماميتين أمام المدفأة يرفع رأسه في تحفز، ولكن بإشارة من يد الحطّاب عاد إلى استرخائه مرة أخرى.

ظل بارسينو واقفاً في موضعه لا يعرف ما يفعله، لقد دخل بيت الحطّاب من قبل، ولكنه الآن في حضرة الحطّاب نفسه، وقد حرص تمام الحرص ألا يصدر عنه شيء يشي بأنه قد دلف إلى هذا البيت من قبل. قال له الحطّاب أمراً: «فلتجلس».

جلس بارسينو على الفور على أحد الكراسي، بينما شاهد الحطّاب يملأ براداً ببعض الماء من قربة جلدية، ثم علقه فوق نيران المدفأة.

جلس أوركين على الكرسي المقابل له وقال: «والآن فلتخبرني بما رأيته بالضبط ولا تهمل أي تفاصيل». شرد بارسينو ببصره وهو يسترجع الأحداث قائلاً: «حدث هذا بعدما غادرت الحانة في اليوم الأول من احتفال القمر». وهكذا قص عليه ما شاهده حينها، وما حدث في اليوم التالي بعد الاحتفال الكبير، وأخيراً ما رآه بالأمس عندما كان في المراعي، وطيلة الوقت كان الحطّاب يصغي إليه في اهتمام، بينما حاجباه يزدادان انعقاداً، وجبينه يزداد تجعداً، حتى انتهى بارسينو من حكايته.

قال الحطّاب في شرود كأنها يخاطب نفسه: «إن كان هذا قد حدث بالفعل في ليلة اكتمال القمر فإن الأمور تسوء بشكل أسرع من المتوقع».

قال له بارسينو في حيرة: «ما الذي تعنيه؟».

ولكن بدلاً من أن يجيبه الحطّاب اعتدل واقفاً، ومشى مقترباً من خزانة خشبية معلقة على الجدار بالقرب من المدفأة. فتح أوركين باب الخزانة الخشبي وأخرج من داخلها علبة من الصفيح، فتح غطاءها فظهر بداخلها ما يبدو أنه نوع ما من الأعشاب المجففة، ثم تناول حفنة من هذه الأعشاب ووضعها في ماء البراد الذي صار ساخناً ويتصاعد منه البخار ولكنه لم يصل إلى مرحلة الغليان بعد، وما إن فعل هذا حتى عبقت الأعشاب الردهة برائحتها.

أخذ بارسينو نفساً عميقاً مشبعاً بهذه الرائحة فأحس بقليل من الاسترخاء، ولكن صمت الحطّاب جعل أعصابه تشتعل من جديد، فقال له: «ألن تقول شيئاً؟ ألن تفسّر لي ما حدث؟».

قال الحطّاب وهو يخرج كوبين من الخزانة: «هناك تفسيران لا ثالث لهما». وضع الكوبين على الطاولة الخشبية في منتصف الردهة بعد أن أزاح بعض الملابس المتكومة عليه جانباً. بعدها جلب من الخزانة علبة أخرى بها بعض مكعبات السكر ثم وضع في كل كوب مكعباً من السكر، حينها كان الماء قد وصل إلى الغليان وصارت الرائحة نفاذة أكثر من ذي قبل، حلوة للغاية، ولكنها جعلته يشعر ببعض الاختناق. أمسك الرجل بقطعة قماشية سميكة استخدمها في رفع البراد عن النار، قبل أن يبدأ في صب هذا السائل المغلي في الكوبين.

صب أوركين ما تبقى من السائل في طبق صغير وضعه أمام الكلب الأسود، فراح يلعقه بلسانه في حماس، ثم قال وهو يمد بالكوب الأول إلى بارسينو: «اشرب هذا، سيجعلك تشعر بالتحسن».

نظر إليه بارسينو في دهشة قبل أن يقبل الكوب منه بتمتة شكر. سأل نفسه في حيرة: هل العجوز أوركين يُصِفني في بيته بعد جفائه السابق؟ شاهد العجوز يرتشف رشفة من كوبه في استمتاع، ثم قال: «هذا الشاي هو المفضل بالنسبة لي، لن تجد مثله حتى في حانة الغزال الواثب، فهذه النبتة تسمى جذور الشمس، ولا تنمو إلا في جزء عميق من غابة الظلال. أحب قطف هذه الأوراق وتجفيفها بنفسني، إن شرابها يمنحني شعورًا رائعًا».

ارتجف جسد بارسينو عندما تحدث الحطّاب عن غابة الظلال وأعماقها بهذه البساطة. لطالما حاول أن يتخيل كيف تبدو الغابة حين يخطو المرء عبرها، ولم يسمع من يصفها من قبل، فالتناس يتحاشون جميعًا حتى الإتيان على ذكرها.

قاطع أوركين أفكاره قائلاً: «من الأفضل لك أن تشربه ساخناً، سيساعدك على طرد البرودة من أوصالك في مثل هذا الجو البارد».

نظر بارسينو إلى كوبه بريبة ثم رفعه إلى أنفه وتشمم الأبخرة الساخنة المتصاعدة منه. لم يبدُ هذا الشاي - كما يسميه الحطّاب - مثل الذي اعتاد شربه في البيت أو الحانة، بل حلّو الرائحة. تردد مرةً أخيرة، لم يكن واثقاً إن كان عليه أن يشرب الشاي في بيت الحطّاب الذي لم يفكر يوماً أنه يثق به، ولكنه كان يشعر بالخجل لضيافة الحطّاب له بعد أن اقتحم بيته، حتى لو لم يكن الحطّاب العجوز يعرف هذا. في النهاية قرب الكوب من شفتيه وارتشف منه رشفة، فأحس بالسائل الساخن ينساب في حلقه. كان طعمه لذيذاً، وإن لم يكن كطعم الشاي على الإطلاق، بل مذاقاً جديداً لا يقدر على وصفه، ومنحه شعورًا جميلاً بالدفع والنشاط.

ساد الصمت بينهما للحظات، لا يقطعه إلا صوت الرشقات، بينما الأفكار تموج في عقل بارسينو، قبل أن يفصح عن أفكاره أخيراً قائلاً: «ألن تخبرني ما هما التفسيران لتلك الأشياء الغريبة التي رأيتها؟».

رفع الحطّاب عينيه عن الكوب وقال: «التفسير الأول هو أنه قد خُيِّل لك رؤية هذه الأشياء لسبب أو آخر، إن ضوء المصابيح المتراقص في الليل قد يجعل المرء يتخيل الظلال الساكنة تتحرك».

قال بارسينو بحزم: «لم يُخيِّل لي ما رأيته، بل أنا واثق من رؤيته كما أنني واثق من أنني أراك الآن».

رفع أوركين إصبعه وقال: «سيظل هذا تفسيراً معتبراً، لا تستهين بقدرة العين على خداع العقل».

تنهد بارسينو ثم قال: «حسناً، وما هو التفسير الثاني؟».

أخذ الحطّاب رشفة كبيرة من كوبه، ثم قال: «لا يزال في طور الفرضية في عقلي، سأحتاج للتفكير فيه لبعض الوقت للتيقن من صحة فرضيتي، وحينها يمكنني أن أخبرك بالتفسير».

حدق بارسينو إليه بدهشة، ثم تبدلت ملامحه من الدهشة للغیظ وهو يقول: «بعد أن أخبرتك بكل شيء، ترفض أن تخبرني شيئاً!».

هز الحطّاب كتفيه وقال: «قد يكون من مصلحتك ألا تعرف شيئاً بعد. ربما أخبرك بكل شيء لاحقاً، وربما لا، لا أعرف».

تجرع بارسينو ما تبقى في كوبه دفعة واحدة، ثم وضع الكوب على الطاولة بقوة جعلت الكلب يجفل ويرفع رأسه، قبل أن يسترخي مرةً أخرى.

سأله قائلاً: «أما زلت مصرّاً ألا تجعلني مساعداً لك؟».

قال له أوركين: «يجب أن تصدقني عندما أقول إن هذا المصلحتك».

ثم اعتدل واقفاً ومشى ناحية الخزانة وأخرج منها كيساً قماشياً وضعه أمام بارسينو وقال: «فلتشرّب من هذا العشب، ولن تزورك الظلال مرةً أخرى».

نظر إليه بارسينو متسائلاً عما يعنيه الخطاب العجوز بهذه الكلمات، وعندما لم يجبه سوى الصمت تنهد وقال: «جتتك لتحل لي أحجية، فوجدت جعبتك مليئة بالأحاجي». ثم أمسك بالكيس وقال له وهو يعتدل واقفاً: «شكراً لك على الاستضافة».

أوماً أوركين برأسه وقال: «على الرحب والسعة». وعندما بدأ يمشي ناحية الباب سمع الخطاب يقول: «بارسينو...».

التفت ناحية فقال: «سيكون من الأفضل ألا تزورني مرة أخرى، وبالنسبة لهذه الأعشاب فسأترك لجدتك قدرًا منها كلما جلبت لها الحطب».

قال له بارسينو: «لن أفعل».

ثم خطا خارج الباب قبل أن يغلقه وراءه. وقف في موضعه للحظات ينظر ناحية غابة الظلال من فوق قمة التل، بدا المشهد مهيباً أكثر في ظلمة المساء، وبدت تلك الشجرة التي تعلو عن غيرها ظلاً أسود في الأفق أثار القشعريرة في جسده، قبل أن يبدأ في الهبوط عائداً إلى البيت.

كانت سماء الليل ملبدة بالغيوم، ولكنه استطاع رؤية القمر - وقد تناقص إلى هلالٍ في الأيام الأخيرة من الشهر - من بين السحب التي تدفعها الرياح من أمامه، فيظهر ويختفي.

كان بارسينو يتلفت حوله من آنٍ لآخر، وهو يشعر أن هناك ظلاً قد ظهر وتوارى في ركن عينه، لم يعرف إن كانت ظلال القمر تخدع عينيه، أم أن الشراب يتلاعب بعقله، أم أنه يرى الظلال حقاً. ولكن الخطاب قد وعده: *لن تزورك الظلال مرة أخرى*. هل يمكنه أن يثق بالخطاب؟

كانت القرية ساكنة وقد لاذ معظم الناس ببيوتهم، كلما تضاءل القمر، واقترب الشهر من نهايته، صار الناس أقل رغبة في الخروج من بيوتهم. كان قرع أقدامه على الأجزاء الصخرية من الأرض واضحاً، وأحس بارسينو أن صدها يتردد عبر جانب التل بأسره.

## الفصل الثالث عشر

### ليلة المحاق

قضى بارسينو الأيام التالية ما بين جلب الماء من الصهاريج، ومساعدة جدته في أعمال الحياكة، وأحياناً لقاء صديقه أكينو لقضاء بعض الوقت معه، أو التوجه إلى المراعي للاختلاء بنفسه. لم يكن لديه فكرة عما يجب فعله بعدما رفض الحطّاب أن يعمل معه. ليس لديه رغبة في الإلحاح أو إذلال نفسه، بل إن الحطّاب طلب منه ألا يزوره في بيته مرة أخرى، وهكذا قرر بارسينو ألا يفعل.

لم يخبر أكينو عن استضافة أوركين له في بيته، كما أن صديقه لم يبذل متحمساً للحديث عن الحطّاب، ولكن في أحد الأيام قال له أكينو فجأة: «ألا تلاحظ أن أوركين العجوز مختفٍ هذه الأيام؟». كانا يمشيان جنباً إلى جنب عبر شوارع القرية عندما سأله أكينو هذا السؤال، فنظر إليه في دهشة وقال: «ماذا تعني؟».

قال أكينو: «سمعت الناس يتحدثون اليوم، لقد بدأوا يلاحظون اختفائه، كما أنه لم يعد يجلب لهم الحطب».

عقد بارسينو حاجبيه وقال: «هذا غريب».

قرر بارسينو في هذا اليوم أن يذهب إلى بيت الحطّاب، رغم أنه قد طلب منه عدم المجيء، ولكنه قال لنفسه: سأذهب فقط للاطمئنان عليه، لن أطلب منه شيئاً.

ولكنه في هذه المرة لاحظ شيئاً، كان الدخان المتصاعد من المدخنة رقيقاً ولا يكاد يكون ملحوظاً. تساءل في قرارة نفسه وهو يراقب البيت والمدخنة: ألم يضع أوركين في مدفأته حطباً جديداً؟ طرق عدة مرات على الباب، ولكن لم يجبه سوى الصمت، وبعد بضع دقائق قرر أن يعود أدراجه، وهو يقول لنفسه: في الغد سأجد الدخان يتصاعد من مدفأته.

ولكنه كان مخطئاً، في الصباح التالي لم يجد بارسينو أي دخان يتصاعد من مدفأته على الإطلاق.

طيلة الأيام التالية ظل بارسينو يراقب بيت الحطّاب على أمل أن يرى الدخان يتصاعد مرة أخرى من مدخنته، ولكن كل يوم كان يعود بخيبة أمل.

تزايدت أعداد البيوت التي خلت من الحطب وتوقف الدخان عن التصاعد من مداخنها، وصار الجميع يتهامسون عن اختفاء الحطّاب في مزيج من الفضول والخوف.

راح بارسينو يراقب الحطب يتناقص في البيت ثم قال لجدته بينما تحيك بعض الثياب على ضوء المصباح: «سنحتاج إلى المزيد من الحطب قريباً».

أومأت جدته برأسها دون أن ترفع عينيه فقال لها في وجوم: «الحطّاب ليس في القرية».

قالت له: «أعرف».

سألها في دهشة: «تعرفين؟».

قالت: «أجل، جميع النساء يثرثرن بشأن هذا الأمر».

قال في سخرية: «أتمنى أن الجميع سعداء، فهم لا يحبون الحطّاب، أليس كذلك؟».

نظرت ناحية المدفأة وقالت: «إنهم قلقون بشأن نفاد الحطب...».

بترت جملتها، فقال لها بارسينو: «لن يموتوا من البرد». قالت جدته: «ليس البرد ما يخشونه». تنهد بارسينو، لقد اعتاد أسلوب جدته المبهم فلم يعلق على ما قالته. بعد لحظات من الصمت وهي منشغلة بالإبرة والخيط سألها: «إن كان الأمر هكذا لم لا يكون هناك المزيد من الخطّابين؟ أعني قلت إن الأمر كان هكذا في الماضي». نظرت إليه جدته، ثم وضعت عدة الحياكة جانباً وقالت: «لقد حاول الخطّاب إقناع بعضاً من أبناء الخطّابين السابقين أن ينضموا إليه لمساعدته، هناك اثنان فقط قد استجابا له». نظر إليها في دهشة وقال: «اثنان؟ ما الذي حدث لهما؟». ترددت الجدة قليلاً ثم قالت: «عاد الخطّاب بجثتيهما». حدق إليها بارسينو في ذهول، ثم قال لها: «كيف ماتا؟». هزت جدته رأسها وقالت: «لا أعرف، ولم نخبرنا الخطّاب». شعر بارسينو حينها أن هذا قد يكون سبب رفض الخطّاب أن يعمل لديه، ولكن ما الذي حدث لهذين الاثنتين؟ أوركين وحده يعرف، ولكن أين هذا الخطّاب العجوز؟

\*\*\*

لقد انقضت سبعة أيام منذ آخر مرة رأى فيها بارسينو الخطّاب، وكانت هذه ليلة المحاق، الليلة التي يختفي فيها القمر. أحس بارسينو برغبة في العودة إلى بيته مبكراً، ولكنه قرر الذهاب إلى صديقه أكينو في الحانة أولاً.

ما إن دلف من الباب حتى نظر طابيو ناحيته وقال في انزعاج: «لم أعتقد أنك ستصير ضيفاً دائماً على حائتي، ألا تجد شيئاً أفضل من هذا لتفعله؟».

ولكن بارسينو تجاهله وهو يتلفت حوله، لم يكن هناك زبائن في الحانة سوى أكينو الجالس وحده كعادته. قال بارسينو ساخراً: «ظننت أنك ستفضل وجود زبائن في مثل هذه الأيام التي لا يرتاد فيها أحد حائتك».

قال طابيو في تحدّ: «ليس زبوناً أمهق الوجه على الأقل».

هنا جاء صوت أنثوي يصيح من ورائه: «أبي!».

التفت طابيو ناحية ابنته كينورا، التي قالت في حدة: «منذ متى تهين الزبائن؟».

قال طابيو بحدة مماثلة: «ومنذ متى صار هذا المسخ زبوناً لحائتنا؟».

قالت كينورا: «أنا آسفة بارسينو».

اقترب أكينو منهم وقال مخاطباً صاحب الحانة: «يبدو أن الشجاعة قد عادت إليك مع اختفاء الخطّاب!». شحب وجه طابيو، ولكن أكينو جذب بارسينو من يده ناحية الطاولة التي كان جالساً عليها، ودفع بارسينو إلى الجلوس قبالة، قبل أن يستقر بدوره على الكرسي.

نظر أكينو ناحية صاحب الحانة وابنته وهما يتبادلان الكلام بحدة، ثم التفت إلى صديقه وقال: «أتمنى أن يظهر هذا العجوز قريباً».

هز بارسينو رأسه وقال: «كأن التل قد انشق وابتلعه».

قطعاً حديثهما عندما اقتربت كينورا من طاولتهما وقالت: «أعتذر من جديد عما فعله أبي...».

قاطعها بارسينو قائلاً: «لا داعي للاعتذار، أنا معتاد على هذا من قاطني القرية جميعاً». قالت في حرج: «ليس جميع من في القرية، ولكن... على أي حال، ماذا تشربان؟». قال بارسينو: «كوباً من الشاي الساخن». قال أكينو: «وأنا قدحاً من النبيذ». بعدما ابتعدت كينورا سأله بارسينو: «ماذا سيحدث إن كان الحطّاب قد... مات؟». عقد أكينو حاجبيه وسأله: «ماذا تعني؟». قال له: «أعني أن الحطّاب مهم بالنسبة للقرية كلها، ولكن لا أحد يبدو مهتماً بجلبه سوى الحطّاب، حتى العمدة نفسه، فماذا سيفعلون من دونه؟». قال له أكينو: «ربما يمكنك أن تسأل العمدة». قال بارسينو في ضيق: «أنا لا أمزح». قال أكينو بجدية: «ولا أنا. العمدة وحاجبه يعرفان شيئاً لا نعرفه. كما أنه لا يبدو مهتماً بمصير الحطّاب. ربما يخطط لشيء ما». ظهر التردد على وجه بارسينو، ثم قال في وجوم: «لا أعرف، ولا أرغب في الحديث مع السيد أمريد عن الأمر». عادت كينورا وهي تحمل صحيفة عليها قدح النبيذ وكوب الشاي، وبينما تضعها على الطاولة نظر أكينو إلى صديقه فوجده عابساً، فقال مخاطباً كينورا: «أحضري لنا لوحة لعب». قال له بارسينو في دهشة: «لوحة لعب؟». قال له أكينو: «رغم أنني لا أحب لعبة الحصى، ولكنني أعرف أنها ستساعد على تحسين مزاجك». ثم نظر ناحية كينورا وأوماً لها برأسه. سرعان ما عادت كينورا وهي تحمل لوحاً صغيراً مقسماً إلى تسعة مربعات، وضعت على الطاولة إلى جانب المشروبات، ثم أخرجت من جيبها كيساً صغيراً ألقته على الطاولة بدوره، قبل أن تمشي مبتعدة لتختفي في المطبخ. كان الكيس به ستة من الحصى الملونة، ثلاث بيضاء وثلاث صفراء، وضعها أكينو في أماكنها المحددة على الطاولة ثم قال: «والآن فلنبدأ اللعب، أنت أولاً». قال بارسينو: «بل ابدأ أنت، سأنتصر عليك كالعادة، ولكن أريد أن أمنحك فرصة عادلة». قال أكينو في غضب مازح: «لا تكن متباهياً، سأنتصر عليك في اللعبة يوماً ما». فجأة جاء صوت طاييو من ورائها وهو يقول: «إن كان متفاخراً هكذا فلم لا يواجهني أنا؟ سيسعدني أن أهزمه وأكسر كبرياءه». نظر إليه كلاهما، كان هناك نظرة تحدّ مرتسمة على وجهه، فقال بارسينو ساخراً: «تظن أنك تستطيع هزيمتي؟». عقد طاييو ذراعيه على صدره وهو يقول: «بالطبع، وإليك رهان صغير». نظر إليه بارسينو وأكينو باهتمام فقال: «إن انتصرت عليك فلا تعد إلى حانتي مرة أخرى». فتح أكينو فمه ليعترض، ولكن بارسينو قال على الفور: «لك هذا». ظهرت ابتسامة ظافرة على وجه طاييو، فقال بارسينو: «ولكن ماذا لو هزمتك؟».

فهقه طابيو ضاحكًا ثم قال: «من المستحيل أن تتصر عليّ، ولكن إن حدث هذا فلك أن تدخل الحانة في أي وقت تشاء دون أن أعترض».

قال أكينو على الفور: «ومشروب مجاني كل يوم».

عقد طابيو حاجبيه وقال: «هذا كثير».

فقال بسخرية: «ألم تقل إن هزيمتك مستحيلة؟ لم أنت قلق إذن؟».

وضع بارسينو يده على كتف صديقه وقال: «يكفيني عرضه الأول يا أكينو».

اعتدل صديقه واقفًا، ليفسح المجال كي يجلس طابيو في موضعه قبالة بارسينو، واللوح بينهما، الحصى الصفراء أمام طابيو، والبيضاء أمام بارسينو. جاءت كينورا من المطبخ، ووقفت تشاهد اللعبة بجانب أكينو، فتساءل بارسينو في قرارة نفسه عن الشخص الذي تتمنى فوزه: أنا أم أبيها؟

نقل إحدى الحصى ببطء وهو يفكر في العديد من الحركات التي يمكن تتبعها، سواء منه أو من خصمه. كان طابيو خصمًا لا يستهان به، ويجيد اللعب أكثر من أكينو، ولكن بارسينو قد لعب هذه اللعبة كثيرًا مع أكينو، وأحيانًا وحده وهو يتخيل أنماطًا متعددة ومسارات مختلفة يمكن أن تتبعها اللعبة.

بمرور الوقت بدأت الابتسامة الواثقة تتلاشى من على وجه طابيو، ويحل محلها نظرة قلقة، بينما حبيبات العرق بدأت تتشكل على جبينه. خطوة بطيئة تلو الأخرى، والوقت يمضي، وبدا لأكينو أن بارسينو يحاصر طابيو. كان هناك شيء آخر يقلقه، لقد تأخر الوقت ولم يكن ينوي البقاء خارج البيت حتى هذا الوقت في ليلة المحاق.

تمنى أن ينتصر صديقه، وبدا أن الفوز سيكون من نصيبه في أي لحظة، وهو يضيق الخناق حول طابيو، وفجأة... تعالت أصوات غريبة من خارج الحانة، فرفع الجميع أنظارهم عن اللعبة في دهشة. ثم تعالت صرخات مرعوبة تشق سكون المساء، وصوت غريب يسمعه بارسينو لأول مرة، صوت جمد الدماء في عروق الجميع؛ عواء يأتي من بعيد.

كانت الأصوات التي تصرخ في رعب غير مفهومة في البداية، ثم بدأ بارسينو يميز الكلمات، بل كانت كلمة واحدة، أصوات عديدة تصرخ: «الذئاب! الذئاب!». وامتزج هذا الصراخ مع عواء الذئاب. انتفض بارسينو عند سماع هذا الصوت الذي يطرق مسمعيه لأول مرة في حياته، واعتدل واقفًا على الفور، ونظر إلى صديقه، وأدرك أن نظرة الحيرة والخوف المرتسمة على وجه صديقه هي ذاتها المرتسمة على وجهه، أما طابيو فقد قال: «الذئاب! بحق الشمس، لم تهجم الذئاب على القرية منذ سنوات عديدة!». قالت له كينورا في فزع: «ما الذي تعنيه يا أبي؟».

قال طابيو في قلق: «إنه شر قديم ظننا أننا قد استرحنا منه، ولكن يبدو أنه لا نهاية له».

قال بارسينو: «جدتي! يجب أن أذهب لكي أطمئن عليها».

قال طابيو وهو يتراجع للوراء: «فلتفعل ما يجلو لك، أنا لن أعادر حانتي». ثم التفت إلى ابنته وقال بعينين زائغتين: «فلتضعي المزيد من الحطب في المدفأة». كانت الأصوات تقترب أكثر وأكثر من الحانة.

توجه بارسينو ناحية الباب، ولكن أكينو أمسك بذراعه وقال: «أين ستذهب في هذا الجنون يا فتى؟».

قال بارسينو بحزم وهو يحاول منع صوته من الارتجاج: «لا أعرف ما يحدث بالخارج، ولكن يجب أن أكون بجانب جدتي في وقت كهذا». راح يلوم نفسه على عدم عودته إلى البيت باكراً هذا اليوم، ولكن كيف له أن يعرف أن شيئاً كهذا سيحدث؟

ما إن فتح الباب حتى صفعه الهواء البارد، ولكنه لم يتردد وهو يخطو خارج الحانة، ويضم ملابسه إلى جسده. كانت السماء مظلمة، لا قمر فيها لينير القرية، ولكنه استطاع أن يلمح بعض المشاعل من بعيد، والناس تتصايح، وأشكال مظلمة تشتبك في عتمة الليل.

أسرع أكينو من ورائه بينما صيحات الخوف والذعر في الأفق تتحول إلى صرخات ألم ومعاناة، مما جعل جسده يرتجف، وفي عقله ترسم صوراً قائمة عما يحدث في الظلام.

فجأة تجمد بارسينو في موضعه عندما رأى مجموعة من الأشخاص يهرولون ناحيته وهم يمسكون بالمشاعل، وعلى ضوء المشاعل رأى رجلاً ملقى على الأرض جسده غارق في الدماء، يمد يده الدامية إليها متوسلاً وهو يصيح بصوت متحشرج: «النجدة! أنقذاني!».

ولكن بارسينو تراجع إلى الوراء مع حاملي المشاعل، فمن ورائهم رأى تلك المخلوقات المخيفة لأول مرة؛ الذئاب. مخلوقات أشبه بالكلاب، ولكنها أضخم حجماً، تكشر عن أنياب حادة مخيفة، تعوي وتزجر، ويتساقط اللعاب من أفواهها المفتوحة.

بدأ بارسينو يركض بصحبة أكينو وحاملي المشاعل، والذئاب في أعقابهم، كلما اقتربت بعض الشيء كان الناس يلوحون بالمشاعل، فتتردد الذئاب قليلاً، ولكنها تواصل مطاردتهم بعد ذلك في إلحاح.

فجأة ظهر أمامهم مجموعة أخرى من الناس، يركضون في الاتجاه المعاكس لهم، حرس العمدة بسيوفهم، يصرخون وهم ينقضون على الذئاب المهاجمة، والمزارعون يحملون الفؤوس ويهجمون ببسالة. لمح من بينهم على ضوء المشاعل السيد أسيمار بجسده الضخم، وذراعيه المفتولتين، يهوي بفأسه على عنق أحد الذئاب فيقطعه، ولكن بدلاً من أن يهوي الذئب جثة هامدة، تحول إلى شيء أشبه بالدخان الكثيف تبدد في الهواء.

بدأ المزارعون يصارعون تلك الوحوش المخيفة، فقتلوا العديد منها، ولكن أحد الذئاب أنشب أنيابه في ساق أحد المزارعين وأسقطه أرضاً، فانقضت الذئاب الأخرى عليه، وسمعه بارسينو يصرخ في ذعرٍ وألم، قبل أن يمزق أحد الذئاب حلقة وتحمد أنفاسه تماماً.

تجمد بارسينو في رعب وهو يشاهد المعركة الدائرة من حوله، الدماء المتفجرة والدخان المتصاعد، ولكن أكينو جذبته من يده وهو يصرخ: «يجب أن نبتعد عن هنا!».

تحرك بارسينو معه بحركة لا إرادية وصوت صرخات الألم والزجرات المخيفة يصم أذنيه. تراجعاً عائدين إلى الحانة عبر نفس الطريق الذي جاء منه. وفجأة سمع بارسينو صرخة مكتومة، ولكنها بدت مألوفة بالنسبة له، وأدرك أنها آتية من الحانة.

كانت هناك مجموعة من الذئاب واقفة أمام الحانة وتلقي بأجسادها على الباب لكي تكسره. يتقدم أحد الذئاب من باب الحانة وينقض عليه بجسده الثقيل، قبل أن يتراجع وينقض ذئب آخر. أدرك بارسينو أن الصرخة المألوفة هي صرخة كينورا المذعورة من داخل الحانة.

تقدم بارسينو نحو باب الحانة وهو يصرخ: «كينورا!».

وفي تلك اللحظة انكسر الباب وانفتح، فوجد بارسينو نفسه يركض نحو الباب وهو لا يعي ما يفعله، وصيحات أكينو المعترضة تلحق به.

لمح بارسينو عيني كينورا المذعورتين تنظران إليه من وراء الباب المكسور المتدلي من مفصله، ويتأرجح في مهب الريح.

صرخ مرةً أخرى: «كينورا!». وهذه المرة التفتت الذئاب إليه بأعين وحشية، وأفواه تكشر عن أنيابها. تجمد مرةً أخرى في موضعه، وبدأت الذئاب تتقدم منه ببطء، وهو يرى في أعينها انعكاساً لبريق وحشي،

كأننا هناك نيران متقدة في أعينها.

تحرك بارسينو ليقف أمام الباب ما بين الذئب وكينورا، بينما الذئب تطوقه في نصف دائرة. تمنى أن تكون النهاية سريعة وغير مؤلمة، وهو يفكر في الجدة أوريتا، وصديقه أكينو، وكينورا، والقرية التي لن يراها مرة أخرى.

وفجأة رأى دخانًا يحوم من حوله، قبل أن يستقر أمامه ويتجسد في طيف أسود، ذلك الطيف الذي رآه يراقبه من قبل. لم يكن حينها يمثل هذا الوضوح، أحس كأنها يمكنه أن يرى ملامح في هذا الوجه المبهم، كأن هناك عينين ثاقبتين تنظران إليه. ثم رفع الطيف يده وأشار إلى الذئب فتوقفت في موضعها، كأنها تجمدت دفعة واحدة.

ثم مد الطيف يده الأخرى ولمس صدر بارسينو فوق موضع قلبه، وفي هذه اللحظة أحس بارسينو بألم حارق، فرفع يده ليضغط على صدره، وهو يشعر بحرارة شديدة كأن هناك شيئًا في ملابسه يحترق، ثم تذكر ماذا يكون، إنه الكتاب الذي سرقه من الحطاب.

وفجأة بدا صوت الصرخات والعياء بعيدًا للغاية، والناس التي تتحرك من بعيد تبدو حركتها بطيئة للغاية، وصديقه أكينو يركض نحوه وهو يمد يده أمامه كأنها يركض في حلم، لا بل كابوس، حين يصير كل شيء بطيئًا. ثم حدث شيء يراه لأول مرة في حياته... توهجت الرموز على الأطلال بضوء أحمر ساطع، كل الأطلال في القرية، وانعكس الضوء على كل شيء من حوله، ثم تزايد الألم في قلبه، قبل أن يشعر بشيء ينفجر بداخله.

تموج الهواء من حوله في بريق غريب، ثم بدأ هذا البريق يتسع ليحيط به، ويتشكل في دائرة من حوله، ولجزء من الثانية خيل إليه كأنها يرى خوفًا في أعين الذئب، بينما الطيف يتسهم قبل أن يتلاشى ببطء. ثم اتسعت الدائرة فجأة بلا مقدمات، وبدأت الذئب تنفجر في دخان أسود. كل ذئب تلمسه الدائرة يعوي في ألم قبل أن ينفجر ويتصاعد الدخان الأسود من موضعه. ولكن الدخان لم يتلاش ولم يتصاعد نحو السماء، بل ظل هناك كأنها يقاوم رياحًا عاتية. رأى الدخان الأسود يتجمع أمامه من كل مكان في القرية كأنها ينجذب إليه، ويدور حول نفسه كأنها قد علق في إعصار، ثم تشكل الدخان الأسود في لحظة على هيئة أفعوانية، قبل أن يندفع بقوة... نحوه، نحو موضع الألم في قلبه، وأحس به يتسلل إلى داخل جسده، والألم يتزايد ويتزايد، وفي النهاية سقط بارسينو فاقدًا الوعي.

## الفصل الرابع عشر

### تهويدة الحطاب

هدأت القرية إلا من صوت الباكين حول الجثث، ولكن البقية كانوا لا يزالون يمسكون بالسيوف أو الفؤوس، وهم يتلفتون حولهم في فزع، لا يعرفون كيف اختفت الذئاب، ويخشون ظهورها مرةً أخرى. كان أكينو منكبًا على جسد بارسينو، وهو يصرخ في لوعة: «بارسينو! باري! أجبني يا أخي!». لم يكن ما يربطهما هو رباط الدم، بل رابطة أقوى بكثير، رابطة الصداقة عبر سنواتٍ عديدة.

جاءت كينورا مسرعة من الحانة في فزع وأبوها من ورائها يحاول منعها، وعندما اقتربت من أكينو سألته: «ما الذي جرى له؟ هل أصابته الذئاب؟».

هز أكينو رأسه، ثم قال بصوت مرتجف: «لا أعرف ما الذي حدث، كان بارسينو هناك، وهذه المخلوقات اللعينة، هذه ال... الذئاب تحيط به، وكنت أركض نحوه... لا أعرف ما الذي كنت أفكر فيه، لم أكن أفكر حقًا، ولكن فجأة... رأيت الأطلال تتوهج بضوءٍ أحمر، هل رأيت هذا أم أن الرعب قد أصاب عقلي بهلوسة؟ حينها تجمدت الذئاب في موضعها، ثم بدأت تنفجر كأنها من... ظلال». قال كلمته الأخيرة ببطء وخفوت، كأنها يستوعب الأمر للمرة الأولى.

نظر ناحية الغابة المظلمة في الأفق وهو يفكر: هذا ما تخفيه لنا غابة الظلال إذن؟

أومأت كينورا برأسها وقالت: «رأيت ذلك الضوء الأحمر المخيف، ولكن... ما الذي أصاب بارسينو؟».

هز أكينو رأسه مرةً أخرى وهو يقول: «لا أعرف! لا أعرف! ولكنه لا يجيبني».

وضعت كينورا يدها على جبهته. سمعت حينها صوت أبيها من ورائها يقول لها: «ابتعدي عنه!». ولكنها تجاهلته وهي تقول في قلق: «إن جسده ساخن للغاية! إنه محموم!». كان العرق كثيفًا على وجه بارسينو، وخصلات شعره البيضاء ملتصقة بجبهته.

فأجابها بقلق مائل: «ولكنه حي على الأقل».

سمع صوت جهوري يقول: «ليس لوقت طويل».

التفت أكينو ناحية الصوت بدهشة ليجد الحطاب يخطو نحوه، فأسه في يده، وعلى جسده علامات دامية، وكلبه الأسود برق يلحق به لاهثًا، وهمسات القرويين تلاحقها: «لقد عاد الحطاب!».

قال الحطاب في عجالة وهو يعلق فأسه في حزامه: «يجب أن تساعدني على حمله إلى البيت، لا يزال هناك وقت لإنقاذ حياته».

لم يفهم أكينو ما يعنيه الحطاب، ولكنه حمل صديقه على كتفه، وبدأ يمشي بصحبة الحطاب نحو بيت الجدة أوريتا. سارت كينورا وراءهما، لا تعرف ما يجب عليها فعله، ولكنها تشعر باللوعة على بارسينو، أما أبوها فكان يمشي وراءها وهو يحاول إقناعها بالعودة إلى الحانة. سمعته يقول: «سنحتاج لمن يصلح باب الحانة».

أحست بالغضب بداخلها لأنه لا يفكر فيما تعرض له الآخرون من خسائر جسيمة، ويفكر في خسارته البسيطة، التي كانت لتصير جسيمة بدورها لو لم يصرخ بارسينو ويجذب انتباه الذئاب إليه.

كان هناك آخرون يلحقون بهم ويتهامسون فيما بينهم، وآخرون يرثون من فقدوهم في هذا الهجوم. كان تركيز أكينو منصبًا على حمل صديقه إلى بيت الجدة أوريتا، أملًا أن يكون أوركين العجوز قادرًا على إنقاذه مما

أصابه. أما الخطّاب فلم يقل شيئاً وهو يمشي بجانب أكيّنو، وإن كانت مشيته بها شيء من العرج بسبب إصابة في ساقه كما لاحظ أكيّنو، الذي لم يستطع منع نفسه من التساؤل: أين كان هذا الخطّاب العجوز؟ فجأة ظهر من بعيد مجموعة أخرى من الرجال يحملون المشاعل، قادمين من الناحية المقابلة، يتقدمهم العمدة أمريد بصحبة حاجبه، ويحيط به الحرس مشهرين سيوفهم، وبعض المزارعين بفؤوسهم، فتحلق الناس من حولهم بوجوه مليئة بالخوف.

صاح العمدة بصوت حازم: «اطمئنوا وعودوا إلى بيوتكم، لقد هربت الذئاب، وإن عادت فستكون سيوف رجالي في انتظارها، لا تقلقوا».

فكرت كينورا: ما الذي يعنيه بأن الذئاب قد هربت؟ لقد شاهدتها تنفجر كالدهان بأم عيني!

لم تساهم كلماته في تخفيف قلق الناس، ولكنهم تجمهروا حوله كأنها يستمدون من وجوده بعض الأمان، كونه مصدر السلطة الوحيد في هذه القرية. تجاهل أكيّنو الحشد وهو يدور من حولهم حاملاً بارسينو على كتفه محاولاً أن يكمل طريقه إلى البيت، ولكنه تجمد في موضعه حين سمع صوت العمدة العجوز يقول: «هناك مصدر شرّ في هذه القرية، شر يجذب إلينا الذئاب وكل الوحوش المختلفة من غابة الظلال، ويجب علينا اقتلاع هذا الشر من جذوره».

ما الذي يقصده العمدة العجوز بحديثه؟ أو السؤال هو من يقصده؟ هل يشير إلى الخطّاب العجوز أوركين؟ نظر إلى الناس فوجدهم يطرقون برؤوسهم أرضاً، لن يجروا أحداً على توجيه أصابع الاتهام إلى الخطّاب، فهم يخشونه بقدر ما يكرهونه. تعالت بعض الصيحات ولكنها كانت ضعيفة ومرتدة.

كان هناك وجه مألوف بين المتجمهين، السيد نيربو الذي صوب إصبعه ناحية أكيّنو، الذي يحمل جسد بارسينو، وقال: «إنه هذا الفتى الأمهق! لقد سمعته يقسم بالظلال، ويتوعد بأن تلتهم الظلال القرية!».

جز أكيّنو على أسنانه وهو يقول: «أيها اللعين!».

ولكن طابيو رفع صوته وهو يقول: «إنه حاقد وناقم على القرية، كما أنه ولد في يوم ملعون كيومنا هذا، أم هل نسيتم؟».

حدجه أكيّنو بنظره، بينما صاحت كينورا في غضب: «أهكذا تفعل بعد أن أنقذ حياتنا اليوم!».

رفع أوركين صوته الجمهوري وقال: «اخرسوا جميعاً!».

صمت الجميع في رهبة وهم ينظرون ناحيته، بينما عقد العمدة حاجبيه، وهو يتساءل إن كانت كلمة جميعاً تشمل بدوره، ولكن الخطّاب لم يمهل فرصة للتفكير، فقد قال في غضب: «أنتم جميعاً في خطر هنا، والعمدة لا يجد وقتاً إلا لتوجيه الاتهامات. سيكون لنا حديث لاحقاً يا أمريد».

ثم التفت إلى أكيّنو وقال: «هيا بنا». وبدأ يمشي بصحبة كلبه، فتبعه أكيّنو على الفور.

ظل العمدة متجمداً في موضعه يحدق إلى أوركين في دهشة بينما يتعد والناس يفسحون له الطريق رغماً عنهم.

كادت كينورا أن تلحق بهما، ولكن طابيو أمسك بيدها وهو يقول في غيظ: «يكفي هذا، سنعود إلى الحانة».

هذه المرة لم تقاومه كينورا، وهي تشاهد أكيّنو يتعد حاملاً جسد بارسينو.

\*\*\*

كانت الجدة أوريتا تجلس في ردهة البيت في اضطراب، أمام آخر الحطب في المدفأة، والقلق يعصف بعقلها، أين بارسينو الآن؟ كانت أصوات العواء وصرخات الألم وصلت إلى مسمعيها، وأعدت إلى عقلها

ذكريات مريرة، ذكريات أليمة قضت جزءًا كبيرًا من عمرها تحاول دفنها في أعماق عقلها، وها هي تطفو إلى السطح من جديد، وتفتح الندوب لتصير جروحًا.

منذ أن ساد الصمت وكل لحظة تمر عليها دهرًا، وهي قلقة على مصير حفيدها، وحين سمعت الطرقات على باب البيت كادت أن تففز من موضعها رغم كبر سنها. فتحت الباب في لهفة لتجد أكيينو يحمل على كتفه جسد بارسينو، ومن ورائه الخطاب وكلبه.

ضربت صدرها بيدها وهي تشهق، ثم قالت في لوعة: «ما الذي حدث له؟».

قال أكيينو وهو يخطو إلى داخل البيت: «لا نعرف بالضبط، كان يواجه الذئب، ثم...».

قال الخطاب في حزم: «لا تُضيع الوقت في الثرثرة، خذه إلى غرفة نومه».

أفسحت العجوز لهما الطريق بينما يتوجهان نحو الدرج المؤدي إلى الطابق الثاني. استلقى الكلب الأسود أمام المدفأة وهو يمط جسده، فنظرت إليه العجوز في قلق، ثم صعدت الدرج إلى الطابق الثاني.

دلف أكيينو إلى غرفة نوم بارسينو، ووضع جسده بحذر على الفراش، بينما لا يزال يتصبب عرقًا، فقال أوركين: «ساعدني على خلع ثيابه». وعلى الفور خلع معطفه وقميصه، وأخيرًا قميصه الداخلي، ثم تراجع أكيينو للوراء، بينما عقد الخطاب حاجبيه، وشهقت الجدة العجوز مرةً أخرى.

على صدر بارسينو، فوق قلبه، جرح غائر في اللحم، أحمر قانٍ، ولكن بلا دماء، وبدا أنه يتوهج ويخفت بحركة رتيبة كنبضات قلب. قالت بصوت مرتجفٍ خائف: «أبعد يدك عن حفيدي!».

قال أوركين في حزم: «يجب أن تتركيني أعالجه، هذا هو السبيل الوحيد لإنقاذ حياته الآن».

بدا التردد على وجه الجدة: «ولكن... هو... لم أكن لأريد له هذا المصير».

قال الخطاب مشفقًا: «لا أحد يختار مصيره، ولكننا لسنا متيقنين بعد من أن هذا هو مصيره».

قال أكيينو في حيرة: «ما الذي تحدثان بشأنه؟».

أخرج الخطاب من جيبه كيسًا وقال: «اغلي هذه الأعشاب في بعض الماء، ثم اجلي هذا الماء لي».

ترددت الجدة للمرة الأخيرة، ثم أخذت الكيس وخرجت من الغرفة. التفت الخطاب إلى أكيينو وقال له: «افتح النافذة، لعل الهواء البارد يخفف عنه قليلًا».

فتح أكيينو مصراعي النافذة، بينما الخطاب يفتش معطف بارسينو، حتى أخرج من جيبه أوراقًا محترقة، تفتتت في يده، فترك الرقائق المحترقة تتطاير مع الهواء الذي يهب عبر النافذة.

امتقع وجه أكيينو، بينما قال الخطاب كأنها يخاطب نفسه: «إذن كان بارسينو هو من اقتحم بيتي». ثم التفت إلى أكيينو وقال له: «وهل كنتَ معه؟».

ازداد شحوب وجه أكيينو، حتى كاد أن يصير ببياض وجه بارسينو، وفتح فمه كأنها ليحجب، ولكن الخطاب قاطعه بحزم قائلاً: «لا وقت لهذا، يجب علينا أولاً أن ننقذ حياة صديقك».

كانت أنفاس بارسينو متسارعة في تلك اللحظة، وشاقة كأنها يبذل مجهودًا كبيرًا لالتقاط أنفاسه. انحنى أوركين على جسد بارسينو، واضعًا يده على جرح صدره دون أن يلمسه، تاركًا مسافة صغيرة للغاية بين يده والجرح، ثم بدأ يتمتم ببعض الكلمات.

أصغى أكيينو السمع، وحاول أن يميز الكلمات التي يقولها الخطاب العجوز، ولكنها بدت له غير مألوفة تمامًا، كأن الخطاب يتحدث بلغة أخرى غير التي يعرفها. استمر هذا لبضع لحظات، أو لعلها دقائق، فقد شعر أكيينو أنه فقد إحساسه بالوقت وهو يراقب الخطاب في فضولٍ وترقب.

وفجأة بدأ الجرح يتوهج أكثر وأكثر، مما ذكره بتوهج الأطلال عند هجوم الذئب، وعندما رفع الحطاب يده كان الجرح قد توقف عن التوهج تمامًا، وبدأ بطريقة ما كأنها ندبة لجرح قديم. والغريب أن الندبة بدت لأكينو غير عشوائية، بل على هيئة رمز ما، كالرموز المرسومة على الأطلال!

عقد حاجبيه في دهشة، ولكنه لاحظ أن أنفاس صديقه قد هدأت وانتظمت، وعندما مد يده ليلمس جبهته وجد أن حرارته قد انخفضت، وأن العرق المتكاثف عليها قد صار باردًا. أمسك أوركين بقطعة قماشية وجدها في الغرفة، وبدأ يمسح بها وجه بارسينو وجذعه، وفي تلك اللحظة دخلت الجدة وهي تسأل في قلق: «كيف حاله الآن؟».

تنهد أوركين وقال: «سيكون بخير، أتمنى هذا».

ثم أخذ منها السائل الساخن، وبدأ يسكبه برفق على جسد بارسينو فوق الجرح، وراح يمسح عليه بيده، ويتمتم بشيء ما، ثم سكب بعض هذا السائل بين شفطي بارسينو، وأغلق فمه لكي يبتلع السائل، دون أن يتوقف لحظة عن تمتاته.

وحينها رأى الحطاب شيئًا لم يره سواه، خيطًا رفيعًا باهتًا من الدخان الأسود يتصاعد من موضع الندبة، فابتسم للجدة العجوز وقال: «سيكون بخير».

\*\*\*

كان بارسينو يلهث وهو يركض بأقصى سرعة له، وقد أحس بألم شديد في صدره وساقيه، ورغم هذا أحس أنه بطيء للغاية، كأنه يركض في وحل لزج. أدرك في رعب أن الذئب تركض في إثره محاولة الفتك به والمسافة التي تفصله عنها تتقلص باستمرار مهما حاول أن يزيد من سرعته. حاول أن يصرخ طالبًا النجدة ولكنه لم يستطع أن يجد صوته، فراح يفتح فمه على اتساعه ويغلقه في صمت مما زاد من رعبه. كانت أعين الذئب نارية، واللهب يتطاير من فمها مع عواثها المخيف ومزجرتها الشرسة، وكانت تترك خطأ طويلاً من الظلال في أعقابها.

كان يركض في غابة بها أشجار عملاقة كثيفة الأغصان، والظلام الدامس يخيم على كل شيء من حوله باستثناء دائرة ضوء مجهولة المصدر تحيط به وتتبعه في عدوه، ضوء أحمر غريب، وكذلك النيران المتطايرة من فم الذئب التي تصنع ظلالاً متراقصة من جذوع الأشجار وأغصانها.

كان هناك أطلال وأعمدة في كل مكان بين الأشجار، تحمل النقوش ذاتها كأطلال قريته، ولكن نقوشها تتوهج بضوءٍ أحمر خافت فبدت مخيفة في الظلمة الحالكة. كان هناك صوتٌ يهمس في أذنه ويحثه على الهرب والإسراع إلى الأمام، صوت يتردد صداه في عقله كألف صوت، بدا كأنه لا يأتي من أي مكان ومن كل مكان في وقتٍ واحد. «اقرب». همس الصوت في عقله. «اقرب أكثر». تردد كألف صوت. «لقد آن الأوان». جاء الصوت من كل مكان ومن اللا مكان.

أوشكت الذئب على أن تعض كاحليه بأنيابها، لم يكن هناك مفر منها، سيقع فريستها لا محالة. تملك الرعب عقله، واضعًا غشاوة على الصوت الهامس الذي تردد بشكل مكتوم كأنه أخذ في الابتعاد. وفجأة رأى شخصًا أمامه، رجلًا يحمل فأسًا، وبجواره كلب أسود يتطاير اللهب من عينيه وفمه كالذئب، حاول أن يتوقف فلم يقدر على هذا، حاول أن يصرخ محذرًا: «الذئب!». ولكن الكلمات تشكلت على شفثيه دون أن يخرج صوت من فمه.

فجأة رفع بارسينو رأسه لأعلى فأدرك مصدر الضوء الغريب الذي يلاحقه، كان قرص الشمس فوق رأسه مباشرة ويلاحقه في عدوه، ولكنها ليست شمسًا ذهبية لطيفة، بل قرصًا أحمر قانيًا، كلون الدماء.

خفض بارسينو بصره فرأى الرجل يرفع فأسه بينما يقترب منه، ثم شملته دائرة الضوء المحيطة به النابذة عن الشمس الحمراء، فظهرت ملامح الرجل العجوز المتغضنة وقد انعكس عليها اللون الأحمر بشكل خفيف، ثم أدرك بارسينو في اللحظة التالية أن الرجل يهوي بالفأس ناحيته، فحاول أن يصرخ في ذعر، وفي تلك اللحظة عثر على صوته فصرخ بكل الهواء في رثيه.

\*\*\*

اعتدل بارسينو في فراشه وهو يصرخ، والعرق يتصبب على جبينه، وفي تلك اللحظة استيقظت جدته النائمة على كرسي بجوار فراشه وهي تقول: «ماذا حدث؟». ثم رأت بارسينو جالسًا على الفراش وهو يلهث بلا انقطاع كأنها كان يجري ألف ميل.

قال لها بارسينو من بين أنفاسه اللاهثة: «أعتقد... أنه كان... كابوسًا... كابوسًا مخيفًا للغاية».

نهضت أوريتا من على كرسيها وجلست بجواره على الفراش، ثم راحت تمسح على شعره وتقول: «لا تقلق، مجرد حلم، أنت بخير الآن». ثم ضمت رأسه إلى صدرها وقالت: «لا أصدق أنك استيقظت أخيرًا. كنت خائفة عليك للغاية».

أحس بارسينو بالسكينة والطمأنينة في حضنها الدافئ، ثم قال لها: «ما الذي حدث لي؟».

حكّت له جدته ما حدث منذ أن جاء به الحطاب وصديقه أكينو إلى البيت، وفي النهاية قالت: «وبعد رحيلهما جلست هنا بجوارك أنتظر استيقاظك».

قال ببطء: «إذن فقد هاجمت الذئب القرية حقًا، ولم يكن مجرد كابوس». ثم التفت إليها وقال في نبرة تحمل شيئًا من التساؤل، ولكنه لم يكن سؤالًا: «والحطاب أنقذ حياتي!». راح يتحسس موضع الندبة، وقد أحس ببعض الألم فيها.

أومأت الجدة برأسها، فلاذ بالصمت وأغمض عينيه، ثم قال بخوف: «لقد حلمت بالذئب».

قالت الجدة وهي تربت على ظهره برفق: «يا صغيري المسكين، لا شك أن هجوم الذئب على القرية قد ترك أثرًا في نفسك».

لاذ بالصمت قليلًا ثم قال: «كانت أعينها وأفواها كأنها مشتعلة بألسنة لهبٍ حمراء. لقد بدت مخيفة للغاية».

سكنت يد أوريتا التي تربت على ظهره للحظة، ثم أكملت تربيته قائلة بصوتها الحنون الدافئ: «مجرد كابوس، لا تفكر فيه كثيرًا».

تكلم بارسينو بنبرة مترددة: «جدتي...».

قالت له الجدة: «ماذا يا بني؟».

ازدرد لعابه ثم سأها: «ما الذي يوجد بداخل غابة الظلال؟».

هذه المرة صمتت أوريتا طويلًا، قبل أن تقول: «لا شيء يا بني سوى الأشجار... والظلال. لم تشغل بالك بالأمر؟».

قال لها بارسينو وهو يتذكر حلمه: «كانت الذئب تطاردني في مكان ما، يبدو وكأنها غابة ذات أشجار عملاقة، وكان الظلام دامسًا. أعتقد أنها غابة الظلال. وكانت...». تردد وهو يسترجع ذاكرته ثم قال: «وكانت الشمس حمراء قانية، وتلاحقني كالذئب».

هذه المرة أحس بيد الجدة ترتجف على رأسه، ثم لاذت بصمتٍ طويل. وأخيرًا أبعدت أوريتا رأسه عن صدرها وساعدته على التمدد في فراشه، ثم قالت وهي تدره بالبطانية: «لا تشغل بالك بالأمر، فما هي إلا

أضغاث أحلام بسبب صدمتك من هجوم الذئاب. حاول أن تحصل على قسطٍ من النوم، وهذه المرة سأدعو القمر ألا تأتيك سوى الأحلام الجميلة». أغلق بارسينو عينيه مرةً أخرى وهو يحاول أن يخلد إلى النوم، ثم قال: «هل تذكرين عندما كنت صغيراً، كنت تغنين لي التهويدات كي أنام. غني لي تهويده يا جدتي». ابتسمت أوريتا فتغضن وجهها العجوز ثم قالت: «ألم تكبر على هذه الأشياء يا باري؟». قال لها: «أحياناً ما أتمنى لو أنني لم أكبر». تجمدت الابتسامة على وجه أوريتا، ثم قالت له: «سأغني لك تهويده كنت تحبها كثيراً وأنت صغير». ثم بدأت الجدة تغني، بصوت لطيف مريح:

صغيري يا صغيري  
لا تخف من الذئاب  
ولا تسع يا صغيري  
إلى ما وراء الضباب  
قريباً يهب النسيم  
على جانب التلال  
ويستيقظ النائم  
بين الأطلال  
بعيداً تربض الوحوش  
في غابة الظلال  
تخاف من النور  
وتختبئ في الظلام  
ولكن يا صغيري  
لا تخف من الذئاب  
فقريباً تهرب الوحوش  
خوفاً من فأس الحطاب

سرعان ما غرق بارسينو في النوم وانتظمت أنفاسه، فطبعت الجدة قبلة على جبهته، ثم أطفأت المصباح الوحيد المشتعل في الغرفة وخرجت منها. هبطت درجات السلم بتؤدة إلى ردهة البيت، هنالك كانت الجمرات القليلة التي لا تزال مشتعلة تلقي بضوء خافت على الردهة، ولا تبعث بالكثير من الدفء. ومن ركن عينيها لمحت الجدة ظلاً يتحرك بسرعة ويتوارى بين الظلال الأخرى، وما إن التفتت الجدة لم تر سوى ظلال أثاث البيت على الضوء الشاحب القادم من المدفأة.

قالت الجدة بصوتها العجوز الضعيف: «يبدو أن ما حدث يؤثر على عقلي أيضاً». ولكنها لم تشعر بالاطمئنان وهي تتذكر الكابوس الذي قصه عليها بارسينو. عاد عقلها إلى ذكريات قد مضى عليها ثمانية عشر عاماً؛ وحوش بنيران في أفواهها وأعينها، وشمس حمراء مخيفة، والكثير من الدماء. هزت العجوز رأسها وقالت: «لا، لن يحدث هذا مرةً أخرى». ولكن في قلبها أحست بقبضة باردة، ونذير شؤم يلوح في الأفق.

## الفصل الخامس عشر

### التلألؤ العجيب

استيقظ بارسينو في صباح اليوم التالي وهو يأمل أن كل ما حدث في الليلة السابقة لم يكن سوى كابوس، ولكنه تحسس موضع الندبة على صدره فأحس بوخزة من الألم. كل ما حدث كان حقيقة! بدل ثيابه بأخرى جديدة، ثم هبط إلى الطابق السفلي، فرأى أن الجمرات الأخيرة من الحطب كادت أن تنطفئ، سيكون على الحطّاب أن يجلب المزيد من الحطب لبيتهم، وبيوت القرية الأخرى، ولكن بعد أن يعرف منه أولاً أين اختفى طيلة الأيام السابقة، وسر عودته في ليلة هجوم الذئاب. ولكنه شك أن الحطّاب سيخبره بأي شيء على الإطلاق.

رأته جدته فقالت: «لم خرجت من فراشك يا باري؟ عليك أن ترتاح».

ابتسم بارسينو ابتسامة شاحبة وقال: «لا تقلقي عليّ، أنا بخير».

قالت له: «سأعد لك الفطور على الفور».

فتح فمه ليقول إنه ليس جائعاً، ولكن معدته قرقرت معلنة احتجاجها، فابتسم خجلاً وجلس إلى الطاولة. وضعت الجدة أمامه رغيفاً من الخبز وقطعة من الجبن، وطبقاً من حساء ساخن لم تكن معتادة على إعداده في الفطور. قالت: «أعددت لك حساء الذرة ليعيد لك بعضاً من حيويتك».

تناول بارسينو فطوره في صمت وهو غارق في أفكاره، وما إن انتهى منه حتى توجه ناحية الباب، فقالت له جدته في قلق: «إلى أين أنت ذاهب؟».

صمت للحظة ثم قال: «يجب أن ألتقي بالحطّاب، هناك الكثير من الأسئلة التي أحتاج إلى معرفة إجاباتها».

قالت في قلق: «لست بحاجة إلى هذه الإجابات».

قال في حزم: «بل بحاجة إليها أكثر من أي شيء آخر». وقبل أن تجادله جدته كان قد خرج من البيت، وأغلق الباب وراءه.

توارت الشمس وراء السحب، فصار الصباح قائماً وكئيماً، وراحت الرياح تصفع جسده، فأحكم معطفه حول جسده. ما إن رأى الأطلال حتى تذكر الليلة الماضية، تلك اللحظة التي ومضت فيها الأطلال بوميض أحمر، قبل أن تنفجر الذئاب أمام عينيه، ثم تذكر الأطلال المتوهجة بالضوء الأحمر في حلمه، وتلك الشمس الحمراء القانية، وهو يتساءل عن مغزى هذا الحلم.

إن كان هناك أحد يعرف فهو الحطّاب، قالها لنفسه وهو يسرع الخطى عبر الشوارع والدرجات الصخرية.

كان هناك بعض الناس في الشوارع، وبدأ أنهم ينظرون إليه بخوفٍ أكثر من المعتاد، أو بالأحرى يتحاشون النظر إليه. كانوا جميعاً يسرعون ناحية الشرق، فتساءل إلى أين هم ذاهبون، ثم أدرك أنهم متوجهون ناحية ساحة الصلوات، حيث سيدفنون جثث الموتى، ويصلون للشمس من أجلهم.

قرر أن يتوجه إلى هناك، فبدأ يسير مع تيار الناس المتدفق، الذي يزداد عددًا مع تقدمه، والناس تنضم إليهم من أماكن متفرقة من القرية، ويختلسون إليه النظر في مزيج يجمع ما بين الدهشة والفضول والخوف. وصلوا إلى سور القرية فتفاجأ بارسينو لرؤيته متحطماً في أماكن عديدة، وعليه آثار احتراق متفرقة، حتى إن

الناس لم تكن بحاجة للمرور عبر البوابة. لا شك أن السور قد تحطم في الليلة السابقة أثناء الهجوم، جعله هذا يشعر بالقشعريرة في جسده، إن كان السور لا يقدر على حمايتهم فأى شيء يحميهم؟  
تلمس بعض الشجاعة من دفء الشمس المتسلل من بين السحب، وواصل سيره حتى وصل إلى سفح التل حيث توجد ساحة واسعة، خالية من الحشائش أو الأشجار، أو حتى الأطلال، تتناثر فيها شواهد القبور. رأى شواهد قبور تبدو جديدة، فأدرك أنهم قد انتهوا من دفن جثث ضحايا حادثة أمس.  
لقد اعتاد المجيء إلى هذا المكان في صغره مع جدته من آنٍ لآخر، ولكنه لم يأت منذ بضع سنوات، بعد أن كبرت جدته وصارت غير قادرة على الكثير من الحركة، فلا تغادر البيت إلا نادراً، ولا يكون هذا إلا لزيارة إحدى الجارات في الشارع.

مشى بين شواهد القبور، حتى وقف أمام شاهدي قبر، يحمل أحدهما علامة الشمس، والآخر علامة القمر، لم يكن يجيد القراءة ولكنه يعرف الرموز المكتوبة تحت الشمس والقمر، نامار وأميلدا، اسمي أبيه وأمه. وقف أمامهما وهو يقول: «أى سر يحمله موتكم؟».

وفجأة سمع صوتاً من ورائه يقول: «لم أعتقد أنك ستأتي إلى هنا».  
التفت على الفور، فرأى صديقه أكينو الذي أسرع نحوه ليعانقه، ثم قال له: «سعيد لرؤيتك بخير يا صديقي، كنت تبدو في حالة سيئة تماماً ليلة أمس».

انتزع بارسينو نفسه من عناق صديقه وهو يقول: «لم يحدث لي شيء سيئ إلى هذه الحد، لحسن الحظ أن الذئب لم تهاجمني، ولكن ما يقلقني حقا هو ذلك الطيف...».  
بتر جملة فسأل أكينو عاقداً حاجبيه: «الطيف؟».

تردد بارسينو قليلاً ثم قال: «الطيف الذي حدثك عنه من قبل وقلت لك...». صمت للحظة ثم نظر إلى عيني صديقه وقال: «لم تره بالأمس؟».

قال أكينو وهو يعقد حاجبيه: «كان هناك العديد من الأشياء الجنونية، الذئب، والأطلال تومض بالضوء الأحمر، كان الأمر فوضوياً».

تحسس الندبة وهو يفكر في الضوء الذي شعر به ينبعث منه، وكان على وشك أن يسأل صديقه عنه، ثم فكر أنه بالتأكيد لم يره مثلما لم ير الطيف وإلا لكان قد تحدث عنه.

ساد بينهما الصمت لبضع لحظات، قبل أن يقول أكينو: «لقد عرف الحطاب أننا من اقتحمنا بيته».  
وضع بارسينو يده على صدره، في الموضوع الذي كان فيه الكتاب، وأحس بالألم الحارق ينبعث منه. إن كان الحطاب هو من أنقذ حياته، فلا شك أنه عرف بشأن الكتاب. سأل بوجوم: «وماذا قال؟».

هز أكينو رأسه وقال: «لم يقل شيئاً بعد، ولكنني أردت أن أعلمك بأنه قد عرف».  
أوماً بارسينو برأسه وهو يقول: «لا بأس، هناك الكثير مما أرغب في الحديث بشأنه مع الحطاب على أي حال».

قال أكينو: «هل ستخبره بشأن الأشياء التي تراها؟».

قال بارسينو: «لقد أخبرته بالفعل».

صاح أكينو: «حقاً!». التفت الناس ناحيته في استنكار، فعادة لا يرفع أحد صوته في ساحة الصلوات. خفض صوته على الفور وهو يتساءل في همس: «وما الذي قاله لك؟».

قال بارسينو في مرارة: «لم يجيني سوى بالمزيد من الألغاز». ثم أضاف بحزم: «ولكن هذه المرة لن أتركه دون أن يمنحني بعض الإجابات».

قال أكيينو فجأة: «مهلاً، لقد جاء العمدة».

التفت بارسينو وراءه فرأى العمدة يقترب من ساحة الصلوات في وقار، يلحق به الحاجب أوثار، وحامل الكتاب، ورجال الشعائر في ثيابهم السوداء. خيم الصمت على الجميع وهم يفسحون لهم الطريق. صمت بارسينو وأكيينو بدورهما، وهما يراقبان هذا الموكب المهيب، حتى وقف العمدة أمام شواهد القبور الجديدة، ثم فتح الكتاب الضخم، وبدأ يتلو من صفحاته ابتهالات للشمس كي تحمل ببركتها الأرواح الضائعة إلى العالم الآخر، في رحلتها من المشرق إلى المغرب.

شرد عقل بارسينو كعادته كلما استمع لواحدة من خطب العمدة، وهو يفكر فيما حدث بالأمس بينما ينظر إلى الأفق بعينين شاردتين، نحو غابة الظلال، التي لم تكن بعيدة تمامًا عن ساحة الصلوات.

في تلك اللحظة أطلت الشمس من وراء السحب ملقية بأشعتها الشاحبة على الساحة، وفجأة خيل إليه أنه يلمح شيئاً ما في الأفق، شيئاً لم ير مثله من قبل، كأنها هو ضوء ينعكس على سطح ماء متموج. بريق خافت ولا يكاد أن يكون ملحوظاً، ولكن بارسينو كان مستعداً لأن يقسم بأنه لم يره من قبل.

تبعه بنظره محاولاً أن يعرف أوله من آخره، ولكنه بدا كسراب كلما حدق إليه تالشي، كلما حاول أن يحكم قبضته عليه تسلل من بين أصابعه. راح يدور ببطء حول نفسه متتبعاً هذا اللمعان، بدا له أنه يفصل ما بين القرية والغابة، ويحيط بالقرية كلها من أقصى الأفق إلى أقصاه الآخر.

فجأة أمسك أكيينو بكتفه وقال له: «ماذا دهالك؟ ألا تصغي إليّ؟».

التفت بارسينو إليه وقال: «هل كنت تقول شيئاً؟».

قال أكيينو: «كنت أسألك فيم أنت شارد؟ ولم تتلفت حولك هكذا؟».

نظر بارسينو ناحية الأفق مرة أخرى وأشار بإصبعه قائلاً: «هل ترى هذا؟».

نظر أكيينو إلى حيث يشير ثم قال في حيرة: «أرى ماذا؟».

قال بارسينو في نفاذ صبر: «هناك، بالقرب من الغابة، هذا التلألؤ العجيب، هل تراه؟».

أمعن أكيينو النظر وهو يضيق عينيه، ثم قال: «عن أي تلالؤ تتحدث؟ لا أرى شيئاً».

رفع بارسينو بصره: «إنه يبدو كأنه يحيط بالقرية، كأنه في كل مكان. انظر هناك».

كان يشير بإصبعه بإلحاح، ولكن فجأة احتجبت الشمس وراء سحابة أخرى، ولم يعد الهواء يتلألأ بغرابة فعمد حاجبيه وقال: «لقد اختفى!».

قال له أكيينو: «هل أنت واثق من رؤيته».

قال بارسينو بحدّة: «أنا واثق أنني قد رأيته». ثم قال في قرارة نفسه بمرارة: لعله مثل ذلك الطيف، لا أحد يراه سواي، أو ربما أفقد عقلي حقاً.

قال له أكيينو: «على رسلك يا صديقي، أنا أصدقك، ولكن يزعجني فقط أنني لا أرى ما تراه».

كان العمدة قد أنهى خطبته، ولاحظ أكيينو أن أمر يد ينظر ناحيتها، ف جذب صديقه من يده وقال: «هيا بنا ننصرف من هنا».

قال بارسينو في دهشة: «ماذا دهالك؟».

قال له: «سأحكى لك لاحقاً».

وبعد أن ابتعدا عن ساحة الصلوات، حكى له أكيينو ما قاله العمدة في ليلة الأمس، وكذلك ما قاله السيد نيريو والسيد طابيو، فأحس بارسينو بالدماء تغلي في عروقه، ولكن ما إن عرف بما قالته كينورا حتى هدأ قليلاً، ثم أخذ يفكر فيما قاله العمدة، قبل أن يلتفت لصديقه ويقول: «لن نفهم حل هذا اللغز إلا إذا عرفنا ما

بين العمدة والخطاب، وربما تكون البداية هي معرفة سر اختفاء الخطاب لسبعة أيام، وعودته في هذا التوقيت».

قال له أكينو: «وكيف ستعرف هذا؟».

حدق بارسينو ناحية الأفق، وخيل إليه أنه يرى التلألؤ العجيب مرةً أخرى، فقال: «لست واثقاً بعد، ولكن يجب أن أعرف». ثم تذكر الكابوس الذي حلم به، فقال لصديقه: «أتعرف لقد حلمت بشيءٍ غريب». ثم حكى لصديقه الكابوس الذي راوده قبل أن يقول: «ولكن هناك شيئاً رأيتُه لم أحكِه لجدتي؟».

حدق إليه أكينو وهو يقول متسائلاً: «أي شيء هذا؟».

قال بارسينو دون أن ينظر إليه: «لقد رأيت الخطاب». ثم تردد قليلاً قبل أن يضيف: «كان بصحبة كلبه الأسود، وقد رفع فأسه كأنه يحاول قتلي».

تساءل أكينو في دهشة: «ولمّ قد يحاول قتلك؟ لا شك أنها هلوسات كابوس».

هز بارسينو رأسه وقال: «لا أعرف، ولكن ما قلته لي عن حديث العمدة بشأن الشر الكامن في القرية قد ذكرني بالكابوس».

قال أوركين مفكراً: «إذن فأنت تعتقد أنه يقصد الخطاب أوركين بهذا الشر الكامن؟».

تنهد بارسينو وقال: «هل نسيت ما قاله لنا العمدة عن الخطاب؟».

قال أكينو: «أجل، ولكن... لا يمكنني استيعاب الأمر حقاً».

قال بارسينو: «ولا أنا، ولكني لا أعتقد أن الأمر كما يظنه العمدة».

قال أكينو وهو يتمطى: «لقد تعب رأسي من كل هذه الحيرة والأسئلة، تعال نذهب إلى الحانة».

قال بارسينو في امتعاض: «لن أخطوها بقدمي بعد ما أخبرتني بما قاله طابيو بالأمس».

تنهد أكينو ثم قال: «إنه وغد حقاً، على أي حال لا يزال الوقت مبكراً على الذهاب إلى الحانة. قل لي ماذا ستفعل؟».

نظر بارسينو ناحية قمة التل البعيدة وقال: «سأذهب لمواجهة الخطاب مرةً أخرى».

ظهر القلق على محيا أكينو وهو يقول: «لا أعتقد أن هذا قرار صائب».

ابتسم بارسينو وقال: «لم؟ ألا يجب عليّ شكره لإنقاذ حياتي». ثم راح يراقب الدخان المتصاعد من بعض بيوت القرية الأقرب إلى الساحة، بينما بيوت أخرى لا يتصاعد منها إلا خيوط رقيقة من الدخان، أو لا دخان على الإطلاق، قبل أن يقول: «كما أننا بحاجة إلى المزيد من الخطب».

قال له أكينو: «سأتي معك إذن».

رفع بارسينو يده وقال: «لا، من الأفضل أن أذهب إليه وحدي».

ودون أن ينتظر إجابة من صديقه بدأ يمشي صاعداً التل، ستكون مسافة طويلة من ساحة الصلوات قرب السفح وحتى قمة التل، ولكنه لم يتراجع أو يتوان.

عندما اقترب من بيت الخطاب أحس بقشعريرة باردة وهو يخطو بين الأطلال، متذكراً الأطلال الحمراء في كابوسه، ولكنه نفص الفكرة عن رأسه وهو يقترب من البيت، وقد أحس بالارتياح عندما رأى الدخان يتصاعد من مدفأته.

نظر وراء التل فرأى التلألؤ العجيب ظاهراً من بعيد، متموجاً في هدوء عاكساً أشعة الشمس. ظل محققاً إليه لبعض الوقت، ثم التفت مجدداً إلى البيت الساكن وبدأ يسير مقترباً منه.

توقف أمام البيت، ثم تردد وهو يرفع يده، قبل أن يطرق الباب بهدوء. لم يجبه سوى الصمت، فتردد مرة أخرى قبل أن يطرق الباب بقوة أكبر. لا شيء. لا أحد في البيت، هكذا قال لنفسه. لعله ذهب إلى الغابة ليجلب الحطب. كاد أن يستدير عائداً، ولكنه سمع صوتاً، نباح كلب آتياً من وراء الباب. أوركين لا يزال بالداخل إذن إن كان كلبه هناك، فهو لا يخرج بدون برق ولا يفارقه.

صمت النباح فانتظر قليلاً، هل سيفتح العجوز الباب؟ لم يحدث هذا، فقرر أن يطرق الباب مرة أخرى. هذه المرة جاء صوت أوركين يقول في انزعاج: «من هناك؟ ماذا تريد؟». كان صوته غاضباً، ولكنه لم يكن يصرخ، بل خيل لبارسينو أن صوته ضعيف، ويحمل تعباً شديداً. ازدرد بارسينو لعابه ثم قال: «هذا أنا». جاء صوته مبوحاً وكاد ألا يسمع نفسه، فتنحج وقال: «أنا بارسينو».

ساد الصمت لبضع لحظات بدت بالنسبة له كالدهر، قبل أن يسمع صوت انزياح المزلاج، ثم انفتح الباب أمامه ببطء.

من وراء الباب رأى الحطّاب العجوز يقف متوكئاً على عصا خشبية غليظة، وقد بدا على وجهه الشحوب والضعف الشديد، وبجواره كلبه الأسود يحرق بدوره إلى بارسينو. سأله أوركين بصوتٍ متعب: «ماذا تريد يا فتى؟». قال بارسينو متسائلاً في قلق: «هل أنت بخير؟». نظر إليه الحطّاب للحظة، ثم قال: «أنا بخير، لا تشغل بالك. ولكني لا أفترض أنك جئت فقط للاطمئنان علي».

قال بارسينو: «في الحقيقة جئت لك لأن لدي بعض الأسئلة...». قاطعه الحطّاب ملوحاً بيده في لا مبالاة، ثم أشار له بأن يدخل، فخطا عبر الباب بخطواتٍ مترددة. كانت النافذة مغلقة، والمدفأة مشتعلة والحطب يقطع بداخلها.

تلاشت قشعريرة البرد من جسد بارسينو مع النيران، ولكن قشعريرة غامضة أخرى كانت تزحف ببطء على عموده الفقري. أدرك سببها على الفور، إنه يخاف من الحطّاب، لا يزال يذكر هذا المشهد والحطّاب يرفع فأسه كأنه سيهوي به عليه. سأل نفسه: لماذا جئت إلى هنا إذن؟ فجاء الجواب إليه على الفور: لأن لديّ أسئلة، وأنا بحاجة إلى إجابات.

عاد العجوز إلى حجرة نومه، وجلس على فراشه، فلحق به كلبه على الفور واستلقى بجوار الفراش باسطاً ذراعيه. ظل بارسينو واقفاً في موضعه للحظات، ثم خطا ناحية الحجرة ولكن العجوز قال له وهو يستلقي بظهره على الفراش: «فلتعد لنا بعض الشاي. هل يمكنك فعل هذا؟».

أوماً بارسينو برأسه، ثم وضع غلاية الماء في موضعها فوق المدفأة، وراح يبحث عن علبة أعشاب جذور الشمس. سرعان ما عثر عليها، ومع غليان الماء وضع الأعشاب فيه وانتظر لدقيقة، قبل أن يمسك الغلاية بقطعة قماشية سميكّة، ويصب السائل في كوب فارغ. فكر للحظة ثم صب لنفسه كوباً وهو يقول لنفسه: لا صير من هذا.

حمل الكوبين وتوجه إلى حجرة الحطّاب الذي قال فور أن رآه: «أرى أنك أعددت لنفسك كوباً، أحسنت».

كان أوركين شاحباً للغاية، وضعيفاً للغاية، لم يره بارسينو هكذا من قبل رغم السنين التي حفرت آثارها على وجه الحطّاب المتغضن، لطالما بدا مليئاً بالحياة.

شاهده بارسينو وهو يرتشف الشاي ببطء قبل أن يتنهد في ارتياح، فارتشف رشفة من كوبه بدوره ثم قال: «ما الذي حدث لك؟».

واصل أوركين ارتشاف الشاي كأنه لم يسمع السؤال، ثم قال أخيرًا: «وكأنك نسيت أن وحوش الظلال هجمت على القرية بالأمس».

ارتجف بارسينو عند سماعه لكلمة وحوش الظلال، وكأن الخطاب يؤكد الأفكار التي تدور في عقله، ثم قال له في حيرة: «ولكنك لم تكن هناك عندما هجمت الذئاب، بل لم تكن موجودًا طيلة الأسبوع الماضي، فأين كنت؟ ولم عدت في هذا التوقيت بالذات؟».

ضحك أوركين ضحكة مقتضبة متعبة ثم قال: «يبدو أن لديك عادة طرح الكثير من الأسئلة. على أي حال، لو لم أعد للقرية في الوقت المناسب لأمست الكارثة أعظم، كما أنني أنقذت حياتك بالأمس».

قال بارسينو في خجل: «أعرف ولهذا جئت لكي أشكرك على هذا».

ارتشف الخطاب ما تبقى من الشاي قبل أن يضع الكوب الفارغ على طاولة صغيرة بجانب السرير، ثم قال له: «ألهذا جئت فقط؟».

هز بارسينو رأسه، ثم قال له وهو يضع الكوب جانبًا بدوره: «لقد رأيت ذلك الطيف الذي حكيت لك عنه من قبل، لقد جاء مع هجوم الذئاب». ثم صمت قليلًا قبل أن يقول: «لقد لمسني الطيف، فشعرت بألم شديد في قلبي، وضوء باهر ينبثق مني، وبدأت الذئاب تنفجر في دخان أسود، ثم اختفى الطيف، ولكن الدخان لم يختفِ، بل أحسست به يحاول اختراق جسدي، قبل أن أغيب عن الوعي». وفي هذه اللحظة ارتجفت يد أوركين المسكة بالكوب، ولم تغب هذه الارتجافة عن عيني بارسينو.

قال له الخطاب ببطء: «هل ترى أي شيء غريب اليوم؟».

اتسعت عينا بارسينو، هل يعقل أن العجوز يقصد... التلألؤ العجيب؟ قال على الفور: «أرى تلالؤًا عجيبًا يحيط بالقرية كلها، أشبه بسور من ماء، إن كان من المعقول أن يوجد شيء كهذا، يتلألأ عندما تنعكس عليه أشعة الشمس...». وفي تلك اللحظة لم يعد في قلبه شك أن يد العجوز ترتجف.

قال العجوز في وجوم: «لا تخبر أحدًا عن رؤيتك لهذه الأشياء، لا التلألؤ العجيب كما تسميه، ولا الظلال التي تلاحقك. لا تخبر أميرد بها على وجه الخصوص». ثم صمت قليلًا قبل أن يقول: «ولا تخبر جدتك بها أيضًا».

سأله بارسينو في دهشة: «لماذا؟ ما هذه الأشياء؟».

أرخصي الخطاب رأسه إلى الوراء وهو يقول: «سأخبرك بكل شيء في الوقت المناسب». قال بارسينو في ضيق: «قلت هذا في المرة السابقة حين أخبرتك عن الطيف، ولم تخبرني بشيء حتى الآن. على الأقل أخبرني هل التلألؤ والطيف وكل هذه الأشياء حقيقية؟ ألا أتخيل رؤية هذه الأشياء؟».

صمت أوركين قليلًا ثم قال: «لا، لا تتخيلها، ولكني لا أستطيع أن أخبرك بشيء قبل أن أفكر في الأمر، وأنا متعب الآن. لاحقًا سأجيب عن كل أسئلتك».

صمت بارسينو قليلًا وهو يتأمل الكلب الأسود النائم، ثم تتم قائلًا: «غابة الظلال». ثم حدق إلى عيني الخطاب وقال: «أخبرني، هل يوجد المزيد من الأطلال في غابة الظلال؟».

هذه المرة تيقن بارسينو من وجود شيء ما في عيني الخطاب العجوز، مزيج من الدهشة والخوف، تلاشى سريعًا قبل أن يسأله بجديّة: «كيف عرفت بهذا؟ من أخبرك به؟».

تفاجأ بارسينو من هذا التغير المباغت الذي طرأ على الخطاب، فقال متلعثماً: «لقد رأيت هذا... أعني رأيته في الحلم... بل كان كابوساً».

عاد أوركين إلى هدوئه على الفور، فاعتدل في جلسته وقال: «أخبرني بهذا الحلم... الحلم». في البداية أحس بارسينو أنه لا يتذكر الكثير من تفاصيل الحلم، ولكن شيئاً فشيئاً بدأ يسترجع ذاكرته. قال بشرود: «كنت في مكان ما، أعتقد أنه غابة الظلال، وكان هناك الكثير من الأطلال، نقوشها حمراء مضيئة. كانت الذئب تطاردني، أعينها وأفواهها مشتعلة بالنيران، والشمس حمراء دامية».

مع كل كلمة كان اهتمام أوركين بحديثه يتزايد، حتى بلغ الشمس الحمراء فاتسعت عيناه. تردد بارسينو قبل أن يقول: «كان هناك صوتٌ يخاطبني، يهمس في أذني بشيءٍ والذئب تطاردني». مال أوركين للأمام ممسكاً بكتفيه وهو يقول بحدة: «ماذا قال الصوت؟ أخبرني!».

جفل بارسينو من ردة الفعل المفاجئة، وحاول أن يتراجع ولكن الخطاب كان يمسك به بقوة. أحس بالذعر وهو يتذكر نهاية الحلم، وهنا رأى أوركين الفزع في عيني الفتى فترك كتفيه على الفور وهو يقول: «أعتذر، لم أقصد هذا، ولكن يهمني معرفة ما حلمت به».

اعتصر بارسينو ذهنه، كان الحلم يحاول الإفلات من أصابعه كلما أمسك به، ولكن الكلمات بدأت تعود إليه، صوت يتردد صداه في عقله كألف صوت، بدا كأنه لا يأتي من أي مكان ومن كل مكان في وقتٍ واحد. قال ببطء: «اقرب، اقرب، فقد آن الأوان».

استرخى أوركين في فراشه مرةً أخرى ببطء، ثم أغمض عينيه وتنهد طويلاً، فأحس بارسينو بالحيرة، لم يفهم ما الذي استنتجه الخطاب من حلمه.

ثم ساد الصمت للحظات، قبل أن يقول بارسينو: «كنت في الحلم، لهذا جئت إليك». فتح الخطاب عينيه وسأله: «أنا؟ ماذا رأيت؟».

نظر بارسينو إلى برق ثم أعاد نظره إلى أوركين وقال: «رأيتك في نهاية الطريق، تحمل فأسك، وكلبك بجوارك، بعينين وفم تتطاير منهم النيران كالذئب». ثم تردد قليلاً، قبل أن يقول: «لقد رفعت فأسك، وخشيت أن تحاول قتلي، ولكنني استيقظت».

ضحك أوركين ضحكة مريرة ضعيفة وقال: «لن أحاول قتلك، لا تقلق». ثم عقد حاجبيه وأضاف بقلق: «ولكن أخشى أن يكون الحلم نذيراً، وأن يكون الأوان قد آن حقاً».

أحس بارسينو بالحيرة مع تلك الألغاز التي تشابك حوله، وتمنى لو يخبره الخطاب بحل كل هذه الألغاز ويريحه من حيرته وفضوله. قال له: «أي أوان قد آن؟».

فقال الخطاب باستسلام: «أوان الرحيل عن القرية».

جحظت عينا بارسينو في دهشة شديدة وقال: «الرحيل عن القرية؟ إذن فقد كان العمدة محقاً؟». نظر إليه أوركين متسائلاً، ثم قال: «ما الذي قاله العمدة؟».

اكتسى وجه بارسينو بالخرج، كان يخشى الوصول إلى هذه النقطة منذ مجيئه إلى بيت الخطاب، ثم قرر أن يزيح هذا العبء من على صدره، فحكى له ما حدث من اقتحامه وصديقه لبيته، وأخذه للكتاب، ثم حديثهما مع العمدة في اليوم التالي.

بعد أن انتهى من حديثه ساد الصمت الثقيل بينهما، وبارسينو ينتظر أن يقول الخطاب العجوز شيئاً، ولكنه لم ينبس ببنت شفة، فسأله بارسينو: «هل أنت غاضب؟».

هز الحطّاب رأسه وقال: «لا. ربما كنت غاضبًا حينها لأنني ظننت أن العمدة يعبث ببיתי، ولكنني الآن سعيد لأنك فعلت هذا، ربما يكون هذا الكتاب هو ما أنقذ حياتك».

تحسس بارسينو موضع الندبة، ثم قال له: «ما الذي كان موجودًا في ذلك الكتاب؟ ما الموجود في تلك الكتب التي تمتلكها؟ كيف أنقذ الكتاب حياتي؟».

تنهد أوركين ثم قال: «أشياء عديدة للغاية، سحر قديم، والتاريخ المنسي لهذا المكان».

اتسعت عينا بارسينو وقال: «سحر؟». هل الحطّاب ساحر حقًا كما يزعم قاطنو القرية؟

كان على وشك أن يطرح المزيد من الأسئلة، فرفع الحطّاب يده وقال: «إن أردت أن تعمل معي حطّابًا فسيكون عليك تعلم القراءة».

أحس بارسينو بالصدمة عندما سمع كلمات الحطّاب، ثم قال له في عدم تصديق: «ستسمح لي بالعمل لديك حطّابًا؟».

قال الحطّاب: «لم أحسم قراري بعد، ولكن قد لا يكون هناك مفر من هذا. فلتعد إلى بيتك الآن، ولاحقًا سيكون بيننا حديث طويل بعد أن أتعافى. أنت أيضًا ما زلت بحاجة للتعافي».

أحس بارسينو بالاضطراب؛ لم يُجب الحطّاب عن أسئلته، بل وأثار في صدره المزيد من الأسئلة، ولا يعرف بعد إن كان صادقًا في قوله بأنه سيجعله يعمل لديه حطّابًا، ليس أمامه سوى أن يأمل فقط في أن يكون الحطّاب صادقًا.

قال له: «ألن تخبرني الآن على الأقل أين كنت؟».

قال الحطّاب العجوز: «كنت في غابة الظلال؟».

قال بارسينو في حيرة: «طيلة الوقت؟ ما الذي كنت تفعله؟».

قال له أوركين بحزم: «ستعرف كل شيء في أوّانه».

أدرك بارسينو أن هذه هي نهاية النقاش، فقال له: «حسنًا، أتمنى أن تستعيد عافيتك سريعًا، والآن أستميحك عذرًا».

ودون أن ينتظر إجابة أدار ظهره للحطّاب وأسرع ليغادر البيت.

وقف بارسينو بين الأطلال ينظر إلى القرية عبر جانب التل، وإلى غابة الظلال في الأفق البعيد، وهنا رأى هذا التلألؤ، يبدو أقوى من ذي قبل. إنه لا يتخيل الأمر، صار واثقًا من أنه يراه، ولكن... ما معنى كل هذا؟

## الفصل السادس عشر

### غابة الظلال

عندما عاد بارسينو إلى البيت كان هناك مفاجأة في انتظاره. ما إن دلف من الباب حتى رأى شعراً أحمر مألوفاً؛ كينورا! كانت جالسة في الردهة، وأمامها الجدة، تتحدثان في شيء ما، وحين سمعت كينورا صوت الباب التفتت ناحيته وقد أشرق وجهها.

تسارعت نبضات قلبه وهو يسألها: «كينورا! ما الذي تفعلينه هنا؟».

ابتسمت وقالت: «كنت في انتظارك».

قال في تساؤل: «تنتظريني؟ لماذا؟».

تنحنحت ثم قالت: «لقد جئت لكي أطمئن عليك، أنا سعيدة لرؤيتك بخير حال».

بادلها الابتسام وقال: «وأنا أيضاً سعيد لرؤيتك بخير».

نقلت الجدة بصرها بينهما، ثم قالت: «سأعد لكما شيئاً لتشرباه».

أوما لها بارسينو برأسه، ثم قال لكينورا بمجرد أن ابتعدت الجدة: «صدقاً، ما الذي جاء بك؟».

قالت: «جئت لكي أشكرك يا باري، فلولا شجاعتك بالأمس لنالت تلك الوحوش مني ومن أبي».

تلاشت الابتسامة من على وجهه عندما ذكرت أباه، فقالت له على الفور: «أخبرني أكينو برغبتك في عدم المجيء إلى الحانة بعد معرفتك بما قاله أبي بالأمس، ولكن صدقني لقد لُتته على ما قاله، وإن كان هناك شخص واحد في القرية يستحق المجيء إلى الحانة فهو أنت».

أجبر بارسينو نفسه على الابتسام وهو يقول: «يكفيني مجيئك إلى البيت بنفسك، ولكنني لا أعتقد أنني سأعود إلى الحانة في القريب العاجل».

تنهدت وقالت: «أعرف أنك ستأتي يوماً ما». ثم أضافت مازحةً: «كما أن هناك مباراة بينك وبين أبي لم تُحسم بعد».

هذه المرة ابتسم ابتسامة صادقة وقال: «لقد أنقذه ما حدث من خسارته الوشيكة، ولكن أعدك أنني سأهزمه يوماً ما».

بادلته الابتسام للحظات قبل أن تعتدل واقفة وهي تقول: «يجب أن أعود إلى الحانة».

قال محتجاً: «ولكنك لم تشربي شيئاً بعد».

قالت وهي تمشي ناحية الباب: «مرة أخرى».

وقبل أن يجد بارسينو فرصة للاعتراض كانت قد فتحت الباب، ولوحت له بيدها مودعة، ثم أسرع مبتعدة، وشعرها الأحمر يخفق من ورائها.

تابعها بارسينو بعينيه حتى توارت عن ناظريه قبل أن يغلق الباب.

في المساء أشرق القمر، هلالاً رفيعاً فحسب، شقاً فضياً في السماء السوداء، ولكنه كان كافياً لمنحه شعوراً بالأمان.

لقد خشي أن تزوره الكوابيس، ولكنها لم تزره هذه الليلة، فنام نوماً عميقاً مطمئناً.

في الصباح خرج من بيته هابطاً جانب التل حتى عبر السور الخشبي بينما مجموعة من الرجال منهمكون في إصلاحه، ثم توجه إلى الحقول بحثاً عن صديقه أكينو. ما إن اقترب من الحقول حتى صار التلألؤ المحيط بالقرية أشد قوة، ولم يعد قادراً على تجاهله. راح يفتش عن صديقه حتى وجده في أحد الحقول يحرق التربة بالفأس، وعروقه نافرة، والعرق يتصبب على وجهه. كان السيد أسيهار هناك أيضاً، ولكنه لم يقل له شيئاً، بل تجاهل وجوده تماماً كأنها لم يره.

اقترب بارسينو من صديقه، الذي لم يشعر به إلا بعد أن صار واقفاً بجواره، وما إن انتبه إليه حتى قال في دهشة: «منذ متى وأنت هنا يا باري؟».

قال بارسينو في شرود: «منذ قليل، جئت لكي أتحدث معك».

اختلس أكينو النظر ناحية السيد أسيهار ثم قال: «لا بأس، انتظري فقط حتى أنتهي من عملي».

قال بارسينو: «لا بأس، عندما تنتهي من عملي ستجديني في آخر الحقول».

مشى بخطوات متثاقلة ما بين الحقول، بعضها محروث ولم يزرع بعد، وبعضها تتمايل فيه النباتات الخضراء، ورائحة الفاكهة الطازجة تنبعث منها. ولكنه لم يكن متنبهاً لهذا، فقد كان التلألؤ هو كل ما يشغل عقله، وخصوصاً بعد أن أكد له الحطاب أن كل ما يراه حقيقة، ولكن... لم هو من دون سواه؟

وماذا عن حديث الحطاب بشأن الرحيل عن القرية؟ أي شيء هذا حقاً؟ أكان العمدة صادقاً في حدسه؟ وإن كان الأمر كذلك فإلى أين يمكن أن يرحلوا؟ إنه لا يعرف سوى القرية، ولا أحد يعرف مكاناً سواها.

كانت الأرض تزداد انبساطاً بينما يقطع الحقول التي تفصل ما بين القرية وغابة الظلال، حتى وصل إلى آخر الحقول، ولم يعد هناك سوى مساحة خاوية من أي شيء تفصل بينه وبين أول أشجار الغابة، وقبل الأشجار كان هناك هذا التلألؤ، الذي كان أكثر قوة ووضوحاً عن ذي قبل، كأموج من الضوء الخافت تنحسر وتلاطم.

بدأ يمشي بخطوات بطيئة مقترباً منه كالمسحور، وكلما اقترب منه ازداد بريقاً، حتى صار واقفاً أمامه مباشرة، وخيل إليه أنه يستطيع أن يرى انعكاس صورته فيه.

هل يمكن أن... يلمسه؟ اقترب أكثر وأكثر، خطوة بطيئة تلو الأخرى، وهو يمد يده أمامه في ترقب وفضول... وخوف. ثم لمست أنامله التلألؤ العجيب فأحس بقشعريرة باردة تسري في جسده. سحب يده للوراء على الفور كأن أفعى قد لدغتها.

فجأة سمع صوتاً يناديه من ورائه: «باري! بارسينو!».

التفت فوجد أكينو يأتي مهرولاً، وما إن اقترب منه حتى صاح فيه: «هل جننت؟ ما الذي دفعك إلى الاقتراب من غابة الظلال إلى هذا الحد؟».

التفت بارسينو إليه، ثم التفت إلى التلألؤ مرة أخرى، ومد يده ليخترقه بها كلها هذه المرة. أحس بالتلألؤ يدغدغ يده، ولكنه لم يجذبها على الفور، بل تركها للحظات قبل أن يترك ذراعه تهوي إلى جانبه.

قال أكينو وقد صار بجواره: «هل فقدت عقلك؟».

التفت بارسينو إليه وقال: «تعال المس هذا».

قال أكينو في حيرة: «ألمس ماذا؟». ثم مد يده إلى حيث يشير بارسينو ولكنه لم يشعر بشيء على الإطلاق.

قال بارسينو في إحباط: «ألا تشعر به؟».

هز أكينو رأسه نفيًا، فتقدم بارسينو للأمام واخترق التلألؤ بجسده. أحس بالدغدغة تسري في جسده كله، ثم صار على الجانب الآخر، محدقاً إلى غابة الظلال، أشجارها العملاقة وظلالها المتشابكة تبدو مخيفة، ورغم

هذا أحس بشيء يجذبه ناحيتها.

خطا بارسينو بخطوات مترددة ناحية الغابة، فأسرع أكينو ورائه يجذبه من ذراعه وهو يقول: «إلى أين تظن نفسك ذاهب؟».

ولكن بارسينو خلص ذراعه من قبضته بقوة وهو يقول: «إن كل الألغاز تلتقي في هذه النقطة؛ غابة الظلال، الحطاب الذي يدلغ إليها دون غيره، الذئب التي تأتي منها، الحلم الذي راودني عنها. لم يتعلق كل شيء بهذه الغابة؟».

صاح أكينو في غضب: «إنها مجرد غابة لعينة!».

تقدم بارسينو خطوة للأمام: «سأعرف بنفسني ما تحويه هذه الغابة، ولن أنتظر إجابة من الحطاب».

سأله أكينو: «أحدثت مع أوركين بالأمس؟».

أوما بارسينو برأسه وقال: «أجل، وقال لي إن الظلال والتلألؤ وكل ما أراه حقيقة لا وهماً في عقلي».

بدا أكينو متفاجئاً، ثم قال: «حسناً، ألم يخبرك بتفسير هذه الأشياء؟».

قال بارسينو في ضيق: «لا». ثم نظر إلى الغابة وقال بحزم: «ولهذا سأبحث عن الإجابات بنفسني».

سأله أكينو بقلق: «وماذا لو هاجمتك الذئاب؟».

تردد بارسينو قليلاً، ثم قال له: «حدسي يخبرني إنها لا تهاجم إلا في ظلام الليل».

قال أكينو في سخريّة ممتزجة بالغيظ: «حدسك ليس شيئاً يمكنك الاعتماد عليه في أمر قد يتوقف عليه موتك أو حياتك».

قال بارسينو في حزم: «لقد اخترت الثقة في حدسي، وإن كنت لن تثق به فيمكنك العودة، سأذهب وحدي».

نظر أكينو ورائه ناحية القرية، ثم تنهد وقال: «لن أتركك تحوض هذه المغامرة المجنونة وحدك». ابتسم بارسينو في انتصار فقال أكينو على الفور: «ولكن دعنا لا نذهب بعيداً، سنلقي نظرة سريعة ثم نعود، اتفقنا؟».

عقد بارسينو حاجبيه مفكراً، ثم قال له: «حسناً، لا بأس».

أحس بارسينو بساقيه ترتجفان وهو يخطو بين أشجار الغابة الطويلة، غابة الظلال، وكان يعرف أن ساقي أكينو أيضاً لا تقويان على حمله، ويكاد أن يشعر بنبضات قلبه المتسارعة. بدت جذوع الأشجار أكثر ضخامة عند رؤيتها عن قرب، وتساءل في حيرة كيف يقدر الحطاب على قطعها. راحت الأغصان تزداد كثافة وتشابكاً كلما توغلا في الغابة، وبالكاد يتسلل ضوء الشمس من بين الأغصان لينير لهما الطريق. كان المكان صامتاً بشكل غير طبيعي، لم يكن هناك أصوات لأي طيور أو حيوانات، بل السكون التام الذي لا يقطعه إلا صوت تهشم الأوراق الجافة التي تكسو الأرض تحت أقدامها.

تلقت أكينو حوله، ثم قال له: «حسناً لم تعد الغابة تبدو مرعبة كثيراً، ولكن ألم نر ما يكفي؟».

كان بارسينو يشعر بشيء يدفعه إلى التقدم إلى الأمام، فقال: «نحن لم نر شيئاً بعد».

قال أكينو ساخراً: «وأي شيء تتوقع أن تراه سوى المزيد من الأشجار؟».

توقف بارسينو فجأة في موضعه، ثم قال وهو يشير أمامه: «شيء كهذا مثلاً!».

نظر أكينو إلى حيث يشير صديقه مضيقاً عينيه، كان هناك شيء في الضوء الخافت لا يشبه بقية الأشجار، وعندما أمعن النظر أدرك أنه جزء من شيء صخري، ويحمل نقوشاً غريبة، قطعة من الأطلال!

قال أكينو وهو يهز كتفيه: «وما الغريب في هذا؟ القرية مليئة بالأطلال».

قال بارسينو في وجوم: «ولكننا لم نكن نعرف أن هناك المزيد من الأطلال في الغابة!». كان يفكر في هذه اللحظة في كابوسه الغريب، وأحس بقبضة باردة من الخوف تعتصر قلبه.

أراد أن يتيقن أن هناك المزيد من الأطلال، وليس هذه القطعة فقط، فبدأ يمشي إلى الأمام، وأكينو يلحق به محاولاً أن يقنعه بالعودة. ولكن بارسينو واصل المضي قدماً، كأنها هناك صوت غير مسموع يناديه للتوغل أكثر. واصل المضي ولكن لم يقابلها سوى المزيد من الأشجار، حتى كاد أن يتتابه الشك، لولا أن رأى قطعة أخرى من الأطلال، ثم أخرى؛ بقايا جدران وأعمدة حجرية متهدمة مثل الموجودة في القرية، ولا يعرف أحد من أين أتت.

كانت الظلمة تزداد كثافة مع ازدياد تشابك أغصان الأشجار العالية، والرياح تهب من مكان ما من بين الأشجار، أحس بارسينو بالبرد والرغبة في أن يدور على عقبه ويعود إلى بيته في القرية حيث النور والدفء والأمان، ولكنه بشكل مبهم كان يشعر بشيء يدفعه للمضي قدماً. أما أكينو فلم يتوقف عن الإلحاح ومحاولة إقناع بارسينو بالعودة، حتى قال له بارسينو في غضب: «فلتعد أدراجك إن أردت، أنا سأكمل البحث».

تردد صدى صيحته في الغابة، وتزامن مع هبة رياح من الأشجار جعلت الأوراق تصدر حفيفاً. تجمد الصديقان في موضعهما، يحدقان أحدهما للآخر، ثم بدأ بارسينو يمشي للأمام متوغلاً في الغابة. قال أكينو محاولاً أن يكون صوت العقل: «أخشى ألا نقدر على إيجاد طريق العودة في النهاية». نظر وراءه فرأى لمحات من قمة التل بين الأشجار، يمكنه تتبع هذه اللمحات للعودة إلى القرية، ولكنه لم يقدر على ترك صديقه وحده.

التفت مرة أخرى ونظر إلى حيث كان بارسينو فوجد أن صديقه قد توارى بين الأشجار، فأسرع للأمام لاحقاً به وهو يقول: «ما الذي...». ثم بتر بقية جملته وحقق أمامه في ذهول.

كان بارسينو متجمداً في موضعه وهو يحدق إلى المشهد المهيب بأنفاس مبهورة، فقد رأى أمامه أطلالاً لا تشبه أي أطلال أخرى رآها في حياته، تماثيل متداعية، بعضها لم يتبق منه سوى قاعدته، وبعضها لا يزال به بعض التفاصيل التي لم تكن واضحة تماماً تشبه بأشكال شبه بشرية، وكل تماثيل منها بجناحين وراء ظهره، كالحكايات التي يحكيها العجائز عن مخلوقات نورانية تهبط من السماء وهي تحفق بأجنحتها. كل تماثيل يشبك كفيه فوق مقبض سيف ذي نصل طويل حاد منغرس في الأرض بين قدميه. وكان هناك تماثيل حيوانية، أو هذا ما ظنه بارسينو، فلم تكن تشبه أي حيوان رآه في حياته، فهذه الحيوانات مجنحة بدورها، أو هذا ما استنتجه من التماثيل التي لم تكن متهدمة تماماً.

كانت التماثيل متراسة على الجانبين، فبدت كأنها تشكل طريقاً يؤدي إلى مكان ما، والسؤال هو ما الموجود في آخر هذا الطريق؟ هل يجرؤ على الذهاب لمعرفة الإجابة بنفسه؟ هبت الرياح مرة أخرى فسمع بارسينو صوتاً من بعيد، كأنها هو مئات الأجراس الصغيرة تفرع مع الرياح. عقد بارسينو حاجبيه، بينما قال أكينو: «ما هذا الصوت؟».

أحس بارسينو بالارتياح لأن صديقه سمع الصوت مثله ولم يكن يُحِيل إليه. قال أخيراً: «تبدو كأنها هي أجراس، كأجراس قطعان المراعي، ولكنها مختلفة عنها، لم أسمع أجراساً كهذه من قبل». قال أكينو في قلق: «ولا أنا». ثم تلفت حوله قبل أن يقول: «أعتقد أنه يجدر بنا العودة، هذا المكان يبدو مخيفاً».

صمت بارسينو قليلاً وهو يفكر في الأمر، ثم قال وهو يحاول تنحية فكرة المضي قدماً عن رأسه: «أعتقد أنك محق، علينا أن نعود». كانت الفكرة ملحة للغاية، ولكنه كبح جماحها وهو يستدير على عقبه.

تنفس أكينو الصعداء لاستجابة صديقه له أخيراً، ولكن ارتياحه لم يدم طويلاً، فقد عقد بارسينو حاجبيه وهو يصغي السمع.

كان بارسينو يسمع صوتاً بعيداً، يبدو وكأنه يأتي من اللا مكان، ومن كل مكان في وقت واحدة. بالارسيينوووو. كان صوتاً ضعيفاً وهامساً، ولكنه ذكره بالصوت ذاته من حلمه. اقترب يا بارسينو. بدا كصوت واحد، وكمئات الأصوات مجتمعة.

تلقت بارسينو حوله في توتر وهو يقول: «ما هذا الصوت؟ من أين يأتي؟». سأله أكينو في حيرة: «أتعني صوت الأجراس؟». ولكن لم يكن صوت الأجراس يتردد حينها. بالارسيينوووو.

قال في حدة: «بل هذا الصوت الذي يناديني».

تلقت أكينو حوله في خوف ثم قال: «هذه الغابة تصيب المرء بالجنون». فجأة رأى بارسينو هيئة ضئيلة في الظلال، حدق إليها فأدرك أنها طفلة صغيرة تقف بين أطلال التماثيل عاقدة ذراعيها وراء ظهرها. نظرت إليه وضحكت، قبل أن تركض وتختفي بين الأطلال، ولكن صدى ضحكتها ظل يتردد وهو يتلاشى ببطء.

اتسعت عينا بارسينو ثم التفت إلى أكينو وقال: «هل رأيت هذا؟». قال أكينو في حيرة: «رأيت ماذا؟».

أشار بارسينو بإصبعه ناحية الأطلال وقال: «تلك الفتاة الصغيرة؟ لقد اختفت بين الأطلال للتو». نظر أكينو إلى حيث أشار صديقه قبل أن يهز كتفيه ويقول: «لم أر شيئاً». ثم نظر إلى بارسينو في ريبة وقال: «لا أعتقد أن أحداً من القرية قد يغامر بالمجيء إلى الغابة، ناهيك بالتوغل إلى هذا الحد». نظر إليه بارسينو وقال بحدة: «تقصد لا أحد سوانا، فها نحن ذا في عمق الغابة».

هز أكينو كتفيه فقال بارسينو في حزم: «أنا واثق مما رأيته، ولن أترك فتاة صغيرة في الغابة وحدها». ثم تحرك بخطوات مسرعة نحو أطلال التماثيل، وبدأ يمشي بينها وهي متراحة على جانبيه وقد ملأت الرهبة قلبه. وأكينو من ورائه يناديه ويتوسل إليه أن يعود، دون أن يصغي له، وعينه تفتشان في كل مكان بحثاً عن الفتاة الصغيرة.

فجأة لاحظ شيئاً غريباً، الأشجار تقل كثافة مع تقدمه للأمام، والمزيد من ضوء الشمس يتسلل من بين الأغصان، ثم انتهى الطريق الذي تشكله التماثيل فجأة إلى مساحة خالية من الأشجار، وفي منتصفها تستقر شجرة عظيمة لم يرَ بارسينو مثلها من قبل، عرضها أكبر بعشرات المرات من الأشجار الأخرى، وتمتد شاهقة إلى السماء، بأغصان طويلة للغاية، وكثيفة للغاية.

وقف بارسينو أمامها مشدوهاً، وبجواره أكينو الذي قال بذهول: «ما هذا بحق الظلال؟».

قال له بارسينو: «أعتقد أن هذه هي الشجرة التي كنت أراها من على قمة التل».

ظلاً يحدقان إلى الشجرة، ثم أدرك بارسينو شيئاً، هناك أجزاء حجرية تطل من جذعها، لقد نمت هذه الشجرة فوق مبنى حجري!

هبّت الرياح فتطايرت الأوراق وتعالى رنين الأجراس، وهذه المرة كان الصوت قوياً وواضحاً، رفع بارسينو نظره فرأى أجراساً متدلّية من الأغصان العالية، وأشرطة حمراء عريضة تحمل رموزاً عديدة، تخفق مع الريح.

خفض بارسينو نظره إلى أسفل الجذع، فرأى فجوة سوداء مستطيلة بين الجذور السمكية التي تبرز جزئياً من تحت الأرض، لا شك أنها كانت في يوم من الأيام مدخل هذا المبنى، ولكنها بدت في هذه اللحظة مثل فم فاغر لو حش مخيف.

قال بارسينو: «أعتقد أن هذا كان مبنى قديماً».

قال أكينو متعجباً: «أي مبنى هذا؟».

فكر بارسينو قليلاً، ثم قال: «لعله جزءاً من الأطلال، أو...». بتر جملته وهو يحدق ناحية مدخل المبنى، وقد رأى شيئاً هناك في الظلمة.

أشار بإصبعه ناحية المدخل المظلم وقال: «هناك! هل ترى الآن؟».

ضحكت الفتاة الصغيرة ثم أسرعت راكضة إلى داخل المبنى، فصاح بارسينو: «لقد دلفت إلى المبنى للتو! ألم تسمع ضحكاتها؟».

نظر أكينو ناحية المدخل في ريبة وهو يحاول أن يرى شيئاً في ظلمة المدخل قبل أن يقول: «أقسم لك بالشمس أنني لم أر أو أسمع شيئاً».

تقدم بارسينو ناحية المبنى فأمسك به بارسينو من ذراعه وهو يقول: «إلى أين أنت ذاهب؟».

قال بارسينو: «سأتحقق من أمر الفتاة، وسأثبت لك أنها موجودة بالفعل».

أمسك به أكينو من ذراعه وهو يقول: «هل جنت؟ أتدلف إلى مبنى عثرنا عليه في هذه الغابة اللعينة؟».

جذب بارسينو ذراعه من يد صديقه وقال: «لعلها طفلة من القرية قد ضلت طريقها».

هز أكينو رأسه وقال بشك: «طفلة من القرية تضل طريقها حتى تصل هنا؟ وإن كان الأمر هكذا فلماذا تضحك إذن؟ كان من الأحرى بها أن تبكي خوفاً».

تردد بارسينو أمام كلمات صديقه، ثم قال: «لعلها لم تستوعب الأمر بعد وتظن أنها تلعب». لم يبد مقتنعاً تماماً بما قاله. بدأ يمشي من جديد نحو المدخل وهو يقول: «لست مضطراً للحاق بي، يمكنك أن تنتظري هنا، أو تعود إلى القرية إن أردت».

تلقت أكينو حوله في توجس، لم يعجبه البقاء وحيداً في هذه الغابة، ولم يقدر على العودة وترك صديقه وحيداً، فتنهد ثم تبع صديقه ليخطو وراءه عبر المدخل المظلم.

أخذهما المدخل إلى ممر صخري طويل، لا ينيه سوى الضوء الخافت القادم من الغابة من ورائهما، وعلى هذا الضوء استطاع بارسينو أن يرى نقوشاً على الجدران كمنقوش الأطلال. ثم بدأ يشعر بهمسات داخل عقله، همسات تحته على الاقتراب أكثر.

راح الضوء يزداد خفوفاً حتى صار الظلام دامساً، وصار الاثنان يتحسسان طريقهما إلى الأمام، ومن وقت لآخر يهمس أكينو بشيء عن أنهما يجب أن يعودا أدراجهما، وتمنى بارسينو أن يطيعه، ولكنه شعر أن قدميه تتحركان من تلقاء نفسيهما، بينما الهمسات الخافتة تحتل ركناً مظلماً في عقله.

لم يعد أي منهما قادراً على رؤية شيء أمامه، فراحا يتحسسان الجدران الصخرية بأطراف أصابعهما، ثم أدرك بارسينو أن الممر ينحني ولا يسير بخط مستقيم، قبل أن يلمح شيئاً أثار انتباهه، ضوءاً قادمًا من بعيد آخر الممر!

أسرع بارسينو الخطى نحو الضوء، ومن ورائه أكينو. لم يكن ضوءاً متراقصاً كضوء النيران أو الشموع، بل ضوءاً منبعثاً بشكل ثابت مستقر، مما أثار الفضول بداخله، أي شيء يمكن أن يبعث بضوء كهذا؟

ما إن خرج من الممر حتى وجد نفسه في قاعة صخرية واسعة، في منتصفها أربعة أعمدة سميكة، وما بين الأعمدة تقف الفتاة الصغيرة وهي تنظر ناحيتيها. تلفت بارسينو حوله بحثاً عن مصدر الضوء فلم يجده، ثم نظر للأعلى متتبعاً الأعمدة الأربعة حتى قمتها، وهنالك رآها!

كرة من الضوء بحجم بيتٍ تقريباً، ضوءها باهر للغاية حتى إنه اضطر لتضييق عينيه ولم يتمكن من رؤية السقف أعلاها، بدت كشمس صغيرة، وكانت هذه الشمس تضيء القاعة الشاسعة ذات الجدران الصخرية. خفض بارسينو بصره مرةً أخرى، لينظر إلى الفتاة، ولكنها في تلك اللحظة بدأت تتحلل وتتحول إلى ما يشبه الدخان، قبل أن تتصاعد للأعلى نحو كرة الضوء التي بدت كأنها تمتص هذا الدخان حتى تلاشى تماماً. قال أكينو وهو يحدق في ذهول: «ما هذا بحق الأفلاك؟!».

لم يعرف بارسينو إن كان صديقه قد رأى الفتاة وما حدث لها، أم أنه يتحدث عن كرة الضوء، وقبل أن يتمكن من سؤاله تردد صوتٌ في كل مكانٍ من حوله. «لطالما انتظرت هذه اللحظة!».

تردد الصوت كجوقة من ألف صوت، جوقة وحشية، صوت لا يمكن أن يصدر عن حنجرة بشرية. صوت ذكره بحلمه، ولكنه كان مخيفاً أكثر منه بألف مرة. تثبت أكينو بمعطف بارسينو وهو يقول بفرع: «ما هذا الصوت؟».

انتاب بارسينو مزيج عجيب من المشاعر، الارتياح لأن صديقه يرى ما يراه ويسمع ما يسمعه أخيراً، والرعب من هذا الصوت الوحشي. ثم أدرك أنه رغم فهمه لما قاله الصوت كانت الكلمات غير مألوفة تماماً، كأنها الصوت يتحدث بلغة مختلفة تماماً غير اللغة المعروفة لقاطني القرية، لهذا وصفه صديقه بالصوت! بالنسبة له هي أصوات غير مفهومة. جعله هذا يشعر بالمزيد من الحيرة والخوف. «لقد مضت قرون عديدة وأنا في سجنٍ أنتظر وعاءً، وها قد جاء إليّ أخيراً!».

تجمد بارسينو وأكينو في موضعهما من الرعب وهما ينصتان إلى هذا الصوت المخيف، الذي بدا وكأنه يأتي من عالم آخر، عالم مظلم. حاول بارسينو تحريك جسده، أراد الهرب بعيداً، ولكن جسده لم يطعه. فجأةً خرجت من الكرة خيوط سوداء رقيقة، أشبه بالدخان، خيوط من ظلال. بدأت تتحسس طريقها نحوها كأنها مجسات وحش مخيف. تعاظمت الخيوط مع اقترابها منها، حتى صارت أشبه بأذرع غليظة من الظلال تحاول الإمساك بهما.

يجب أن أهرب، يجب أن أنقذ أكينو من هذا الخطر، أنا من جلبه إليه! هكذا راح بارسينو يصرخ في أعماقه دون أن يند عنه صوت، ولكن الظلال كانت تحاصرهما من كل جانب، ولا تترك مجالاً للهروب. ثم راحت الظلال تتشكل، وتأخذ هيئة مألوفة، قبل أن يصبح أكينو في دهشة ورعب: «الذئاب!».

كانت الذئاب السوداء المخيفة تطوقها، وتقترب منها ببطء، وصوت زجراتها الوحشية يختلط بصوت نبضات قلبي بارسينو وأكينو. بينما بارسينو يشاهد تقدم الذئاب بعينين متسعيتين أحس كأنها يشعر بالشيء الكامن بداخل الكرة يخاطب الذئاب، أو كالعقل يوجه أوامره إلى أطراف الجسد. قال أكينو في رعبٍ شديد وبصوتٍ مرتجف: «ماذا سنفعل الآن؟».

لم يكن بارسينو يعرف الإجابة، ما الذي يجب أن يفعله؟ أحس بالشلل في أطرافه، بينما مصيره المحتوم على يد الذئاب...

وفجأة ففز شيء من ورائها ليهبط بينهما وبين الذئاب، بينما صوت زجرة جديد يعلو فوق زجرة الذئاب.

صاح بارسينو في دهشة: «برق!». إنه كلب الخطاب العجوز! ورغم أن الكلب لم يكن ضخماً كالذئب، إلا أنها ترددت وهي تنظر إليه.

تعالى الصوت الوحشي مرةً أخرى وهو يقول: «كم أكره هذا الكلب!». ولأول مرة يشعر بارسينو بشيءٍ من الغضب في هذا الصوت. تعالى الصوت بوحشية أكثر وهو يقول: «ولكن لن يهرب أحد من هنا! ستكون نهايتكم جميعاً».

لم ينتظر برق نهاية جملته، بل انقض فجأة على الذئب غارسًا أنيابه في عنق أحدها ليمزقه، فتحول جسد الذئب إلى دخان. انقضت الذئب الأخرى على الكلب الأسود، ولكنه راح يقفز ويرaug بسرعة البرق وهو ينقض عليها بدوره بأنيابه ومخالبه.

تدفقت الظلال من الكرة المضئية، فظهر المزيد من الذئب، وتعالى الزمجرات الوحشية. وفجأة لم تعد نظرات الذئب جميعها منصبة على الكلب الأسود، بل التفتت بعض الأعين إلى بارسينو وأكينو، وبدأت الذئب تتقدم ناحيتهما.

أحس بارسينو بهذا الشيء مرةً أخرى يوجه الذئب كأنها هو همس في أعماقه: لا تقتلوا الأمهق، أريده حيًا. فتعجب بارسينو من هذا، وأحس بالخوف على صديقه في الوقت ذاته، لا شيء ليحميه من هجمات هذه الوحوش. راح يحدق إلى الذئب التي تتقدم نحوهما وعقله يفكر بشكل محموم في مخرج.

فجأة شق الهواء صوت حفيف مرتفع قبل أن ينغرس فأس على الأرض أمام الذئب جعلها تتوقف في موضعها، قبل أن تراجع إلى الوراء ونظرة الرعب في أعينها.

التفت بارسينو وراءه فرأى أوركين الخطاب واقفًا عند مدخل القاعة الصخرية، وهو يقول بحزم: «اتركها وشأنها أيها الظل!».

لقد جاء الخطاب.

## الفصل السابع عشر

### فأس الحطّاب

في اللحظة التي عبر فيها بارسينو التلألؤ العجيب، رفع برق رأسه عن قائمته الأماميتين وراح ينبح بعنف. نهض أوركين من الفراش وهو يصغي السمع، وبدا أن عينيه شاردتان وتنظران إلى مكانٍ بعيد، ثم عقد حاجبيه وقال: «هذا الأحمق!».

انتعل حذاءه وارتدى معطفه في عجلة، قبل أن يعلق فأسه في حزامه ويسرع خارجاً من بيته وهو يصيح: «هيا يا برق، قبل أن يفوت الأوان!».

هبط الحطّاب جانب التل مهرولاً، والكلب في عقبيه، وكل من يلحبه ينظر إليه في حيرة وتساؤل، ولكنه لم يلتفت إليهم وهو يسرع نحو جانب التل، حتى عبر الحاجز المتألف بنفسه، وفي تلك اللحظة سمع صوت أجراس قادمًا من بعيد.

كان الصوت خافتاً ولكنه متيقن من سماعه، وبينما يسرع الخطى بين الأشجار جاءه صوت الأجراس مرةً أخرى، مختلطاً بأصواتٍ أخرى جعلته يجز على أسنانه.

ما إن وصل أوركين إلى الشجرة العملاقة بعد عدو طويل حتى توقف ليلتقط أنفاسه وهو يقول: «لم يعد عمري يسمح بمثل هذا المجهود».

ولكن برق أسرع عابراً المدخل المختبئ بين جذور الشجرة الضخمة، فاستل الحطّاب الفأس من حزامه وأسرع لاحقاً بكلبه إلى الداخل، وهو يتمنى ألا يكون قد وصل بعد فوات الأوان!

\*\*\*

حدق بارسينو في دهشة إلى الحطّاب وفي أعماقه الكثير من المشاعر والأسئلة، الفرحة بوصول الحطّاب، والحيرة بشأن كيفية معرفته بمكانه هو وصديقه، والتساؤل عما إن كان قادراً على إنقاذهما.

تردد الصوت المخيف: «أنت! أنت كنت تعرف أنه الوعاء وتحاول إبقائه بعيداً عني؟ تحاول حمايته مني؟». بدأ أوركين يخطو ناحية الفأس حتى وصل إليه فأمسك به من مقبضه، ثم نظر ناحية الكرة قبل أن يرفع الفأس ويضعه على كتفه ويقول: «ولن أدعك تلمس شعرة منه».

تعجب بارسينو من أن الحطّاب قادرٌ على فهم هذا الصوت، وتعجب أكثر من جرأته في الرد عليه. «لن تستطيع حمايته مني إلى الأبد أيها الحطّاب. سينتهي أمركم قريباً. سيحل كسوف الشمس، ولن يستطيع أحد حينها إيقافني». تردد صدى الصوت في القاعة الصخرية كألف صوت.

رفع أوركين إصبعه ناحية الكرة وقال: «لقد كنت سجيناً هنا لقرونٍ من الزمان، وستظل سجيناً لقرونٍ أخرى، حتى تنتهي أنت، أو ينتهي الزمان ذاته».

دوى الصوت في غضب شديد: «لن أنتهي أبداً!».

وكانما أعطى إشارة البدء فانقضت الذئاب مرةً أخرى. راح أوركين يلوح بالفأس بخفة ورشاقة تتناقض مع عمره وجروحه، وهو يقطع أعناق الذئاب ليحوّلها إلى دخان، وكلبه الأسود يغرس أنيابه في الحلوق لينتزعها فتصاعد المزيد من الدخان حتى صارت الرؤية شبه مستحيلة في كل هذا الضباب الأسود.

تراجع بارسينو وأكينو إلى الورا في فزع، بينما يشاهدان الصراع الدائر بين الخطاب وكلبه، والذئب المخيفة. راح العرق يتصبب على وجه أوركين وتباطأت حركته بعض الشيء، فأحس بارسينو بالخوف وقد فقد الثقة في قدرة الخطاب العجوز على مواجهة هذه الوحوش وحده.

وفجأة رفع أوركين يده التي تحمل الفأس فوق رأسه وصاح بصوت عالٍ أحس بارسينو أنه يرج جدران القاعة: «من أجل النور! من أجل الشمس!». أدرك بارسينو في فزع أن الخطاب قد قال هذه الكلمات بتلك اللغة الغريبة التي تحدث بها الصوت المخيف، وفي اللحظة التالية هوى الخطاب بالفأس على الأرضية الصخرية.

أحس بارسينو كأن الزمن قد تجمد به في هذه اللحظة، وهو يشاهد فأس الخطاب يتوهج بوميض أحمر، وتلمع عليه نقوش كتلك الموجودة على الأطلال، وفجأة أحس كأن الوميض ينتقل من الفأس إلى الأرضية الصخرية التي برقت بالنقوش بدورها من حول نصل الفأس، ثم اتسعت دائرة الضوء الأحمر لتغطي الأرضية كلها، قبل أن تصعد عبر الجدران والأعمدة الحمراء التي تلالأت بالنقوش ذاتها حتى وصلت إلى كرة الضوء بالأعلى.

أحس بارسينو كأن هناك صرخة ألم تتردد في أعماقه، وفي كل مكان من حوله. صرخة معاناة، ورغم هذا كانت الصرخة صامتة، إلا أنه أحس بالمبنى يكاد أن يرتجف من حوله. بدأت الذئب تتلوى في ألم ثم راحت تنفجر في ضباب أسود.

انتزع أوركين فأسه، ولكن الضوء الأحمر لم يخفت. صاح أوركين: «يجب أن نتراجع على الفور!». انتزعتها الصرخة من ذهولهما، فبدأ الشابان يركضان نحو مدخل القاعة، إلى الممر الطويل الملتوي، الذي كان مضاءً بنقوش حمراء بدوره. تذكر بارسينو الرموز الحمراء في الحلم، وهو يشعر بالدوار بسبب الأفكار التي تطحن في عقله، وانتابه إحساس بالحيرة والضياح.

لا تزال الصرخة الصامتة تتردد، ولكنها تخفت مع ركضه عبر الممر. أحس بالارتياح وهو يرى النور في آخر الممر، المخرج المؤدي من هذا المبنى المخيف إلى الخارج، إلى غابة الظلال التي لطالما خشبها، ولكنها بدت له الملجأ والأمان في تلك اللحظة.

قطع الخطوات الأخيرة في وثبات سريعة، قبل أن يتوقف وهو يلتقط أنفاسه، ثم استدار خلفه ليجد مدخل المبنى يشع بنور أحمر شاحب بفعل كل هذه الرموز المضيئة، ومن بين هذا الضوء الشاحب خرج أكينو بوجه ممتقع وأنفاس لاهثة ومن ورائه الخطاب وكلبه.

قال أوركين دون أن يبطن الخطي: «لقد أوشكت الشمس على المغيب، يجب أن نعود إلى القرية. البقاء هنا لم يعد آمناً».

تحرك أربعتهم راكضين بين الأشجار بينما بارسينو ينظر إلى السماء، كانت الشمس قد مالت كثيراً نحو المغيب، ولم تعد ظاهرة من بين قمم الأشجار العالية. كان ضوءها يضيء المنطقة قليلة الأشجار المحيطة بالمبنى، ولكن كلما توغلا أكثر بين الأشجار المتشابكة احتجب الضوء وتزايدت الظلمة.

كان بارسينو يشعر بالخوف كأنها الذئب ستركض في أعقابهم في أي لحظة، ولكنه اطمأن لوجود الخطاب. لقد أنقذ حياتهما! تصارعت الأفكار في عقله، ولكنه قرر تأجيل التفكير في كل شيء إلى حين عودتهم للقرية. سيسأل الخطاب حينها عن كل شيء؛ عن الغابة والمبنى والكرة المضيئة والوحوش الغريبة التي يبدو أنها مخلوقة من ظلال. ثم نظر ناحية الخطاب الذي يركض بجواره بملامح جامدة، هل سيجيب عن أسئلته هذه المرة؟

بدأت الأشجار تقل كثافة مرةً أخرى، ولاحظ بارسينو أن التلألؤ كان ضعيفاً للغاية عند سفح التل حيث توجد المزارع، ومن ورائها السور الذي لا يزال به العديد من الفجوات. قطع الأربعة فجوة منها ووصلوا إلى القرية مع حلول غروب الشمس، العدد القليل من الناس الذين لم يعودوا إلى البيت بعد - من المزارعين أو الرعاة - رمقوا أربعتهم بنظرات متسائلة، ولكن أحداً لم يقل شيئاً.

فجأة توقف أوركين في موضعه، فتوقف كلبه بدوره وقد تدلى لسانه من فمه وهو يلهث. نظر إليه بارسينو وأكينو بتساؤل فقال: «فليعد كل واحد منكما إلى بيته». ثم استدار على عقبيه وقال: «سأعود إلى بيتي أيضاً، فأنا بحاجة إلى الكثير من الراحة، هيا بنا يا برق». فأسرع الكلب لاحقاً به.

صاح بارسينو: «لدي أسئلة كثيرة تحتاج إلى إجابات!». توقف الحطّاب في موضعه، وقال دون أن يلتفت وراه: «في الغد سأجيبك عن كل أسئلتك، فأنت تستحق هذا». ثم التفت إليهما وقال بصرامة: «ولا تخبرا أحداً في القرية عما حدث داخل الغابة».

ودون أن ينتظر إجابة أكمل طريقه مبتعداً بصحبة كلبه ليلتلعهما المساء الآخذ في الإظلام. هنا تحدث أكينو لأول مرة منذ خروجهما من المبنى قائلاً بصوتٍ مرتجف: «هل تصدق ما حدث؟». صمت بارسينو قليلاً، ثم قال: «كنت أعرف أن هناك سرّاً ما في الغابة».

قال أكينو وجسده كله يرتجف: «هذا جنون! أنا لم أعد أريد معرفة شيء، أتمنى لو أنني بقيت جاهلاً بما يدور في غابة الظلال».

ظل بارسينو صامتاً، فقال له: «ما رأيك فيما قاله الحطّاب؟ أعني ألا نحكي ما حدث لأحد؟». هز بارسينو كتفيه ثم قال: «ربما يكون محققاً، لا يجب أن نحكي لأحد ما حدث، على الأقل حتى نعرف منه ما الذي يحدث بالضبط!».

قال أكينو متردداً: «وماذا إن سألنا العمدة؟ أعني أنه قد طلب منا أن نخبره بأي شيء نعرفه عن الحطّاب...».

قاطعته بارسينو بحدة: «لا!». ثم أخذ نفساً عميقاً قبل أن يقول: «لقد أنقذ حياتنا، أليس كذلك؟ فلنمنحه على الأقل فرصة كي يشرح لنا ما يجري». ثم نظر ناحية قمة التل قبل أن يلتفت إلى صديقه ويقول: «دعنا نلتقي غداً صباحاً عند بيت الحطّاب وسنفهم منه كل شيء. الآن فلنعد إلى البيت، نحن أيضاً نحتاج إلى بعض الراحة».

هز أكينو كتفيه بدوره وقال: «أنت محق، سأعود إلى البيت، وفي الغد صباحاً سأقابلك عند بيت أوركين».

\*\*\*

نام بارسينو نومًا قلماً مضطرباً مليئاً بالكوابيس، لم يتذكر الكثير من التفاصيل عند استيقاظه، ولكن كان هناك ذئب من ظلال، وأطلال مخيفة تتوهج بضوء أحمر، وتلك الكرة المضيئة الغريبة. لاحظت الجدة أوريتا شروده وهو يتناول فطوره، ولكنها لم تقل شيئاً، فقد صار حفيدها قليل الكلام مؤخراً.

ودعها بارسينو بتحيةة مقتضبة وهو يغادر البيت، ثم بدأ يشق طريقه ناحية بيت الحطّاب، غارقاً في أفكاره الخاصة، حتى إنه لم يلاحظ الحارس ذا الملابس الصفراء الذي كان ينظر إليه بنظرة خاصة، ممسكاً في يده اليمنى بهراوة يضرب بها على راحة يده اليسرى.

لم يفق بارسينو من شروده إلا عندما وصل إلى بيت الحطّاب، فراح يتلفت حوله بحثاً عن أكينو، قبل أن يقول لنفسه: «يبدو أنه لم يصل بعد».

نظر إلى بيت الخطّاب في تردد، غير راغب في مواجهة الخطّاب وحده. قرر أن ينتظر صديقه، ولكن الدقائق مرت دون أن يظهر له أثر، فراح يتساءل عن سبب تأخره. فجأة انفتح الباب، وخرج أوركين منه بصحبة كلبه، معلقاً فأسه على خصره، وواضعاً سلته الخوصية على ظهره. بدا أنه مستعد للذهاب إلى الغابة. اقترب بارسينو منه وهو يأخذ نفساً عميقاً قبل أن يقول: «لقد جئت لكي تجيب عن أسئلتني كما وعدتني بالأمس».

أغلق أوركين الباب ثم بدأ يخطو مبتعداً وهو يقول: «تعال معي». سار بارسينو بمحاذاته في حيرة، والأسئلة لا تزال تموج في عقله، لا يعرف ما يجب أن يقول، أو من أين يبدأ، ولم يساعده أن أوركين لم يقل كلمة واحدة. كان الناس يرمقونها بنظرات متسائلة، وهما يسيران جنباً إلى جنب هابطين طرقات القرية ودرجاتها الصخرية، بينما يتظاهر بارسينو بأنه لا يرى هذه النظرات. وأخيراً أحس أن أعصابه تحترق من هذا الصمت، فبدأ حديثه قائلاً: «بالأمس عندما كنت...». قاطعه أوركين قائلاً بصوت هادئ: «فلتتظر حتى نصل إلى الغابة». قال بارسينو بدهشة: «لماذا؟».

قال أوركين بنفس الهدوء، دون أن تتغير ملامح وجهه: «لأن أحد رجال العمدة يتعقب أثرنا، ولا أريده أن يقترب أكثر من اللازم فيسترق السمع إلينا». كان بارسينو على وشك أن يلتفت وينظر ورائه، ولكن أوركين قال له على الفور: «لا تنظر ورائك، تظاهر بأنك لا تشعر به».

لاذ بارسينو بالصمت، وهو يشعر بنبضات قلبه تتسارع، لقد كاد أن ينسى أن العمدة قد طلب من رجاله مراقبة الخطّاب، وتفاجأ أن الخطّاب قد أدرك هذا ويبدو في الوقت ذاته لا مبالياً بالأمر. عندما اقتربا أخيراً من نهاية القرية، قرب غابة الظلال، قال أوركين ساخراً: «لقد توقف عن تتبعنا، والآن سيعود ويخبر سيده أنك قد ولجت معي إلى غابة الظلال». ثم قال بجديّة: «ماذا ستقول لأمر يد عندما يسألك عن الأمر؟».

هز بارسينو رأسه وقال: «لا أعرف». ضحك أوركين ضحكة مقتضبة قبل أن يسأله: «هل ستخبره أنك تعمل لديّ خطّاباً مساعداً؟». اتسعت عينا بارسينو وقال: «هل ستدعني أعمل خطّاباً معك أخيراً؟». ابتسم أوركين وقال: «بالطبع، ألم أعدك؟». ثم تنهد قبل أن يضيف: «ربما كان هذا مقدراً لك منذ البداية». قال بارسينو في حيرة مضاعفة: «ما الذي تعنيه بهذا؟». قال الخطّاب: «ستعرف بعد قليل».

قال بارسينو في ضيق: «قلت إنك ستجيب عن أسئلتني، وها أنت ذا لا تقدم لي إلا المزيد من الألغاز». قال الخطّاب بهدوء: «ستعرف كل شيء بعد قليل، الصبر فضيلة يا بني». في تلك اللحظة كانا قد اقتربا من التلالؤ العجيب الذي يحيط بالقرية وهو يتراقص ويتموج في ضوء الشمس. فقال له بارسينو: «هذا التلالؤ العجيب، هل هو موجود حقاً؟». قال أوركين ببساطة: «أجل».

سأله بارسينو في دهشة: «هل تعني أن باستطاعتك رؤيته؟». أجابه الخطّاب بنفس البساطة: «بالتأكيد».

رغم أن هذا ما كان بارسينو يتوقعه، إلا أنه تفاجأ مما قاله الخطّاب، ولم يرض هذا فضوله على الإطلاق، بل زاد من حيرته، فقال على الفور: «ما هذا التلألؤ بالضبط؟ لماذا لم أكن أراه من قبل في حياتي كلها؟ ولماذا استطعت أخيراً رؤيته؟ ومن غيرنا يمكنه رؤيته؟».

وقف الخطّاب عند الحاجز ورفع يده ببطء فبدأ أنه يتحسس بأصابعه، وفجأة تزايد التلألؤ حول يده، وبدأ أنه يزداد توجّهاً وتلاطمًا، ثم أبعده الخطّاب يده فعاد إلى حركته الهادئة الساكنة السابقة.

قال أوركين: «بالنسبة للشق الأخير من سؤالك، أعتقد أنه في الوقت الحالي ليس هناك واحدٌ من بين قاطني القرية قادرٌ على رؤية هذا سواي وسواك. أما بالنسبة للشق الأول فيمكنك أن تسميه... سحرًا».

ارتجف بارسينو، للمرة الثانية يتحدث أوركين عن السحر. شاهد الخطّاب يخطو للأمام مخترقًا التلألؤ بصحبة كلبه، فأسرع للحاق بهما مخترقًا الحاجز المتلألئ، فأحس بقشعريرة باردة وهو يفعل هذا.

قال وهو يلحق بالخطّاب: «ولماذا أنا؟ ولماذا الآن؟».

قال أوركين بنبرة تحمل شيئًا من الحزن: «هذا لأنك تمتلك قدرات خاصة، قدرات لم يكن يمتلكها من قبل سوى مجموعة معينة من الناس».

قال بارسينو بفضول: «أي مجموعة هذه؟».

نظر إليه أوركين ثم قال وعينه تبارقان: «الخطّابون».

كاد بارسينو أن يفقد اتزانه عندما سمع هذه الإجابة، ثم صاح: «الخطّابون؟ وما شأنى أنا بالأمر؟ أنا لست خطّابًا!».

قال الخطّاب مشفقًا: «أنت واحد من هؤلاء الذين يمتلكون قدراتٍ خاصة، لقد ولدت في يوم مميز، وهذا قد أكسبك بعض القدرات، ولكنه في الوقت ذاته جعلك عرضةً لخطر كبير، خطر ربما يكون جزءًا من نبوءة قديمة».

سحر... نبوءة... خطر... تشابكت الأفكار أكثر في عقل بارسينو. لطالما كان يبحث عن الإجابات لكل أسئلته، ولكن أي إجابات هذه؟

نظر إليه الخطّاب مليًا، ثم قال له: «ربما يجب أن أخبرك بكل شيء منذ البداية، تعال معي».

بدأ بارسينو يمشي بجانب الخطّاب وقلبه مرةً أخرى، وأشجار الغابة من حوله تزداد كثافةً وتشابكًا، كما تتشابك الأفكار في عقله.

قال أوركين في شروء كأنها يسترجع ذكرى قديمة، أو يصف شيئًا لا يراه أحدٌ سواه: «في الماضي كانت هناك حضارة عظيمة تفوق كل قدراتك على التخيل أو التصور، حضارة تناقلت حكاياتها الكتب. يمكنك أن تتخيل مباني شاهقة وحدائق شاسعة وجسورًا معلقة في الهواء بلا شيء يدعمها سوى السحر، وتماثيل بالغة الدقة حتى تكاد تنبض بالحياة. وكان شعب هذه الحضارة يسمون بأبناء النور، يستمدون قوتهم وسحرهم من نورها، ونور القمر والنجوم. ولكن كان هناك حضارة أخرى موعلة في القدم، يسمي شعبها بأبناء الظلال، كانوا على النقيض تمامًا من أبناء النور، فمصدر قوتهم لم يكن إلا الظلال والظلام، وكانوا يكرهون كل شيء يمثله أبناء النور، يكرهون حضارتهم وسحرهم وتماثيلهم، وكانوا قادرين على استدعاء مخلوقات غامضة من عوالم أخرى وراء عالمنا، مخلوقات نطلق عليها اسم الظلال، أما هم فيسمونها آلهة الظلام».

طيلة حياة بارسينو لم يعرف سوى قرية جانب التل، وغابة الظلال، والآن يحدثه الخطّاب عن عوالم أخرى، أيعني هذا أن هناك حقًا عالمًا آخر وراء غابة الظلال؟ لم يكن قادرًا على استيعاب الفكرة.

لم يمهله أوركين المزيد من الوقت للتفكير، بل أكمل حديثه قائلاً: «العديد من الكتب تحفظ وقائع هذه الفترة الزمنية، كتب اصفرت أوراقها مع تعاقب الدهور، وربما اختلطت بها الحقيقة مع الخرافة، ولكنها تؤكد على شيء واحد؛ لقد واجه السحرة والمحاربون الشجعان من أبناء النور هؤلاء المشعوذين من أبناء الظلال وألتهم المظلمة. ولكن الحرب كانت شعواء وتدمرت على إثرها الكثير من آثار حضارة أبناء النور، وأجبروا على التراجع إلى أركان الأرض المنزوية، تاركين معظم العالم ترتع فيه الظلال وألهة الظلام. وفي هذا الركن البعيد من العالم بنى أبناء النور مملكة لهم، أطلقوا عليها اسم لينوريم، وكانت كل مبانيها تحمل طلاس بقوى الشمس والنور، الهدف منها ردع أبناء الظلال وقواهم المظلمة».

اقشعر جسد بارسينو مع الكلمة الأخيرة، وتذكر الكرة المضيئة والظلال التي كانت تخرج منها، والذئاب التي تنفجر لتتحول إلى ظلال، هل لهذا كله علاقة بما يقوله الحطاب؟ تلفت حوله وهو ينظر إلى الأطلال، وأحس كأن نقوشها تنبض بالحياة، ثم سمع الحطاب يقول بأسى: «ولكن أبناء الظلال عثروا على ما قد يكون المعقل الأخير لأبناء النور، وجاءت جيوشهم يتقدمها واحد من ألتهم المظلمة، بهموت. كانت حرب شعواء تدمرت على إثرها مملكة لينوريم وتحولت إلى أطلال، ولكن أبناء النور تمكنوا من هزيمة جيش أبناء الظلال، وتقييد إلههم بهموت، وسجنوه في معبد الشمس الذي كان واقعاً في قلب مملكتهم».

نظر بارسينو عبر الغابة كأنها يمكنه رؤية المعبد الصخري وهو يقول: «أعنى أن ذلك الشيء المخيف هناك هو...».

أوما أوركين برأسه وقال: «ظل من الظلال، واحد من ألتهم المظلمة. قيدوه في كرة من الضوء الصافي، لأن الضوء هو نقطة ضعف شعب الظلال وألتهم». ثم تلفت الحطاب حوله ناظراً إلى الأشجار وقال: «بينما أقوى سحرة أبناء النور يلفظون أنفاسهم الأخيرة أنبتوا أشجار هذه الغابة بدمائهم لإخفاء من تبقى منهم على قيد الحياة».

توقف أوركين لأول مرة لينظر وراءه، كأنها ينظر نحو القرية التي أخفتها الأشجار، وقمة التل الظاهرة بالكاد من بين قمم الأشجار العارية، ثم قال: «من تبقى على قيد الحياة تراجع إلى التل، الشيء الوحيد الذي بقي بدون أشجار، وهناك بنوا قريتهم بين أطلال مملكة لينوريم. الكثير من الأشياء الموجودة الآن هي بقايا تلك المملكة العظيمة، مثل الصهاريج والقنوات الصخرية، وحتى السيوف التي يستخدمها حرس العمدة ولم نعد قادرين على صنع مثلها».

كان بارسينو يحاول استيعاب كل ما يسمعه، ولكنه أحس أن الأمر يفوق قدرته على الاستيعاب، كأنها كل شيء من حوله يتهاوى ويتشكل من جديد.

قال الحطاب وهو يواصل الحركة: «بمرور الوقت أدرك الناس قيمة أشجار الغابة وما تمنحه لهم من حماية سحرية. إن هذا الحطاب الذي يحترق في مدافئ بيوت القرية له قدرات سحرية خاصة، فهو ما يصنع حاجزاً من الضوء الخفي يحيط بالقرية بأسرها. لذا تولى القادرون منهم على استخدام سحر النور مهمة الولوج إلى الغابة للحرص على إبقاء بهموت حياً، وجلب الحطاب إلى القرية، ولذا أساهم الناس الخطاين».

اتسعت عينا بارسينو في دهشة، وهو يمشي بجواره، وأخيراً استطاع أن يقول: «هل تعني أن هذا التلألؤ العجيب...؟».

قال أوركين: «إنه حائط دفاع آخر في مواجهة الظلال، وضعه بعض السحرة ممن تبقوا على قيد الحياة بعد تلك الحرب المدمرة، بعد أن بنى أسلافنا هذه القرية التي تحمل اسم جانب التل. كان العديد منهم لا يزالون يعتبرون جانب التل وطناً لهم، لذا لم يتخلوا عنه ولا عن الدفاع عن العالم في مواجهة بهموت، والظلال من

ورائه، ومنذ ذلك اليوم راح الخطّابون يجلبون الحطب إلى مدافئ القرية، لتعزيز هذا الدرّع، ولإبقاء بهموت حبيسًا في سجنه».

هز بارسينو رأسه وقال: «وماذا عن الآخرين؟ ألا يوجد... سحرة آخرون... أعني أبناء النور هؤلاء؟ وماذا عن الخطّابين الذين سمعت عنهم!».

قال أوركين في أسى: «لا أعرف إن كان لا يزال هناك المزيد من شعب أبناء النور في مكانٍ ما في الأرض، لا أعرف سوى قاطني جانب التل. بمرور الزمان تحولت حكاية بهموت إلى خرافة في أذهان العوام، هؤلاء القرويون لا يعرفون شيئًا عن أصلهم، عن أبناء النور وأبناء الظلال، لا يعرفون شيئًا سوى القرية، إنها حياتهم، ولا يعرفون شيئًا عن السر القاتم الموجود في الغابة. بالنسبة لهم هي مجرد غابة مخيفة يجب البقاء بعيدًا عنها، وقد رأى الخطّابون أنه من الأفضل بقاء الأمر على هذه الحال، ربما لا يجب أن يشغل الناس خارج دائرة الخطّابين بالهم بخطر لا قبل لهم به».

ثم تلفت حوله كأنها يسترجع ذكرى قديمة قبل أن يقول: «ما لم ندركه إلا بعد فوات الأوان، هو أن بهموت يزداد قوة لا ضعفًا. لطالما أرسل وحوش الظلال إلى القرية، ولكنهم كانوا دومًا ما يجدون فؤوس الخطّابين في مواجهتهم. إنه يضعف بالنهار ولكنه يزداد قوة بالليل، وخصوصًا في الأيام التي يكون فيها القمر محاقًا. ولكنه يكون في أوج قوته في أوقات كسوف الشمس أو خسوف القمر، في تلك الأيام كان الخطّابون يتكبدون خسائر عظيمة في مواجهة قوى الظلال، إلا أننا ظللنا صامدين. ولكن قبل ثمانية عشر عامًا حدث كسوف للشمس، وقد أطلق الظل قوًى لا قبل لأحد بها، لقي الخطّابون حتفهم في ذلك اليوم، ولم يبقَ على قيد الحياة سواي، أنا من يحرص على بقاء هذا الإله المظلم سجينًا، ومن يحرص على بقاء قرية جانب التل آمنة منه ومن الشرور التي يرسلها إليها من غابة الظلال».

اتسعت عينا بارسينو وقال: «قبل ثمانية عشر عامًا؟».

أوما أوركين برأسه وقال: «أجل، كان ذلك يوم الكسوف، اليوم الذي ولدت فيه».

في تلك اللحظة خرجا من بين الأشجار إلى منطقة أخرى تشبه تلك الموجود فيها معبد الشمس، سجن بهموت، منطقة خالية من الأشجار، بها العديد من المباني الصخرية، ولكن كان بها مبنى يبدو متماسكًا أكثر من البقية، وبه باب صخري مغلق.

كان لا يزال هناك الكثير من الأسئلة التي تتأجج في عقل بارسينو، ولكنه صمت وهو يشاهد الخطّاب يقترب من الباب الصخري ويمد يده أمامه. خيل إليه أنه سمع الخطّاب يهمس بشيء ما، قبل أن يتوهج نقش أحمر على الباب، ثم اتسعت عيناه عندما رأى الباب الصخري يصدر دمدمة وهو ينزاح جانبًا.

سرعان ما غاب الخطّاب بصحبة كلبه عبر البوابة المفتوحة، فأسرع بارسينو لاحقًا بهما وهو لا يقدر على التخلص من دهشته. بدا الباب الذي غاص في الصخر سميكًا ويبدو أنه قد يحتاج لعدة رجال لتحريكه من موضعه، ولكن الخطّاب أزاحه جانبًا دون أن يلمسه!

كان هناك ممر صخري قصير أفضى بهما إلى حجرة واسعة مظلمة، وعلى الضوء الخافت القادم من الباب المفتوح رأى بارسينو الخطّاب يلوح بيده مرةً أخرى فاشتعلت بضع مصابيح زيتية، وراحت ألسنة اللهب تتراقص بداخلها، قبل أن يسمع صوت الباب ينغلق وراءه بقوة. جفل بارسينو وهو ينظر وراءه، ثم جال ببصره مرةً أخرى في الحجرة الصخرية. على ضوء المصابيح رأى أنها مليئة بأشياء عديدة، سلال خوصية معظمها قد تآكل، وعلى الجدار تتراص العديد من الفؤوس كفأس الخطّاب.

قال بارسينو بصوت هامس: «ما هذا بحق الأفلاك؟».

ولكن أوركين سمعه فقال: «كان هذا هو المقر القديم للحطابين، قبل... قبل الكارثة التي أمت بهم، من المباني القليلة التي نجت من الحرب القديمة ولم تتحول إلى أطلال».

هز بارسينو رأسه كأنها لينفض الدهشة عن نفسه، ثم قال: «ولم جئت بي إلى هنا؟».

ابتسم أوركين ابتسامة شاحبة، ثم قال: «ألم أقل لك إني سأجعل منك خطاباً؟».

أوماً بارسينو برأسه وهو يزدرد لعابه، كان يتمنى هذا حقاً، ولكنه الآن يشعر بالتردد. راقب الخطاب وهو يقترب من الفؤوس المتراسة على الجدار الحجري، قبل أن يسمعه يقول: «ستحتاج إلى فأسٍ لكي تكون خطاباً حقيقياً». ثم شاهده يمد يده ليختار واحداً من الفؤوس، وينتزع من موضعه.

التفت الخطاب إليه وسار مقترباً منه حاملاً الفأس على راحتي يديه وعلى وجهه شيء من الحزن، ثم وقف أمامه وهو يمد إليه بالفأس قائلاً: «لا أحد يستحق حمل هذا الفأس أكثر منك».

تردد بارسينو قليلاً، ثم مد يده وأمسك بالفأس، وفي هذه اللحظة أحس بقشعريرة تسري في جسده كله، فقال في حيرة: «لم تقول هذا؟».

تفحصه الخطاب بنظره قبل أن يقول بصوته الرخيم: «لأن هذا كان فأس أبيك».

## الفصل الثامن عشر

### عن الظل والنور

وقعت الكلمة على أذني بارسينو كالصاعقة، فقال بذهولٍ وبصوتٍ مرتجفٍ: «أبي؟ حطّاب؟». أوماً أوركين برأسه، ثم قال مبتسماً في حزنٍ: «كان نامار واحداً من أشجع الحطّابين الذين عرفتهم في حياتي، لقد قاتل وحوش الظلال بشجاعة قبل ثمانية عشر عاماً، ومات دون أن يراك، ولكنك ابنه وتحمل دمائه، وأعتقد أنك تحمل شجاعته».

كرر بارسينو كلامه كأنها لم يسمع ما قاله أوركين: «أبي... حطّاب...». أحس كأن الفأس ازداد ثقلاً وهو يحمله في يديه، ثم رفع عينيه إلى أوركين وقال: «هل كانت جدتي تعرف؟». أوماً الحطّاب العجوز برأسه، فصاح في عدم تصديق: «ولكن لماذا أخفت عني هذا طيلة هذه السنوات؟». تردد صدى صوته في الحجرة، فجفل الكلب.

جثا أوركين على ركبته ليربت على عنق الكلب، ثم نظر إلى بارسينو وقال: «كانت جدتك تخشى أن يكون مصيرك كمصير أبيك، لولا أنني بقيت على قيد الحياة بمعجزة لما ظل هناك حطّابون، فكيف يمكن لجدتك أن تلقي بك في مثل هذا الأتون المشتعل؟».

نظر بارسينو إلى الحطّاب في عتابٍ وقال: «ولماذا لم تقل لي أنت شيئاً؟ لماذا لم تخبرني بالحقيقة؟». قال الحطّاب في لهجة أشبه بالاعتذار: «كانت رغبة جدتك ألا أخبرك بالحقيقة، وقررت احترام رغبتها. رغم أن جدتك حتى يومنا هذا لا تزال تعاملني بجفاء كأنني السبب فيما حدث لابنها». كان هناك مرارة شديدة في كلماته الأخيرة.

حدجه بارسينو بنظره، ثم قال: «أهذا كل شيء؟ أم هناك سبب آخر؟ هل هذا له علاقة بالاثنين اللذين ماتا في الغابة؟».

نظر إليه الحطّاب في دهشة، ثم ابتسم في حزنٍ وقال: «إذن فقد عرفت. أجل، هذا أحد الأسباب أيضاً. كنت متلهفاً لتنشئة جيل جديد من الحطّابين، ولكن لسبب ما كان السحر يتضاءل بين أبناء النور، لسنا جميعاً قادرين على التعامل مع السحر الحبيس في الأطلال والغابة، ولم يبدُ أن أيّاً من أبناء الحطّابين لديه نفسه القدرات السحرية. لقد تمسّس هذان الشابان وصحباي إلى الغابة حيث هاجمتنا مخلوقات الظلال بضرارة، لم أستطع حمايتهما، وألوم نفسي على موتها حتى يومنا هذا. ولكنني قررت بعدها ألا أحاول مرة أخرى، لقد تملكني يأس شديد، ولولا ما أبديته من موهبة لما فكرت في تدريبك. ربما هناك أمل في نهاية المطاف».

أمسك بارسينو الفأس بيدٍ، وتحسس موضع قلبه بيده الأخرى، قبل أن يقول: «أتعني أن هذا الشيء كان مدفوناً في أعماقي طيلة الوقت؟».

أوماً أوركين برأسه وقال: «لقد ظل مدفوناً لوقتٍ طويل، ولكنه قد طفا إلى السطح، ولعل هذا سبب رؤيتك لتلك الأشياء مؤخراً».

فكر بارسينو في الأمر، ثم قال له: «أنت لم تقل لي ما هذا الطيف الذي رأيته بضع مرات!». تنهد الحطّاب ثم قال: «هذا لأنني لا أعرف على وجه اليقين حتى الآن، ولكنني أعتقد أنه شيء له علاقة بهموت».

قال بارسينو كأنها ليتحقق مما سمعه: «الإله المظلم؟».  
أوماً الخطاب برأسه، بينما بارسينو يسترجم ذكرى تلك المرات التي رأى فيها الطيف، لقد بدا خيفاً حقاً في البداية، ولكن في تلك الليلة عندما هاجمته الذئب... لقد بدا مُطْمَئِنّاً بطريقة ما.  
قال بارسينو في حيرة: «ما الذي يريده مني؟».  
هز أوركين رأسه الأشيب وقال: «لا أعرف». ثم أضاف ساخرًا: «من قد يعرف ما الذي يفكر فيه إله مظلم؟».

رفع بارسينو عينيه إلى أوركين وقال: «إن كان السحر قد تلاشى من الأجيال الجديدة كما تقول، فلماذا أمتلك أنا هذه الموهبة كما أسميتها؟».  
تفحصه الخطاب بعينه، ثم قال: «ربما هذا له علاقة بظروف مولدك».  
سأله بارسينو في حيرة: «ماذا تعني؟».

قال أوركين: «لقد ولدت يوم كسوف الشمس. لم أرَ أحدًا يولد في يوم كسوف الشمس من قبل».  
قال بارسينو في ألم: «هذا سبب لعنتي كما يقول الناس، لقد وُلدت دون مباركة الشمس».  
قال له الخطاب: «لا أحد يعرف الحقيقة على وجه اليقين يا ولدي، ولكن لا تتعجل المعرفة، أعتقد أننا جميعًا سنعرف حقيقة كل شيء في نهاية المطاف». ثم حمل سلته الخوصية قبل أن يشير حوله وهو يقول: «تخير لك سلة تكون في حالة جيدة لكي تحمل فيها الخطب، يجب علينا بدء العمل».  
فكر بارسينو: ربما هو محق، ربما لا يجب أن أعرف كل شيء مرة واحدة لكيلا أجن! ومع ذلك لا يزال فضوله مشتعلًا في أعماقه. راح يفتش بين السلال المهترئة حتى وجد واحدة تبدو متماسكة، فعلقها على ظهره ثم أمسك بالفأس ونظر إلى الخطاب.

تفحصه أوركين ببصره وهو يحيط ذقنه بسبابته وإبهامه مفكرًا، ثم قال له: «ستحتاج إلى حزام تعلق فيه فأسك، ولكن لا بأس بهذا الآن».

استدار الخطاب على عقبيه وبدأ يمشي من جديد ناحية الباب الصخري وهو يشير إلى برق أن يلحق به، فتبعه الكلب الأسود على الفور كعادته. أحس بارسينو في البداية أنه يمشي بشكل أخرق وهو يحمل الفأس ويعلق السلّة على ظهره، ولكنه حرص على ألا يبدي هذا.

بحركة مزدوجة من يد الخطاب انطفأت المصابيح وانفتح الباب الصخري، لتظهر الغابة مرة أخرى.  
بدأ ثلاثتهم يمشون جنبًا إلى جنب - حطابان وكلب - بين أشجار الغابة في صمت حتى قال أوركين أخيرًا: «ألم تراودك كوابيس أخرى منذ ذلك الكابوس الذي حكيت لي؟».  
اقتصر جسد بارسينو عندما تذكر الكابوس وقال: «تراودني أحلام عن الغابة والذئب والظلال المخيفة، ولكن لا شيء بنفس وضوح ذلك الحلم الذي حكيت لك».  
لاذ الخطاب بالصمت، فسأله بارسينو: «لماذا تسأل؟».

قال الخطاب: «قلت لك إن بهموت يزداد قوة، أشعر بهذا مع مرور الوقت، لقد استطعنا رده بالكاد في كسوف الشمس السابق، وأشعر أن هناك كسوفًا قادمًا قريبًا، وهذا الكابوس الذي راودك قد أكد شعوري بطريقة ما».

قال بارسينو في خوف: «هل ستقدر على مواجهته؟». ثم قال متظاهرًا بالتجملد: «أعني هل سنقدر أنا وأنت على مواجهته؟».

قال الخطاب في حيرة صادقة: «لا أعرف، أخشى أن المرة القادمة قد تكون نهاية قرينتنا».

شد بارسينو أصابعه على مقبض فأسه الخشبي حتى ابيضت مفاصله وهو يقول: «لا شك أن هناك شيئاً يمكننا فعله».

نظر إليه الخطّاب نظرة جانبية، ثم قال: «ربما يكون الحل أن نرحل عن جانب التل». الرحيل عن القرية! تلك الفكرة التي كاد بارسينو أن ينساها، فقال له دون أن ينتبه لكلماته: «لهذا كنت تتحدث مع العمدة عن رحيل الناس عن القرية؟». ثم ازداد وجهه الأمهق شحوباً عندما أدرك أنه قد ذل بلسانه.

ولكن لدهشته لم يبدأ الخطّاب متفاجئاً وهو يقول: «كيف عرفت أنني تحدثت مع أمر يد في هذا؟». هذه المرة اكتسى وجهه الأبيض بمسحة من حمرة الخجل وهو يقول: «ربما استرقت السمع إلى حديثكم». تضاعفت دهشته عندما ضحك أوركين قبل أن يقول: «لقد أرادت أورتينا أن تحميك من المتاعب، ولكنك كنت مصرّاً على البحث عنها بنفسك».

ولكن سرعان ما تلاشى المرح من ملامح العجوز، لتحل محله الجدية وهو يقول: «إنها مجرد محاولة يائسة، ولكنني لا أريد أن نجلس مكتوفي الأيدي ونحن ننتظر مصيرنا... هلاكنا». تلفت بارسينو حوله ناظراً إلى الغابة وأشجارها الكثيفة، قبل أن يقول: «ألا يوجد شيء وراء الغابة؟ هذه العوالم التي تحدثت عنها؟ بالتأكيد تبقى منها شيء في مكان ما؟». لا يزال غير قادر على تخيل ما الذي يبدو عليه العالم وراء الغابة، أو مدى اتساعه، كانت الفكرة ذاتها تملأه بالرهبة.

نظر أوركين إلى الأشجار بدوره، قبل أن يقول: «بحسب الكتب فإن العالم قد غرق في الظلام والفوضى منذ هزيمة أبناء النور على يد أبناء الظلال، ولكن كل هذه الكتب عتيقة للغاية، لا أعرف كيف هو شكل العالم الآن. ولكنني منذ أن تيقنت من هزيمتنا وأنا أفكر في الرحيل. أحياناً ما أقضي أياماً أمشي في الغابة لعلني أجد لها نهاية، ولكن بلا فائدة، تبدو هذه الغابة اللعينة وكأنها تمتد بلا نهاية حقاً. ولكنني لا أقدر على الابتعاد كثيراً لأن القرية تحتاج إليّ، وكنت أقول لنفسي ربما إن رحلنا جميعاً فيمكننا المواصلة حتى النهاية، حتى نخرج من غابة الظلال إلى النور».

عقد بارسينو حاجبيه وهو يقول: «والعمدة يرفض الرحيل؟». تنهد أوركين ثم قال في ضيق: «هذا الأحمق لا يفكر إلا في العمودية». قال بارسينو بدهشة: «ماذا تعني؟».

زفر الخطّاب العجوز ثم قال: «عندما يهجر الناس القرية فلن يظل عمدة على أي شيء. أعتقد أنه مدرك لطبيعة الخطر، ولكنه يعتقد أن القرية ستنجو منه مثل كل مرة، حتى وإن كان الثمن بعض الضحايا». اتسعت عينا بارسينو في عدم تصديق، ثم قال في لهفة: «وماذا إن أخبرنا الناس؟ ألا تعتقد أنهم سيفضلون الرحيل على البقاء والمخاطرة بحياتهم؟».

ابتسم الخطّاب في أسى وقال: «هل سيعصون عمدتهم ويطيعوننا؟ لقد حرص الخطّابون على إخفاء دورهم الحقيقي سرّاً عبر الأجيال، تاركين حكم القرية للعمد يتوارثونه جيلاً بعد جيل، إن العمدة يمثل لهم القوى العليا، والحكمة الشاملة، وأنا في نظرهم مجرد خطّاب يحشونه حتى لو كانوا يحتاجون إليه». ثم نظر إليه وقال: «وأنت منبوذ أيضاً فمن سيصدقك؟».

ظهر الأسى على وجه بارسينو، ثم قال في محاولة أخيرة يائسة: «حتى وإن أدركوا أن حياتهم في خطر؟ ماذا لو أخبرتهم بحقيقة الخطّابين؟ وأنت من حميهم حقاً؟ وكل ما قلته لي عن بهموت وأبناء الظلال؟ أليسوا من نسل أبناء النور مثلي ومثلك؟».

هز أوركين رأسه وقال: «لن يصدقوا شيئاً من هذا، لقد صار هذا الكلام بالنسبة لهم مجرد أساطير، ثم خرافات، ثم حكايات يرويها العجائز في ليالي الشتاء الباردة، لا أحد في القرية يقرأ، وإن قرأوا فلن يصدقوا. وحتى إن صدقوني فأين سيذهبون؟ إنهم لم يعرفوا شيئاً في حياتهم كلها سوى قرية جانب التل. التصديق سيكون أكثر صعوبة على أنفسهم من تكذيبنا، حتى وإن أدركوا أنهم معرضون للخطر. إنهم ببساطة لا يملكون مكاناً يذهبون إليه سوى هذا المكان؛ قريتهم، ولهذا سيصدقون عمدتهم ويتبعونه في كل شيء».

ثم شرد بنظره نحو الأفق وهو يقول: «ولكن ربما كل ما أحتاجه هو دليل، ربما إن رأيت العالم خارج الغابة بنفسني».

قال بارسينو في دهشة: «أنت نفسك لا تقدر على تصديق نفسك تماماً! تريد إقناع نفسك لكي تقدر على إقناع غيرك، أليس كذلك؟».

ظهرت ابتسامة ساخرة مريرة على وجه أوركين وهو يقول: «ربما تكون هذه هي الحقيقة، وربما أريد أن أضع الحقيقة في وجه أمريد وأكسر أنفه المتعجرف».

قال له بارسينو: «لهذا غبت فترة طويلة عن القرية؟ أعني قبل هجوم الذئاب؟».

أوما الخطاب برأسه ثم قال: «لقد مشيت كثيراً، مدفوعاً بالعناد أكثر من أي شيء آخر. وكلما فكرت في العودة كنت أقول لنفسني: فلتنهب أبعد قليلاً. في كل مرة أبتعد قليلاً عن آخر نقطة وصلت لها في الغابة، ولكن هذه المرة فاتني شيء، أنني قد لا أعود قبل ليلة المحاق. قد لا يكون ضياء القمر كافياً لمنحنا نفس الحماية التي يمنحها لنا ضياء الشمس، ولكنه يحمينا بعض الشيء مع ذلك، بمساعدة الحاجز الذي يحيط بالقرية. ولكن في ليلة المحاق يكون الظل قوياً حقاً، ولم أكن موجوداً لأحمي الناس مما حدث لهم».

أراد بارسينو أن يواسيه، ولكنه لم يجد كلمات المواساة الملائمة، فربما كان هذا ذنب الخطاب حقاً.

وكانها أحس أوركين بما يدور في خلده، فقال له: «عندما أدركت أنني ابتعدت كثيراً عدت بأقصى ما لدي من سرعة، وواجهت وحوشاً من الظلال في طريقي أنكنتني في مواجهتها والقضاء عليها. باقترابي من القرية شاهدت كم كان الحاجز ضعيفاً لقلة الحطب الذي يحترق في مداخل القرية، ولاحتجاب القمر في تلك الليلة، وكنت ضعيفاً بسبب المشي الطويل ومحاربة الذئاب، فملاً اليأس قلبي وظننت أنها النهاية. ثم شعرت بشيء يناديني فرحت أشق طريقي عبر القرية، بحثاً عنه، كأنها هو مصدر قوة عظيمة، ولم أعرف ما هو حتى رأيتك، وشاهدتك تنقذ القرية».

ظن بارسينو أن الخطاب يمزح، ولم يشعر أنها مزحة طريفة، ولكنه شاهد الجدية التامة على ملامح أوركين، فقال في حيرة: «ماذا تقصد بأني من أنقذ القرية؟».

قال الخطاب: «هذه القوة التي كانت محتجزة بداخلك لسنوات وسنوات، لقد تحررت في تلك اللحظة، وتفجرت، فدمرت قوى الظلال، وكادت أن تقتلك بدورك، لولا أن الكتاب الذي يحمل شيئاً من سحر أبناء النور قد أنقذ حياتك في تلك اللحظة، واحتاج الأمر مني لجهد عظيم كي أحمي جسدك من تحطمه تحت وطأة هذه القوة المتحررة».

قال بارسينو في عدم تصديق: «أنا من أنقذ القرية؟». ثم قال بصوت مرتجف: «ولكن لماذا تحررت هذه القوة، وفي هذه اللحظة؟». لا يزال غير قادر على تصديق أنه فعل شيئاً كهذا.

قال له الخطاب: «قوة أبناء النور بداخلك أنقذت القرية، ربما اختارت أن تتحرر في الوقت المناسب».

فجأة سمع بارسينو صوتاً يهمس داخل عقله: الخطاب يكذب عليك.

أحس بارسينو بوخزة من الألم في قلبه فوضع يده على صدره وهو يقول: «ماذا تعني؟».

نظر إليه الخطّاب في دهشة ثم قال: «أعني ما قلته لك، أنك ربما قد ورثت قوة نامار وشجاعته». همس الصوت مرةً أخرى في أعماقه: الخطّاب يخاف منك، يخاف من قوتك. الألم مرةً أخرى! تلفت بارسينو حوله وهو يقول: «ما هذا الصوت؟». تلفت الخطّاب حوله في شك وريبة وهو يقول: «لم أسمع شيئاً». ثم سأله باهتمام: «ما الذي سمعته بالضبط؟».

كان بارسينو على وشك أن يخبره بما سمعه، ولكنه قرر في اللحظة الأخيرة أن يحتفظ بالأمر لنفسه، فقال وهو يعد يده عن صدره: «إنها خشخشة الأغصان فحسب، يبدو لي أنني متوترٌ أكثر من اللازم». واصل الخطّاب التحديق إليه، ثم قال: «ربما يخفف العمل من توترك، فأماننا عمل طويل، سنحتاج إلى الكثير من الحطب لملء مدافئ القرية». وضع أوركين سلته الخوصية جانباً وهو يقول له: «والآن فلنتخير الشجرة التي سنقطعها ونحولها إلى حطب، ستكون هذه بدايتك كحطّاب حقيقي».

تلفت بارسينو حوله، ولاحظ وجود العديد من الأشجار المقطوعة، فتساءل في قرارة نفسه كيف قطع الحطّاب هذه الأشجار العملاقة. ثم راوده سؤال آخر فقال: «كيف لم تنفذ الأشجار بعد قرون من قطع الحطّابين لها؟».

قال له الخطّاب: «هذه الأشجار تنمو سريعاً، لا يزال بها شيءٌ سحري بعد كل هذه القرون». قال بارسينو وهو يضع سلته الخوصية جانباً: «وهل سيكون ما ستعلمه لي هو تقطيع الحطب فحسب؟». ابتسم أوركين وقال: «وسيكون عليك تعلم القراءة أيضاً؛ قراءة اللغة الشائعة الآن، ولغة أبناء النور القديمة، التي كتبت بها كل هذه الطلاسم. سيكون هذا هو المصدر الذي تستمد منه قوتك». ابتسم بارسينو بدوره وقد أحس بشيء من الحماس.

سار أوركين مقترباً من إحدى الأشجار وهو يقول: «ولكن علينا في هذه اللحظة الاهتمام بتجهيز الحطب الذي تحتاج إليه القرية. فلتجرب ضرب هذا الجذع». تردد بارسينو في موضعه وهو يحمل فأسه. لم يكن الفأس ثقيلاً ولكنه بدا متيناً رغم مرور سنوات عديدة عليه. أمسك به في تردد ثم اقترب من الشجرة قبل أن يرفع النصل ويهوي به على جذعها بقوة. أحس بارتداد الضربة على طول ذراعه، وكاد الفأس أن يسقط من يده ولكنه تشبث به، ثم تراجع إلى الوراء وهو يتأمل الجذع، لم يبدُ عليه حتى أنه قد خُذش. ابتسم الخطّاب وقال: «حسناً، تراجع إلى الوراء وراقبني».

استل الخطّاب فأسه وتمتم ببضع كلمات فتوهج نصل فأسه، ثم راح يقفز قفزات رشيقة - بذلت عينا بارسينو جهداً كبيراً في تتبعها - وهو يضرب جذع الشجرة ضربات متمرسمة متتالية، بينما برق يراقبه بلا اكتراث.

اتسعت عينا بارسينو مع كل ضربة، حتى تراجع الخطّاب إلى الوراء أخيراً وهو يقول له: «انتبه». تراجع بارسينو بشكل غريزي، بينما جذع الشجرة العملاق يهوي ببطء، حتى سقط على الأرض أخيراً بارتظام مدوّ، وتصاعدت سحب الغبار في الهواء فراح بارسينو يسعل وهو يغطي فمه بيده ويغمض عينيه. عندما فتحتها مرةً أخرى كانت سحب الغبار قد انقشعت، ثم قال للحطّاب في انبهار: «هل ستعلمني كيف فعلت هذا؟».

قال الحطاب: «بالطبع، إن كلمات أبناء النور هي مفتاح قوتهم». ثم تأمل الشجرة قبل أن يقول: «هذه الشجرة ستكفينا لبضعة أيام، سنقطع الآن ما نقدر على قطعه ونحملة في سلتيينا، وسنعود في الأيام التالية لإكمال عملنا».

فجأة رفع الكلب الأسود رأسه وهو ينبح، فانتبه بارسينو، ثم لاحظ شيئاً مظلماً أشبه بثعبانٍ أسود يزحف من بين أغصان الشجرة، فترجع في فزع، ولكن الحطاب قفز ناحية الثعبان وهو يشهر فأسه ثم هوى عليه بالنصل فأصدر فحيحاً قبل أن يتحول إلى دخان أسود سرعان ما تلاشى في الهواء.

عقد أوركين حاجبيه وقال: «سيكون عليك الحذر ما دمت في غابة الظلال، فالذئاب ليست وحوش الظلال الوحيدة هنا. ورغم كون بهموت سجيناً داخل كرة النور إلا أن شيئاً من قوته قادر على التسلل منها من أن لآخر حتى بالنهار».

ازدرد بارسينو لعبابه، لم يكن هذا مطمئناً. لاحظ أوركين هذا فقال: «لا تقلق، إن برق سيكون منتبهاً لأي شيء غريب يحدث من حولنا، ولكن سيكون عليك ألا ترخي حواسك وأنت بداخل الغابة».

في هذه اللحظة تذكر بارسينو قدرة الكلب الأسود العجيبة على مواجهة وحوش الظلال، في ظل الأحداث المتسارعة لم يفكر في سؤال الحطاب عن الأمر، لذا قال على الفور: «كيف تمكن برق من مواجهة الوحوش في سجن بهموت؟».

ابتسم أوركين وقال: «يملك أبناء النور قدرة على منح شيء من قوتهم للآخرين، ليس فقط للمخلوقات الحية، بل وحتى الجمادات أيضاً». ثم اقترب من بارسينو ومد يده ناحية نصل فأسه، وتمتم بالكلمات ذاتها التي تتمم بها قبل قطع الشجرة، فتوهج النصل بينما الحطاب يقول: «الآن يمكنك مساعدتي على تقطيع هذا الجذع».

نظر بارسينو إلى فأسه، ثم نظر إلى الكلب العجوز في رهبة، قبل أن ينفض الفكرة عن رأسه ويسرع إلى مساعدة الحطاب في تقطيع جذع الشجرة إلى قطع من حطب يمكن وضعها في السلتين. انهمكا في الأمر لبعض الوقت، حتى صارت سلة الحطاب ممتلئة بقدر مرتفع من الحطب كالعادة، بينما ملأ بارسينو سلته بقدر معقول. حمل أوركين سلته ببساطة، أما بارسينو فبدأ عليه أنه يقاوم لكيلا يسقط أرضاً مع ثقل عبئه. قال أوركين مشفقاً: «دعني أخفف عنك الحمل قليلاً».

ولكن بارسينو - الذي اكتسى وجهه الأبيض بشيء من حمرة الاحتقان - قال في عناد: «لا، لا بأس، يمكنني حملها». أحس أن ساقه ترتجفان، ولكنه حاول أن يخفي هذا، لا يريد أن يبدو ضعيفاً أمام أوركين. ولكن الحطاب مد يده إلى السلة الخوصية، وتمتم بشيء ما، وحينها أحس بارسينو فجأة أن السلة لم تعد ثقيلة، مما أثار دهشته، ولكنه لم يعلق، قريباً سيعلمه الحطاب العجوز كل ما يعرفه، وسيكتسب قوة كقوته.

وهكذا سارا معاً عائدين عبر الغابة، وقد انشغل بارسينو بالتفكير في الصوت الذي يهمس في عقله؛ ما الذي يعنيه بأن الحطاب يكذب عليه؟ ولم يقول إنه يخشاه؟ هل بهموت موجود داخل رأسه حقاً؟ نظر ناحية الحطاب وهو يفكر كيف يمكن أن يطرح عليه هذا الأمر، ثم قرر أن ينتظر قليلاً وألا يتعجل.

كان أوركين صامتاً طيلة الوقت، وقد بدا غارقاً في أفكاره الخاصة، فنظر إليه بارسينو وهو يفكر فيما يدور في ذهن الحطاب العجوز. لقد تحدث عن كسوفٍ أت، ولكن لم يقدر عدد كبير من الحطابين على مواجهة بهموت في الكسوف السابق، فما الذي يقدر على فعله حطابان اثنان فقط؟ ثم ابتسم في سخرية وهو يفكر في قرارة نفسه: وكأنما صدقت أنك صرت حطاباً! ولكن حمل الحطب الثقيل على كتفيه قال له إنه حطابٌ حقاً.

عندما اقتربا من التلألؤ العجيب أحس بارسينو بالقشعريرة وقد أدرك أنه على وشك المرور عبر حاجز سحري. كتم أنفاسه للحظة وهو يعبر الحاجز، الذي توج حول جسده، قبل أن يجد نفسه على الناحية الأخرى، فزفر في ارتياح.

كان الوقت قد شارف على المغيب، والعديد من الناس قد عادوا إلى بيوتهم، أو في طريقهم إلى العودة، أما العدد القليل المتبقي من المزارعين والرعاة فراح يرمقها بنظرات متسائلة، وخصوصاً الفأس في يد بارسينو، والخطب على ظهره، كان هذا مشهداً لم يعهدوه من قبل.

تجاهل بارسينو نظراتهم وهو يفتش عن صديقه أكينو بين المزارعين، قال لنفسه: أين ذهب بحق النجوم! كان من المفترض أن يكونا معاً هذا اليوم.

قاطع أوركين أفكاره بقوله: «عمّ تبحث؟».

تنهد بارسينو وقال: «صديقي أكينو».

قال الخطّاب: «ربما يكون من الأفضل ألا تخبره بكل ما قلته لك اليوم، أخبره فقط أنك ستعمل خطّاباً معي».

قال بارسينو محتجاً: «ولكنه صديقي وكان معي في هذا الأمر منذ بدايته، يجب أن يعرف...».

هز أوركين رأسه وهو يقاطعه قائلاً: «لا يجب أن يعرف مخلوق بالأمر، حتى جدتك». ثم تنهد وقال: «رغم أنني أخمن أنها ستدرك أنك عرفت كل شيء بالفعل بعملك معي خطّاباً، ولكن حاول ألا تبوح أمامها بكل شيء، وخصوصاً خطر كسوف الشمس القادم».

أوماً بارسينو برأسه رغم أنه لم يقتنع، قرر في قرارة نفسه أن يخبر أكينو بكل شيء، وأن يؤكد عليه أن يبقى الأمر بينهما. وبينما يفكر في هذا قال له الخطّاب: «سيكون علينا توزيع هذا الخطب على بيوت القرية الأكثر حاجة إليه، علينا تتبع المداخن التي لا يتصاعد منها دخاناً. في غضون بضعة أيام من العمل الجاد ستمتلى بيوت القرية بالخطب مرةً أخرى».

تجاوزا المراعي والمزارع ثم عبرا بوابة السور معاً بينما الحرس يتأملونها في دهشة، ولكنهما تجاهلا النظرات والهمسات وهما يصعدان جانب التل، حتى وصلا إلى أقرب البيوت التي لا يتصاعد منها الدخان. استقبلتهما الناس بمزيج من الفرحة والخوف والهمسات المتسائلة، ولكن الخطّاب لم يفعل شيئاً أكثر من تسليم الخطب وقبض الثمن من الناس.

بينما تلو الآخر راح الخطب يتناقص من السلتين، حتى تبقى القليل من الخطب في سلة بارسينو، فقال له أوركين: «فلتأخذ ما تبقى من حطب إلى بيتك». ثم مد يده إلى جيبه وأخرج ما جمعه من عملات نحاسية، فتقاسمه مع بارسينو وهو يقول: «هذا هو نصيبك نظير تعب اليوم، فلتحرص على أن تأتي مبكراً في الغد، سيكون هناك دروس لتعليمك القراءة بجانب قطع الخطب».

أحس بارسينو بالفرحة لأنه عاد من جديد لجني المال، بعد فترة طويلة من تركه العمل لدى السيد نيربو، لا شك أن جدته ستفرح بهذا كثيراً، ثم اكتسى وجهه بالوجوم عندما تذكر ما سيحدث عندما ترى الفأس والسلة وتعرف أنه قد صار خطّاباً، لن تحتاج حتى لسؤاله عن مصدر هذا المال.

لوح له الخطّاب بيده وهو يتعد بصحبة كلبه بينما يقول: «سأنتظرك في الغد».

لوح له بارسينو بدوره قبل أن يبدأ في التوجه ناحية بيته وهو يفكر كيف سيواجه الجدة أورتا بفأسه وسلته.

## الفصل التاسع عشر

### حقائق وأكاذيب

ما إن فتحت الجدة أورتنا الباب استجابة للطرقات حتى تجمدت في موضعها وهي تحدق إلى حفيدها يحمل في يده فأسًا، وعلى ظهره سلة خوصية.

تجمدت الكلمات على لسانها بينما حفيدها يزيحها جانبًا برفق ويخطو إلى الداخل. وضع فأسه على الطاولة وأنزل سلة الحطب بجانب المدفأة، ثم تخير منها قطعة كبيرة ليضعها في المدفأة ويبدأ في إشعالها على الفور. لم تمض لحظات حتى كانت المدفأة تطلق النار، والدفء ينبعث في ردهة البيت، فخلع بارسينو معطفه ووضع على الطاولة بجانب الفأس.

التفت بارسينو إلى جدته ورسم على وجهه ابتسامة وهو يقول بمرح مصطنع: «انظري يا جدتي لقد حصلت على عمل جديد». ثم أخرج من جيبه العملات النحاسية التي أعطاها له الحطاب ووضعها على الطاولة أمامها بينما تلقي بجسدها في ثققل على أحد الكراسي الخشبية، ولا تزال تبدو غير قادرة على الحديث.

تلاشت الابتسامة من على وجه بارسينو ببطء وهو يقول: «ألا يسعدك أنني أجني المال من جديد؟». ترقرت عينا الجدة بالدموع وهي تقول: «هذا ما كنت أخشاه، أنت تمشي في نفس الطريق». سألتها بهدوء: «طريق من؟». وعندما لم تجبه قال لها: «تقصدين أبي أليس كذلك؟». أطرقت الجدة برأسها، وكانت هذه إجابة كافية بالنسبة له، فقال لها بلووم: «لماذا لم تخبريني من قبل أن أبي كان حطابًا؟».

قالت الجدة في حزن: «كنت أحاول حمايتك من أن تلقى نفس مصيره. لم يجلب له هذا سوى الموت في النهاية، وأخاف عليك من نفس المصير».

أراد أن يخبرها بما قاله له أوركين عن كسوف الشمس، وأن النهاية موشكة بالنسبة للجميع، ولكنه تذكر تحذير الحطاب، وكذلك لم يرغب في إثارة ذعر جدته المسكينة.

تمالك أعصابه وهو يتنفس بعمق، قبل أن يقول لها: «أنا لا أفعل شيئًا خطيرًا، لا شيء سوى جلب الحطب من غابة الظلال». حملت كلماته الأخيرة لمحة من السخرية، ولكنه سرعان ما قال بلطف: «لا تخافي يا جدتي، لن يحدث لي مكروه».

رفعت جدته عينيها الدامعتين لتنظر إليه وهي تقول: «أتمنى هذا يا باري، أتمنى هذا حقًا يا بني». في هذه اللحظة تعالت طرقات قوية على الباب. نظر بارسينو نحو النافذة، كانت الشمس قد غربت، من الذي قد يأتيهم في وقت كهذا؟

تعالت الطرق مرة أخرى مع صوت أجش يصيح: «افتح الباب».

وقف بارسينو وراء الباب وهو يقول: «من هناك؟».

أجابه الصوت باقتضاب: «حرس العمدة».

اتسعت عينا بارسينو، ثم نظر ناحية الفأس قبل أن يضع عباءته فوقه على الفور ليخفيه، ثم فكر كم كان هذا سخيفًا، لقد رأته القرية كلها بصحبة الحطاب عائدًا من القرية، كما تذكر الحارس الذي كان يراقبه هو

والخطاب هذا الصباح.

قالت له الجدة: «افتح الباب يا باري».

أوما لها بارسينو برأسه وتوجه ناحية الباب، ثم فتحه ليجد ثلاثة من حرس العمدة يحملون هراواتهم، وأحدهم يقول: «العمدة يريد رؤيتك، تعال معنا».

قالت أوريتا في حدة: «ما الذي تريدونه من حفيدي؟».

قال الحارس بفظاظة: «هذا ليس من شأنك».

قال بارسينو: «لا بأس يا جدي، لا تقلقي لن أتأخر».

قال حارس فظ آخر: «لست أنت من يقرر هذا، بل سيادة العمدة. لا تضع الميزيد من الوقت».

قالت له أوريتا في قلق: «دعه يرتدي معطفه على الأقل، فالجو بارد بالخارج!».

نظر بارسينو إلى الحرس متسائلاً فأوماً له أحدهم برأسه. عاد إلى الطاولة وأمسك بالمعطف، وما إن رفعه حتى لمع نصل الفأس على ضوء المدفأة. بدا التردد على الحرس، ولكن بارسينو ارتدى معطفه على الفور وهو يتوجه ناحية الباب قائلاً: «هيا بنا». ثم ودع جدته بابتسامة خاطفة قبل أن يغلق الباب وراءه.

اصطحبه الحراس الثلاثة معهم، اثنان على جانبيه، والثالث يتقدمهم، وقد ارتسمت الجدية على وجوه ثلاثتهم. دارت أفكار عديدة في رأس بارسينو وهو يقطع شوارع القرية؛ ما الذي يريده منه العمدة؟ هل سيتحدث معه بشأن الخطاب؟ ماذا يجب أن يقول له؟ تمنى لو أن أكينو معه في هذه اللحظة، على الأقل لن يواجه العمدة وحده، أو على الأرجح العمدة وحاجبه.

كانت القرية مظلمة في الليل، ولم يلتقوا بعدد كبير من الناس، ومن التقوا به كان يشيح ببصره كأنها لم ير حرس العمدة أو بارسينو. بدت الأطلال التي تكتنفها الظلال مهيبية في ضوء القمر الشاحب - الذي لا يزال هلالاً - وخصوصاً بعد أن عرف حقيقتها.

أهذه هي الحقيقة حقاً؟ ما أخبره به الخطاب؟ كل هذا الحديث عن أبناء النور وأبناء الظلال وتلك الحرب القديمة؟ شعر بداخله أن هذه هي الحقيقة، ولكنه لا يريد أن يصدق أن القرية على وشك أن تبنى. وماذا عن الصوت الذي همس بداخله أن الخطاب يكذب؟ هز رأسه وهو ينفذ الأفكار عن رأسه، فنظر له الحراس في ريبة، ولكن الموكب الصغير واصل سيره حتى وصلوا إلى الساحة الكبرى. لاح من ورائها بيت العمدة، والضوء يطل من نوافذه.

سرعان ما خطا بارسينو إلى داخل بيت العمدة للمرة الثانية، قبل أن يجد نفسه في نفس الحجرة، بينما العمدة وحاجبه في انتظاره، أمريد جالساً على مكتبه وشابكاً أصابعه أمام وجهه، بينما أوثار يقف إلى جانبه وقد اكتسى وجهه بقناع جامد.

ترجع الحرس الثلاثة مغلقين الباب وراءهم، تاركين بارسينو هناك، يشعر بالتوتر، بينما يحاول إظهار التجلد على ملامحه الجامدة. مضت لحظات قليلة من الصمت، ولكنها بدت لبارسينو طويلة وثقيلة، حتى تكلم العمدة أخيراً.

سأله السيد أمريد: «أتعرف لم أنت هنا يا بارسينو؟».

قال بارسينو: «لا يا سيدي». تمنى ألا يكونا قادرين على سماع صوت خفقات قلبه.

تفحصه العمدة بعينه ملياً، قبل أن يسأله: «ألم أكلفك بمهمة محددة أنت وصديقك؟».

أجابه بارسينو بنفس النبرة الجامدة: «بلى يا سيدي». تساءل في قرارة نفسه: أين أنت بحق النجوم يا أكينو؟

صمت العمدة من جديد كأنها ينتظر إجابة أخرى، حتى قال أوثار في نفاذ صبر: «لا تضيع وقت العمدة، وقل له ماذا فعلت في مهمتك».

تنحى بارسينو ثم قال: «أنا أبقى عيني على الخطاب كما أمرني العمدة». قال أمريد ساخراً: «أهذا يشمل عملك معه خطاباً؟ لا أتذكر أنني طلبت منك فعل هذا». تردد بارسينو قليلاً، كان يعرف مسبقاً أن الخبر سيصل إلى العمدة عاجلاً أو آجلاً، ولكنه حتى هذه اللحظة لم يجد الإجابة المناسبة لسؤال كهذا، ثم قال أخيراً: «كنت بحاجة إلى عمل ما، ولا يبدو أن هناك الكثيرين ممن هم مستعدين لتأجيرني للعمل لديهم، والخطاب قد قبل هذا، كما أنني فكرت أن بقائي بالقرب منه هو أفضل طريقة لمراقبته ومعرفة ما يسعى إليه».

اتكأ العمدة بذقنه إلى أصابعه المعقودة وهو يقول: «حقاً؟ وماذا عرفت؟». ازدرد بارسينو لعابه ثم قال: «لم أعرف شيئاً بعد». تبادل العمدة وحاجبه النظرات، ثم قال أمريد: «أخبرني، ما الذي يوجد داخل غابة الظلال؟». اتسعت عينا بارسينو دهشة، ثم قال: «غابة الظلال يا سيدي؟». عقد أمريد حاجبيه وقال: «لا داعي لإضاعة الوقت، أنا أعرف أنك ذهبت إلى الغابة بصحبة الخطاب». قال بارسينو: «ذهبت معه لجلب الخطب، ولا شيء سوى هذا، يمكنك سؤال قاطني القرية الذين بعنا لهم الحطب اليوم...».

ضرب العمدة سطح المكتب بيده وقال بغضب: «لا تكذب علي! ما الذي قاله لك الخطاب عن كرة الضوء؟».

فغر بارسينو فاه في ذهول، ولكن العمدة قال بحدة: «أنا أعرف كل شيء، وأعرف أنك تزعم رؤيتك لأشياء لا يراها غيرك؟». ثم مال للأمام وقال باهتمام: «أخبرني، هل ترى حقاً أشياء لا يراها غيرك؟». أحس بارسينو بالصدمة لسؤال العمدة، ولكنه قال على الفور: «لا يا سيدي، لا أرى سوى ما يراه الناس...». بدأ بارسينو يستوعب كل شيء ببطء؛ معرفة العمدة بكرة الضوء، معرفة أنه يرى أشياء لا يراها غيره حتى لو لم يكن يصدق هذا، لا يمكن أن يعرف العمدة كل هذا إلا إذا... تهدل كتفا بارسينو وقال بضعف: «لقد أخبرك أكينو...». لم يستطع أن يكمل جملته فهمس بالكلمة الأخيرة قبل أن يصمت.

تبادل العمدة وحاجبه النظرات للمرة الثانية، قبل أن يقول العمدة: «لا شأن لك بكيفية معرفتي بهذا، أنت لست هنا لتطرح الأسئلة بل لتجيب عنها!».

نظر إليه بارسينو بحزن وقال: «إن كان أكينو قد أخبرك بكل شيء، فما الذي تريد معرفته مني؟». لا يزال غير قادر على تصديق أن أكينو قد وشى به.

قال العمدة: «أريد أن أعرف ما الذي تخطط له أنت وهذا الخطاب، ما الذي تسعيان وراءه؟ هل هو من حضك على ترويج إشاعات بأنك ترى أشياء غريبة لكي تثير الذعر في القرية».

همس صوت بداخل بارسينو: لا أحد يحبك. لا أحد يصدقك. حتى صديقك قد خانك! وضع بارسينو يديه على أذنيه وهو يقول في ألم: «لا أريد سماع المزيد».

بدا أن أوثار على وشك الحركة من موضعه، وكأنها ظن أن ما يقوله بارسينو موجه للعمدة، ولكن أمريد أشار له بيده، قبل أن يقول برفق: «أنا العمدة يا بني، مهمتي هي الحفاظ على أمان جانب التل بأي وسيلة

ممكنة. لقد فعل صديقك الشيء الصحيح بإخباري بما حدث، ويجب عليك أن تفعل المثل. ربما يكون هناك خطر ما يهدد القرية ولا أعرف به، ألا يحق لي كعمدة أن أعرف هذا؟».

صمت بارسينو قليلاً وقد أحس بشيء من المنطق في كلام السيد أمريد، ولكن رغم هذا لا يزال قادراً على الإحساس بالطعنة الباردة في قلبه، لقد خانه أكينو! لم يقطع العمدة صمته وهو يتفحصه بعناية، وكان بارسينو قادراً على الإحساس بنظراته كخناجر حادة.

لقد أنقذ الحطاب حياتهما في غابة الظلال، لو لم يأت في الوقت المناسب لانتهى أمرهما على الأرجح... حسم بارسينو أمره، لن يخبر العمدة بالحقيقة.

وأخيراً قال بارسينو ببطء: «ما حدث في الغابة تعرفه بالفعل، لقد ذهبت إلى هناك بصحبة أكينو، وهاجمتنا الذئاب قبل أن ينقذنا الحطاب».

عقد العمدة حاجبيه وهو يقول: «ألم يخبرك أوركين ما الذي يوجد بداخل كرة الضوء؟».

هز بارسينو رأسه وقال: «لم يخبرني سوى أن أظل بعيداً عنها ما دمت في غابة الظلال».

قال له العمدة وهو يميل للأمام: «يبدو لي أنك تخفي شيئاً، كما أن أكينو صديقك يقول إنك تثق في الحطاب، وأنت تميل لتصديق ما يقوله هذا العجوز الخرف».

قال بارسينو في حنق: «أكينو يكذب».

نظر له أمريد في شك، ثم قال: «ولم قد يكذب أكينو؟ أليس هو صديقك المقرب؟ ما مصلحته في الكذب؟».

قال بارسينو بوجوم: «لم أعد أعرف من هو صديقي بعد اليوم، ولكنه ربما يكذب لينال حظوة لدى العمدة».

لم يبدُ الاقتناع على وجه العمدة وهو يقول: «على حساب صديقه؟».

قال بارسينو: «ربما». كان وجهه جامداً كالصخر.

تنهد العمدة ثم قال: «فلنقل إنني صدقت أنك تفعل هذا للتقرب من الحطاب، فهل عرفت منه شيئاً ذا قيمة؟ هل قال لك شيئاً عن خططه للرحيل عن جانب التل؟».

فكر بارسينو في الحديث الذي دار بينه وبين الحطاب، ربما يمكنه أن يقول شيئاً من الحقيقة دون أن يعرض نفسه أو الحطاب لأي أذى. لاحظ العمدة صمته فقال: «هيا أصدقني القول».

قال بارسينو: «أخبرني أنه يفكر بالفعل في مسألة الرحيل». ظهرت ابتسامة على وجه العمدة، فأكمل بارسينو: «أخبرني أنه يغيب أياماً، يقطع فيها الغابة، محاولاً الوصول إلى ما وراءها، ولكنه في المرة الأخيرة مشى كثيراً ولم يصل إلى شيء، فقرر التخلي عن الفكرة، ربما لا يوجد أمامنا شيء سوى العيش هنا للأبد بينما نحاول أن نردع خطر الغابة».

قال أمريد: «حسناً إذن، سيكون عليك الاستمرار في مراقبته، دون أن يشعر بأنك تراقبه، يجب أن نحرض على أنه قد نزع فكرة الرحيل تماماً عن عقله».

قال بارسينو في دهشة: «أيعني هذا أنك لا تمنع أن أوصل العمل معه حطاباً؟».

لوح العمدة بيده وهو يقول: «لا بأس بهذا، فنحن بحاجة للحطب، ولكن سيكون عليك المجيء كل بضعة أيام لتخبرني بكل ما يفعله الحطاب، وكل ما تعرفه عن الأفكار والمخططات التي تدور في عقله الماكر».

سمع بارسينو الصوت يهمس: كلهم كاذبون! فتلفت حوله، كان الصوت ضعيفاً للغاية.

سأله العمدة: «ما الذي تبحث عنه؟».

هز بارسينو رأسه وقال: «لا شيء، هل يمكنني الانصراف الآن؟». صمت العمدة كأنها يفكر في الأمر، ثم قال له: «يمكنك أن تنصرف، ولكن عليك أن تعرف أن كل أعيني تراقبك، لقد وثقت بك مرةً وخذلتني، ولكن إن خذلتني مرةً أخرى...». لم يكمل العمدة جملته، ولم يكن بحاجة لإكمالها، فقد أوماً بارسينو برأسه، ثم استدار على عقبيه خارجاً من الحجر، قبل أن يصحبه أحد الحرس إلى خارج البيت. سار بارسينو عبر ظلمة الليل وهو يشعر بالحرارة في جسده رغم البرودة، ومشاعر كثيرة تموج في أعماقه، وعلى رأسها ما فعله أكينو به، لا يزال غير قادر على تصديق الأمر رغم ما قاله العمدة. قال لنفسه: لا يفعل أكينو هذا!

همس الصوت: لا تثق في أحد إلا نفسك، طريق المجد ممهد أمامك.

وهكذا مشى بارسينو وحيداً، وهو يضم معطفه إلى جسده لكي يقي نفسه البرد، محاولاً أن يتجاهل الأفكار التي تعصف بعقله، وهو يتحاشى في الوقت ذاته النظر ناحية الأطلال. أحس في هذه اللحظة أنها تسخر منه بطريقة ما. تحاشاها مثلما ظل عمره كله يتحاشى الأعين الفضولية والهمسات التي يظنون أنه لا يسمعاها. أنا هذا الأمهق الذي ولد في يوم لا شمس له!

كان أكينو هو الشخص الوحيد الذي ظن أن بمقدوره أن يثق به، والآن يفعل فعلته هذه، وماذا عن كينورا؟ هل تقبله حقاً كما هو؟ أم أن عقله يتلاعب به كما تتلاعب به الظلال في الليالي المظلمة؟ دون أن يشعر أخذته قدماه ناحية الحانة، ربما كان يأمل أن يجد أكينو هناك لكي يواجهه بمعرفته بما فعله، لعل أكينو يقدر على الدفاع عن نفسه وأن يبرر فعلته. وفي الوقت ذاته تمنى ألا يجده هناك، لا يشعر أنه سيقدر على مواجهته.

وقف متردداً عند الحانة، واللافتة تصدر صريراً وهي تتأرجح مع هواء الليل. كان هناك ضوء قادم من نافذة الحانة، ولكن لا صوت. كانت أمسية هادئة. وقف هناك متردداً، وعندما بدأ يحرك قدميه مبتعداً عن الحانة وصل مسمعيه صوتاً من داخل الحانة.

صوت قيثارة تعزف أصابع بارعة على أوتارها، فتردد صوت الموسيقى في سكون الليل. تجمد بارسينو في موضعه للحظات ينصت لهذا الصوت العذب، ثم تصاعد صوت أكثر عذوبة، صوت غناء كينورا.

لم يشعر بارسينو بنفسه إلا وهو يخطو ناحية الباب كالمسحور ليدفعه ويدلف إلى الداخل. لم يكن في الحانة أحد سوى كينورا، جالسة على أحد الكراسي أمام المدفأة تعزف على قيثارتها، ومضت بضع ثوانٍ قبل أن تنتبه إلى أن الباب قد انفتح والتيار البارد يتسلل إلى الداخل. توقفت عن العزف والغناء على الفور وهي تلتفت ناحية بارسينو الواقف عند الباب محققاً إليها بعينه الزرقاوين.

قالت له مبتسمة: «مرحباً يا باري».

قال لها في جمود: «مرحباً يا كينورا».

مضت بضع ثوانٍ من الصمت، قبل أن تقول كينورا: «ظننت أنك لن تأتي مرةً أخرى إلى حانتنا، ولكني سعيدة أنك هنا على أي حال».

تنحج بارسينو قبل أن يقول: «في الواقع لقد جئت لأبحث عن أكينو، ألم تريه اليوم؟». قالها وهو يدلّف إلى الحانة تاركاً الباب ينغلق وراءه.

بدا شيئاً من خيبة الأمل على ملاحظتها، ولكنها قالت بجديّة: «كلامه لم أره». ثم سألته بقلق: «ما الخطب؟». قال لها ببساطة: «لا، أردت فقط أن أخبره أنني صرت خطّاباً». ها أنا ذا قد أخبرتك إن كنت لا تعرفين. اعتدلت كينورا واقفة على الفور وهي تقول: «سمعت الأخبار من زبائن الحانة، ولكنني لم أصدقها. أنت؟ خطّاب؟».

قال لها بابتسامة شاحبة: «أجل؟ ألا يناسبني الأمر؟». قالت على الفور: «لم أقصد هذا، ولكن... لم أتخيل الأمر فحسب». هز كتفيه وقال: «كنت بحاجة إلى العمل، وكان الخطّاب بحاجة لمن يساعده في عمله». قالت في حيرة: «ولكن لماذا؟ لم نشعر من قبل أن القرية بحاجة إلى خطاب آخر». جلس بارسينو على أحد الكراسي وقال: «ربما صار عجوزاً ويحتاج لمن يساعده، ولكن...». تردد قليلاً قبل أن يضيف: «هل تعرفين أن القرية كان بها الكثير من الخطّابين في الماضي؟». عقدت حاجبيها وهي تقول: «أعتقد أنني سمعت شيئاً كهذا، ولكن كان هذا قبل زمن بعيد، أليس كذلك؟».

قال لها: «بل كان هذا قبل ثمانية عشر عاماً فقط». رددت الكلمات وراءه كأنها تحاول استيعابها: «ثمانية عشر عاماً». أشار إليها أن تجلس على الكرسي المقابل أمام الطاولة، وعندما فعلت قال لها: «أتعرفين ماذا يوجد في غابة الظلال؟».

أربكها سؤاله، فقالت في حيرة: «الأشجار بالطبع، و... الظلال، أليس كذلك؟ أيوجد شيء آخر؟». هز رأسه وقال: «أنت محقّة، لا يوجد شيء آخر». تمنى لو يقدر على الحديث مع أكينو، ولكن لا، ليس بعد ما فعله، ولن تفهمه كينورا.

نظر إلى الحيرة المرتمسة على ملاحظتها وقال: «هل تصورت يوماً ما الذي يمكن أن يوجد وراء غابة الظلال؟».

اتسعت عيناها وهي تقول: «أيوجد شيء وراء غابة الظلال؟». مال بوجته على قبضة يده بينما يتكئ بمرفقه إلى الطاولة وهو يقول: «لطالما آمنت أن الغابة هي نهاية العالم، ولكنني أتساءل الآن إن كان من المحتمل أن يكون هناك شيء حقاً».

لا يعرف لم قرر أن يسأل كينورا كل هذه الأسئلة، إنه لم يقدر على البوح بشيء للعمدة، وبالتأكيد لن يحكي لأكينو بعد خيانتته له، ولكن الأمر لا يزال جائئاً على صدره في ثقل عظيم. لا... لن يقدر على أن يحكي لكينورا أيضاً!

قاطعت كينورا شروده بأن قالت: «أعتقد أن الجميع قد تراوهم أفكار مشابهة، ولكن الحقيقة أمامنا هي أنه لا يوجد سوى جانب التل، والغابة التي تحيط به، ولا شيء سواهما».

نظر إليها مبتسماً، لم تفهم المغزى مما قاله، وأشعره هذا بشيء من الارتياح رغم كل شيء. قال لها: «ربما تكوني محقّة». ثم نظر إليها نظرة طويلة وكأنها يتأمل ملاحظتها قبل أن يضيف: «بالمناسبة تبدين جميلة اليوم». ثم تردد وجهه حجاباً، ربما لم يكن عليه أن يقول شيئاً كهذا أيضاً. يالهي من أحمق!

ولكن ابتسامة كينورا اتسعت وهي تقول: «أتعرف، يقول لي الزبائن هذا دومًا، ولكنني لم أسعد بهذا الإطراء كما سعدت به منك الآن!».

نظر إليها في دهشة، أحس بالغيظ لمعرفة أن هناك الكثيرين ممن يطرون عليها، ولكنه في الوقت ذاته ابتهج لما قالته.

تبادلا النظر للحظة، ثم فتح فمه ليقول شيئاً، ولكن قاطعه صوت غاضب يقول: «ما الذي يفعله هذا الفتى هنا؟». التفت فرأى طابيو يخرج من الباب المؤدي إلى المطبخ.  
تساءل صاحب الحانة بصوتٍ محتد: «ألم تقل إنك لن تأتي إلى الحانة مرة أخرى؟». اعتدل بارسينو واقفاً وهو يقول: «بيننا لعبة لم تنته، فكرت أنك قد ترغب في إنهاؤها، أم أنك تخشى الهزيمة؟».

احتقن وجه طابيو غضباً، ولكن بارسينو قال: «على أي حال لقد تأخر الوقت». ثم التفت إلى كينورا وقال: «يجب عليّ العودة قبل أن تعلق الجدة أوريثا». ثم ابتسم وقال: «أراك لاحقاً». تجمد طابيو في موضعه ووجهه يزداد احتقاناً، بينما ابتسمت كينورا وهي تلوح له بيده مودعةً.

## الفصل العشرون

### ما تبوح به الأطلال

بعد أن عاد بارسينو إلى البيت أخبر جدته القلقة أن العمدة يستفسر فقط عن سبب عمله مساعدًا للحطّاب، وأنه في النهاية لم يعترض على عمله. لم تقتنع أورتينا تمامًا، ولكنها لم تجادل. في صباح اليوم التالي تناول بارسينو الفطور بصحبة جدته في صمت، قبل أن يخرج متوجهًا إلى بيت الحطّاب حاملاً فأسه وسلته الخوصية. كان طيلة الطريق إلى هناك يفكر هل يخبر أوركين عن استدعاء العمدة له في الليلة السابقة أم لا؟ وفي النهاية قرر أن يبقى الأمر لنفسه، لعل هذا هو الأفضل لمصلحة الجميع. عندما وصل إلى بيت الحطّاب على قمة التل وقف مترددًا لبضع لحظات يستجمع فيها شتات نفسه، ثم طرق الباب.

سرعان ما فُتح الباب، وظهر وجه الحطّاب المألوف، يتسم له ويدعوه للدخول، بينما برق يتقافز من ورائه في سعادة. خطا بارسينو إلى الداخل، فتلقاه الدفء القادم من نيران المدفأة، والرائحة الذكية المتصاعدة من قدرٍ معلق عليها، ثم مال ليربت على عنق الكلب الأسود. قال أوركين: «أمل أنك لم تتناول فطورك بعد، فأنا على وشك تناول الفطور وأريدك أن تشاركني». تتم بارسينو معتذرًا بأنه قد تناول فطوره بالفعل، ولكن الحطّاب قال له: «بعض الحساء لن يضر في مثل هذا الصباح البارد».

وهكذا لم تمض دقائق حتى وجد بارسينو أمامه صحناً يتصاعد منه البخار. بدأ بارسينو يرتشف الحساء ببطء، بينما الحطّاب يقول له: «سيكون عليك البدء بتعلم الأبجدية اليوم، لن يمضي وقت طويل حتى تتعلم القراءة والكتابة».

كان بارسينو متحمسًا لهذا، فقال: «وسأكون قادرًا على قراءة الكتب مثلك؟». أوماً الحطّاب برأسه وهو يرتشف حساءه في تلذذ، ثم قال: «سيكون عليك بعدها الانتقال إلى الأبجدية القديمة، ومعرفة كيف تقرأ الطلاسم الموجودة على الأطلال».

أحس بارسينو بشيء من الخوف لسماح هذا، ثم تذكر ما كان الحطّاب قادرًا على فعله في المعبد الصخري مستعينًا بالطلاسم والأطلال، وكذلك قطعه لتلك الشجرة العملاقة، سيكون من المذهل أن يصير قادرًا على فعل هذه الأشياء مثله.

بعد أن انتهيا من تناول الفطور، توجه أوركين إلى حجرته، قبل أن يعود حاملاً حزامًا جلدًا وهو يقول: «بعدما تركتك بالأمس توجهت إلى السيد أويا صانع الجلود، وطلبت منه أن يعد هذا الحزام من أجلك. أعتقد أنه يناسبك».

أمسك بارسينو بالحزام في دهشة، ثم وضعه حول خصره فناسبه تمامًا. كان به حلقة مخصصة لتعليق الفأس، فوضعه بها ليتدل على جانبه. كان كل شيء مناسبًا بشكل أشعره بالبهجة.

قال للحطّاب بامتنان: «شكرًا لك».

قال له أوركين: «هذا أقل مما تستحقه. والآن هيا بنا».

سأله بارسينو في دهشة: «إلى أين؟».

قال أوركين: «إلى الغابة بالطبع». عقد بارسينو حاجبيه ثم قال في حيرة: «ظننت أنك ستعلمني الأبجدية اليوم». أوماً الخطاب برأسه وقال: «سأفعل هذا بالطبع، ولكن في الغابة، سيكون علينا جلب الحطب على أي حال». وهكذا وجد بارسينو نفسه بعد دقائق يمشي بجانب الخطاب هابطين جانب التل، متوجهين ناحية غابة الظلال.

\*\*\*

أمسك أوركين بغصن يابس ورسم شكلاً على أرض الغابة الترابية، ثم نطق به، ليردده بارسينو وراءه. بعد ذلك مسح الرسم، وطلب من بارسينو أن يخطه من ذاكرته وأن يتذكر نطقه. ظن بارسينو الأمر سهلاً في البداية، ولكن بعدما علمه الخطاب أكثر من حرف بدأت الحروف ورسومها وأصواتها تختلط في عقله. سيحتاج لوقتٍ كي يتقن هذه اللغة، ثم يكون عليه بعدها تعلم الأبجدية القديمة. بدا الأمر ثقيلًا للغاية في تلك اللحظة.

رفع عينيه عن الحرف المرسوم على الأرض، ونظر إلى الخطاب قبل أن يقول: «إن كان أمرنا سينتهي في الكسوف القادم، فلم تعلمني هذه الأشياء؟». سأله أوركين: «ألا تريد أن تتعلم؟». تردد بارسينو ثم قال: «بلى أريد، ولكن... أشعر باليأس». ابتسم الخطاب ابتسامة مشفقة وقال: «لأصدقك قولاً، لا أريد أن ينتهي أمرنا، وأتمنى لو كان هناك مخرج. لعلك إن ساعدتني ستممكن من مواجهة الخطر القادم». قال بارسينو في عدم تصديق: «أنا؟ وكيف أساعدك؟ كيف لخطاب واحد آخر معك أن يتمكن من فعل ما عجز عنه عدد كبير من الخطابين قديماً؟». هز الخطاب العجوز كتفيه قبل أن يقول: «من يعرف يا بني؟ إن بك قوة كبيرة، تحتاج فقط إلى توجيهها للاتجاه الصحيح».

قال بارسينو في قلق: «ألا ترى أنه من الأفضل لو أقنعنا الناس بالهرب بعيداً عن هذا المكان؟». نظر الخطاب إليه ملياً، ثم قال: «هل تريد أن تحاول إقناعهم بهذا؟». تردد بارسينو، ثم قال: «لا أعرف». كان في هذه اللحظة يفكر في حديثه مع العمدة. قال له أوركين: «فلتركز الآن على تعلم الحروف، ونفكر لاحقاً بشأن القرية». حاول بارسينو أن يفعل ما يقوله أوركين، فقضى جزءاً كبيراً من نهار ذلك اليوم يتعلم حروف لغة القرية ويقارنها بما يقابلها من حروف لغة الأطلال، وبعدها انشغل مع الخطاب في تقطيع الحطب. في المساء عادا إلى القرية وراحا يوزعان الحطب على بيوت القرية، وفي النهاية قال له أوركين: «احمل ما تبقى من الحطب في سلتك إلى الحانة، وخذ من طابيو ثمنه، ثم عد إلى بيتك». عقد بارسينو حاجبيه، لم تعجبه فكرة الذهاب إلى الحانة، ولكنه لم يقل شيئاً، بل بدأ يمشي ناحية الحانة في صمت.

لم يكن الوقت قد تأخر كثيراً، فكان هناك بعض الزبائن في الحانة. تجاهل بارسينو الهمهمات والنظرات وهو يفتش بعينه بحثاً عن أكينو ولكنه لم يره.

جاء طابيو مسرعاً وهو يمسح يديه في مئزره وعلى وجهه أمارات الغضب، ولكن بارسينو قال على الفور: «إن كنت تريد الخطب فلا تسمعني شيئاً من سخافاتك». نظر إليه طابيو في غيظ، ولكنه ابتلع ما كان على وشك قوله. أفرغ بارسينو سلته في وجوم بجانب المدفأة، ثم أخذ العملات المعدنية منه في صمت. في هذه اللحظة خرجت كينورا من المطبخ، فتهللت أساريرها وقالت: «يبدو أن الخطاب الجديد قد جاء بالخطب».

ابتسم لها بارسينو، ولكن بعض الهمسات جعلته يشعر بالوجوم مرة أخرى. لولا إشفاقه على الناس لعدم معرفتهم بالخطر الذي يعيشون في ظلاله لقال إنهم لا يستحقون هذا الخطب. قال لها: «ألم يأت أكينو اليوم؟». هزت رأسها نافية، ثم قالت له: «لم لا تجلس وتشرب شيئاً لعله يأتي في هذه الأثناء؟». كان يدرك أنها محقة، ولكنه تردد في قبول عرضها. لعله يخشى لقاء صديقه؟ لا يزال في قلبه شيء من الأمل أن يبرر صديقه موقفه، ويخشى إن واجهه أن ينقطع هذا الأمل. ولكنه يعرف أنه سيكون عليه مواجهة أكينو عاجلاً أم آجلاً.

قال لها مبتسماً: «لقد كان يوماً طويلاً، يجب عليّ العودة للبيت للحصول على بعض الراحة». تنهدت كينورا ثم قالت: «على الأقل بما أنك صرت حطابنا الجديد فسناك في الأيام التالية كثيراً». ابتسم لسماع هذا وقال لها: «أتمنى هذا». ثم بدأ يمشي ناحية باب الحانة حاملاً سلته الفارغة. ما إن خرج بارسينو من باب الحانة حتى تجمد في موضعه، فقد وجد أمامه أكينو يمشي مقترباً من الحانة. ما فاجأه هو الحالة المزرية التي بدا عليها صديقه، كان هناك العديد من الكدمات في وجهه، ولم يكن هناك طوق جلدي يحيط بشعره فتناثر حول وجهه بشكل أشعث. تجمد أكينو في موضعه بدوره وهو يحدق إلى بارسينو. تبادل كلاهما النظر للحظات، قبل أن يقول بارسينو: «أكينو؟ ماذا حدث لك؟». كان يرغب حقاً في مواجهة صديقه بسبب خيائته له، ولكن هيئة صديقه جعلت كل الكلمات تنحبس في حلقه.

قال أكينو بصوت مرتجف: «باري... أنا...». ولكنه لم يكمل جملته، بل اكتفى بأن مشى ناحية الحانة، ودلف عبر الباب. توقف بارسينو في موضعه بذهول، فكر في العودة إلى صديقه، هل تورط في شجار؟ ولكنه شعر بجرح في كبريائه، لقد خانته أكينو، والآن يرفض الحديث معه؟ هز رأسه في أسى، ثم بدأ يمشي ناحية البيت بينما تتنازع أفكار شتى؛ إن كانت النهاية تلوح في الأفق حقاً فربما من الأفضل أن يواجه صديقه، أو أن يجلس مع كينورا ويحكي لها كل ما في قلبه. هناك أشياء كثيرة سيكون عليه فعلها قبل كسوف الشمس، ولكنه لا يقدر على حمل نفسه على فعل أي شيء من هذا.

انتزع عقله من هذه الأفكار ليركز على ما تعلمه من حروف اليوم، نظر إلى الأطلال من حوله، صارت بعض الرموز مألوفة، بدأ يرددها بصوت عالٍ داخل عقله، وهو يتذكر رسمها له هذا اليوم على التراب. فجأة تسارعت نبضات قلبه، فقد خيل إليه أن بعض الرموز... قد توهجت بلونٍ أحمر خافت!

\*\*\*

نظر أوركين إلى ما يرسمه بارسينو على الأرض وهو يفرك ذقنه بأصابعه، ثم قال له: «لقد تطورت بأسرع مما توقعت في بضعة أيام. هل يمكنك قراءة ما كتبه بشكل صحيح؟».

نظر بارسينو إلى الحروف وكرر كل صوت بشكل متقطع، ثم نطق الجملة كاملة. لا يزال لسانه يشعر بغرابة اللغة، ويجد صعوبة في نطق بعض أصواتها، ولكنه تحسن كثيرًا في نطقها. قال له أوركين: «الآن كرر نطقها وأنت تمسك بفأسك».

فعل بارسينو ما قاله الخطّاب العجوز، ثم اتسعت عيناه دهشة حين توهجت الطلاسم على نصل الفأس بلونٍ أحمر خافت، قبل أن تتلاشى مرةً أخرى.

نبح الكلب الأسود في حين هز أوركين رأسه وقال: «لا يزال عليك أن تتدرب على هذا، ولكن بهذه الطريقة يمكن لفأسك أن يستمد القوة من السحر الموجود بالأطلال الحجرية القديمة».

رغم أن التجربة لم تنجح بشكل كامل أحس بارسينو بالحماس يتدفق في عروقه. راح يكرر نفس الكلمات وفي كل مرة كان التوهج يزداد سطوعًا.

قال له الخطّاب: «هناك شيء آخر يجب عليك أن تدركه؛ لن تكون قادرًا على أن تستمد القوة من الأحرف القديمة ما لم تكن قادرًا على فهم ما تعنيه، فكل كلمة تحمل قوتها الخاصة».

تلقت بارسينو متفحصًا الأطلال من حوله، وما تحمله من أحرف معقدة، صار قادرًا على نطق عدد كبير منها، ولكن أمامه شوطًا كبيرًا ليقطعه قبل أن يكون قادرًا على فهم معانيها.

فجأة تسلل شيء من بين ظلال الأشجار، أشبه بعظمة سوداء ضخمة، تأملتهم بعينيها الواسعتين المظلمتين، في حين كشر برق عن أنيابه مزجرًا، فمال الخطّاب ليربت على رأس الكلب دون أن يبعد عينيه عن العظمة الداكنة، قبل أن يقول: «سيكون هذا أول تدريب جاد لك، عليك القضاء على وحش الظلال هذا دون مساعدة مني أو من برق».

تأمل بارسينو العظمة وهو يزدرد لعابه، ثم خطا خطوة مرتجفة للأمام وهو يتشبث بمقبض فأسه بقوة حتى ابيضت مفاصل أصابعه. لطالما هاجمهم مخلوقات صغيرة من الظلال أثناء قطع الخطب، ولكن في كل مرة يتولى أمرها فأس أوركين أو أنياب برق. نظر إلى عيني العظمة ثم أخذ نفس عميقًا وتقدم للأمام، فتحركت العظمة هذه المرة مقتربة منه وهي تفتح فمها لتكشف عن أنياب سوداء حادة.

استعد بارسينو لهجومها، ولكن بدلًا من أن تقترب منه أكثر، رأى لسانها الأسود يندفع من بين فكّيها منقّصًا عليه. قفز بارسينو جانبًا متفاديًا هذا اللسان المخيف، وفي الوقت ذاته اقترب من عمود صخري متداع. وضع نصل فأسه على العمود وهو يردد ما حفظه من كلمات، فتوهج نصل فأسه، وتوهجت معه الطلاسم الموجودة على العمود.

في اللحظة التالية قفز بارسينو ناحية العظمة وهو يصرخ ملوحًا بنصل فأسه ناحية رأسها، ولكن اللسان هجم مرةً أخرى ليحيط بمعصمه ويثبت يده في الهواء، فتجمد بارسينو للحظة، ثم ترك الفأس يسقط من يده اليمنى، قبل أن يمسك به بيده اليسرى ليهوي بالنصل على اللسان الأسود.

تمزق اللسان مع صوت فحيح متألم من العظمة، فنظر بارسينو إلى بقاياها المتدلّية من يده اليمنى، ثم شاهده يتبخر ويتحول إلى دخان أسود قبل أن يتلاشى تمامًا.

لم يتردد بارسينو كثيرًا، بل انقضّ ناحية العظمة التي حاولت الانسحاب ناحية الظلال، ليهوي بفأسه على رأسها. أحس بالنصل يخترق الرأس، فتخلت يدها عن المقبض الخشبي وهو يتراجع إلى الوراء في ذهول.

شاهد العظمة تتلوى على الأرض، قبل أن تتبخر تمامًا، تاركة وراءها الفأس مستلقيًا فوق بقعة سوداء على الأرض الترابية، كأنها هو أثر سخام خلفته نيران مدفأة.

أفاق من ذهوله على صوت تصفيق من ورائه، فالتفت ليرى الخطّاب العجوز ينظر له بإعجاب وفخر وهو يقول: «أعجبتني حركة تبادل اليد الممسكة بالفأس كثيرًا، سرعة رد فعلك مذهلة».

تورد وجه بارسينو الأبيض خجلًا، ثم انحنى على الأرض ليمسك بالفأس بمزيج من الرهبة والاشمئزاز. لم يقتل شيئًا في حياته ولو دجاجة صغيرة، وكاد أن يشعر بالأسف على العظاءة، لولا أن تذكر أنها مخلوق من الظلال، وليس مخلوقًا حيًّا حقيقيًّا. مجرد أداة يستخدمها بهموت من سجنه، امتداد باهت لقوته.

قال أوركين: «ستكون هذه الوحوش الصغيرة بمثابة تدريب جيد لك، ولكن تذكر أنها تزداد قوة مع اقتراب كسوف الشمس، عليك أن تكون مستعدًا بحلول ذلك الوقت».

قال بارسينو: «هل سنقاتل؟».

قال له الخطّاب: «إن كان الهلاك مصيرنا لا محالة، فلنمت ونحن نقاتل».

تهدل كتفا بارسينو، ثم رفع رأسه وقال بابتسامة شاحبة: «ربما تكون محقًّا».

\*\*\*

خرج بارسينو من بيت العمدة وهو يزفر، كان مضطّرًا للذهاب إليه بعد مضي عدة أيام منذ اللقاء الأخير، ولكنه لم يقل له شيئًا ذا قيمة، عدا أنه يعمل مع الخطّاب في جمع الحطب، وأن أوركين لم يعد يتحدث عن الرحيل عن القرية. بدا أمره مسرورًا بهذا. لم يحك له بارسينو أي شيء عن تعلمه للغة القديمة، أو مواجهة وحوش الظلال الصغيرة في الغابة، بل احتفظ بهذا الأمر لنفسه.

مر في طريقه بالحانة، فقرر أن يتفقد كينورا. وقف أمام الحانة مترددًا، قد يكون أكينو بالداخل. كان يفقد صديقه الذي لم يره منذ عدة أيام رغم غضبه منه. أخذ نفسًا عميقًا ثم فتح الباب وتلفت بعينه، ثم التقت عيناه بعيني أكينو.

كان أكينو يرفع القدح إلى فمه عندما تجمدت يده في الهواء، أما بارسينو فقد توقف في موضعه وهو يحرق إليه. لقد تلاشت كدماته إلى حد كبير، لا شك أن هذا صنيع كينورا. كانت تقدم بعض المشروبات لأحد الزبائن، ولم تنتبه لدخوله.

اقترب من أكينو وقال: «يجب أن نتحدث».

تلفت أكينو حوله ثم قال: «دعنا نتحدث بالخارج».

خرج الاثنان من الحانة، وراحا يمشيان جنبًا إلى جنب، كانت الشوارع خالية في هذا المساء، ومن حولها المباني الساكنة، والأطلال التي أضفى عليها القمر ظلًا مخيفًا.

وأخيرًا قال بارسينو: «لم تهرب مني؟».

قال له أكينو في أسف: «لم أعرف كيف أواجهك بعد ما حدث».

قال بارسينو في مرارة: «تقصد بعد خيانتك لي؟».

قال أكينو على الفور: «لا، لم أخنك، أو بالأحرى لم أقصد خيانتك».

تساءل بارسينو: «ما الذي تعنيه بهذا؟».

قال أكينو في حزن وهو يشيح بعينه: «لم أرغب في الحديث، ولكن العمدة... لقد أجبرني... تلك الكدمات...». بدا أنه يبذل جهدًا كبيرًا للحديث عن الأمر.

اتسعت عينا بارسينو وقد أدرك سر كدمات صديقه، لم يكن شجارًا، لقد استخرج العمدة الكلمات من أكينو عنوة، رجاله قد أبرحوا صديقه ضربًا.

أحس بارسينو بالغضب يتدفق في عروقه، لقد فعل العمدة هذا بصديقه، لم يخنه صديقه برغبته. كان هناك همسات كثيرة مختلطة في عقله، همسات ساخطة مفعمة بالكراهية. فعلوا هذا بصديقه لأنهم يخافون منه، لأنهم يكرهونه. سيجعل العمدة يندم على تفكيره في فعلته هذه، ليس العمدة فقط، بل كل من يكرهونه وينبذونه. وبينما هذه الأفكار تجتاح عقله رأى عينا أكيانو تتسعان هلعًا، ثم شاهده يتراجع بخطوات متعثرة للوراء، قبل أن يسقط أرضًا وهو يواصل الابتعاد زحفًا.

اقترب منه بارسينو فقال أكيانو بصوتٍ مرتجفٍ: «ابتعد... ابتعد عني!».

هدأ غضب بارسينو وهو يشعر بالذهول من رد فعل صديقه، ثم تلفت حوله ولدهشته وجد الأطلال تنبض بضوء أحمر. ثم رفع يديه أمام عينيه فوجدهما مكتسيتين بعروق سوداء.

وقف أكيانو على قدميه مترنحًا، ثم أسرع مهرولاً مبتعدًا عنه.

ببطء شديد تلاشت العروق السوداء لتعود بشرته البيضاء إلى طبيعتها، بينما ضوء الأطلال الأحمر يخفت تدريجيًا حتى خيمت الظلمة من جديد إلا من ضوء القمر الشاحب، بينما بارسينو لا يزال يحدق إلى يديه في ذهول.

## الفصل الحادي والعشرون

### البحث عن الحقيقة

أحست أوريتا بالذعر عندما فتحت الباب إثر الطرقات المتسارعة فوجدت حفيدها ينظر إليها بعينين زائغتين، ووجهه أكثر شحوبًا من المعتاد، وشعره الأبيض ملتصق بجبهته بفعل حبات العرق رغم برودة الجو.

دلف بارسينو إلى البيت على الفور، ثم أنزل سلته وخلع فأسه ليلقي به في السلة، قبل أن يجلس على الطاولة واضعًا وجهه بين كفيه وهو يلتقط أنفاسًا عميقة.

سألته جدته في قلق وهي تربت على كتفه: «ماذا حدث يا بني؟ ماذا بك؟ أنت لا تبدو بخير».

راحت أنفاس بارسينو تتباطأ تدريجيًا، وهو يحاول أن يتجاهل الهمسات في أعماقه. لم تفارقه الهمسات منذ تلك اللحظة المرعبة، ولكنه الآن فقط أحس أنه قادر على كبح جماحها وإزاحتها تدريجيًا حتى راحت تخفت. لم يكن هناك صوت يملأ أذنيه سوى نبضات قلبه.

رفع عينيه إلى جدته، ورسم ابتسامة شاحبة على شفثيه، قبل أن يقول: «لا شيء يا جدتي، أنا متعب بعض الشيء فحسب، العمل في جمع الحطب شاق للغاية».

تأملته جدته، ثم قالت في شك: «أهذا كل شيء؟».

لم يجيبها إلا ببياءة مقتضبة، قبل أن يقول لها: «أنا عطش».

جلبت له جدته إبريقًا من الماء البارد، تجرعه دفعة واحدة، بينما الماء يتدفق على ذقنه ويبلل ملابسه، قبل أن يضع الإبريق على الطاولة وهو يشهق بصوت عالٍ.

قالت له جدته في قلق: «إن كان العمل شاقًا فلتتركه، لا تحمل نفسك فوق طاقتها».

قال بارسينو على الفور: «لا، أنا بخير، لا تقلقي».

نظرت إليه جدته مشفقة وقالت: «حسنًا يا بني، كما تشاء». ثم أضافت بلهجة متألمة: «أخشى ألا يجلب لك كونك حطابًا إلا الشقاء، كما حدث لنا مار».

أحس بارسينو بالدهشة، كانت المرة الأولى التي تتحدث فيها عن كون أبيه حطابًا بصراحة مثل المرة التي واجهها فيها بالأمر. تردد قليلًا، ثم قال: «يقول أوركين إن أبي كان عظيمًا وقويًا».

قالت أوريتا بفخر: «كان كذلك بالفعل، كانت الظلال نفسها تحشاه». ثم أطرقت برأسها وقالت بمرارة: «ولكنه في النهاية ضحى بنفسه لكي ينقذ هذه القرية».

صمت بارسينو وهو يفكر في الأمر، قبل أن تقول جدته بعينين دامعتين: «لقد مات قبل أن يراك».

أشاح بارسينو بوجهه وهو يقول: «ربما كان هذا من الأفضل له، أن يموت قبل أن يعرف أنه قد أنجب مسخًا. أمل أن والدتي لم تتعذب كثيرًا قبل موتها برويتها هذه اللعنة التي جلبتها إلى العالم».

اتسعت عينا أوريتا، ثم قالت مشفقة: «أعدت لمثل هذا الحديث؟ لم تقسو على نفسك يا بني؟ إن كونك مختلفًا عنهم هم حولك لا يعني بالضرورة أنك أدنى منهم. ربما اختار لك القدر مسارًا مختلفًا، ولكنه ربما يكون أفضل من مسار قد تختاره لنفسك. من يدري؟».

قال لها في حزن: «أمتنى لو ولدت مثل الناس». ثم اعتدل واقفاً وهو يقول: «لقد فات الأوان على هذا الحديث على أي حال». كان يفكر في كسوف الشمس القادم. ثم أضاف وهو يتوجه ناحية السلم: «أنا متعب، سأحصل على قسطٍ من النوم».

قالت له جدته: «ألن تتناول شيئاً من الطعام على الأقل؟». ولكنه لم يجيبها فقد غرق عقله في الأفكار بالفعل، وذكرى الرعب المرتسم على وجهه أكينو تملأ عقله. لا تزال هناك الكثير من الأسئلة التي تحتاج إلى إجابات. وفي هذه اللحظة انتقل تفكيره إلى الخطاب. ما زال يخبيئ شيئاً! هكذا قال بارسينو لنفسه وهو يخطو إلى غرفته، ويلقي بجسده المتعب على الفراش دون حتى أن يبدل ملابسه.

\*\*\*

كان بارسينو شارداً الذهن طيلة اليوم وهو يعمل مع أوركين، وقد لاحظ الخطاب العجوز هذا، وفي المساء عند عودتهما إلى القرية طلب من بارسينو المجيء معه إلى البيت، وهناك سأله عن سر شروود ذهنه. تردد بارسينو قليلاً، ثم بدأ يحكي للخطاب كل شيء، وفي النهاية قال له: «لقد رأيت العروق السوداء في يدي». ثم سأله في خوف: «هل أنا ملعون حقاً؟ هل كانت القرية محقة طيلة هذه السنوات؟». هز الخطاب العجوز رأسه الأثيب ثم قال: «لا شيء كهذا يا بني». تردد بارسينو ثم قال وهو يتحاشى النظر إلى عيني الخطاب: «أنا واثق أن هناك شيئاً بداخلي». سأله الخطاب باهتمام: «وما الذي يجعلك واثقاً؟».

خيم عليهما الصمت للحظات بدت دهرًا، بينما بارسينو يتأمل برق الغارق في النوم أمام المدفأة، ثم قال أخيراً: «أنا... أسمع همسات في عقلي، منذ... بعض الوقت». عقد أوركين حاجبيه وهو يقول: «منذ متى؟ ولم لم تخبرني من قبل؟». قال له بارسينو متردداً: «لا أعرف بالضبط، أعتقد أنها منذ مواجهتنا مع بهموت في ذلك اليوم». فرك الخطاب ذقنه وهو يقول مفكراً: «أخشى أن بهموت يحاول تسميم عقلك بهمساته». أحس بارسينو بالرعب لهذه الفكرة، فقال بصوت مرتجف: «وكيف وصل بهموت إلى داخل عقلي؟». قال له أوركين: «لطالما حاول التسلسل إلى عقول الخطابين، لعل بك شيئاً يجعل مقاومتك للمستته أضعف، ولكن مع تدريبك على السحر القديم ستعرف كيف تتخلص منه. سأعلمك اليوم أحرفاً ستساعدك على تصفية ذهنك».

قال بارسينو في حيرة: «ولكن لماذا أنا من بين كل الناس؟». قال له الخطاب مشفقاً: «لعل يوم مولدك جعلك هدفاً سهلاً له». نظر إليه بارسينو مستفسراً، ثم قال: «ماذا تقصد؟». تنهد أوركين ثم قال: «لقد ولدت في يوم كسوف الشمس، لم تباركك الشمس، لعل هذا ما يجعلك هدفاً سهلاً للظلال».

قال بارسينو في عدم تصديق: «إذن فالناس محقون؟ لقد ولدت بدون مباركة الشمس!». لوح الخطاب بيده وقال: «لقد ولدت في توقيت خاطئ، هذا كل شيء. هذا لا يجعلك ملعوناً، بل يعني فقط أن عليك بذل المزيد من الجهد لكي تحمي نفسك».

أحس بارسينو بوطأة الظلم ثقيلة على قلبه، لا أحد يختار يوم مولده، فلم يُحْكَم عليه بهذا المصير لسبب خارج عن إرادته؟

أحس الحطّاب بما يدور في عقله، فقال له بصوتٍ مُطمئن: «لا تقلق يا بني. لن أترك وحدك». ساد الصمت بينا الحطّاب يضع أعشاب جذور الشمس في الماء، ويجهز كويين لصب الشراب الساخن فيهما.

ظل بارسينو غارقاً في أفكاره المظلمة، حتى وضع الحطّاب الكويين على الطاولة وهو يقول له: «سيكون عليك معرفة تاريخ الصراع ما بين أبناء النور وأبناء الظلال لكي تدرك حقيقة العبء الموضوع على عاتقنا. لا يولد كل الناس بالقدرة على التحكم بالسحر القديم، وحتى هؤلاء الذين يولدون بهذه القدرة قد يقضون حياتهم كلها وهم لا يدركون قدرتهم على التحكم به. أنت شخص استثنائي يا باري، ولكن أنا وأنت وحدنا الآن في مواجهة ظل قاتم يخيم على قرية جانب التل بأسرها. إن فشلنا قد يعني نهاية عرقنا».

نظر إليه بارسينو بدهشة وقال: «هل تعني أن هناك فرصة لنا في مواجهة بهموت؟ في مواجهة إله مظلم؟». قال أوركين بابتسامة مريرة: «قد تكون فرصة ضئيلة، ولكنها تظل فرصة. لقد تمكن أجدادنا من هزيمته قديماً وسجنه، وتمكن الحطّابون على مر القرون من إبقائه مسجوناً، ربما لا يزال هناك فرصة».

قال بارسينو في حيرة: «كنت أظنك فقدت الأمل، ولكن...». ثم عقد حاجبيه وقال: «إن كان أجدادنا قادرين على هزيمة بهموت فلم اكتفوا بسجنه؟ لم لم يقضوا عليه حينها؟».

بدا الحطّاب العجوز متفاجئاً من هذا السؤال المباغت، فتردد بعض الشيء، قبل أن يهز كتفيه وهو يقول: «من يعرف يا بني؟ لعلهم استنزفوا الكثير من قوتهم في تلك الحرب المدمرة حتى إنهم لم يقدرُوا إلا على سجنه فحسب».

عقد بارسينو حاجبيه الأبيضين وقال: «ألا تذكر الكتب شيئاً عن هذا؟».

قال له أوركين: «أرى أنك متحمس للقراءة وهذا جيد، دعنا نخبر قدرتك على القراءة إذن».

مرة أخرى يشعر بارسينو بأن الحطّاب يهرب بطريقة ما من سؤاله، وقبل أن يحتج قال له أوركين بعد أن تناول رشفة كبيرة من كوبه: «اشربه قبل أن يبرد، سيساعدك هذا المشروب على تصفية عقلك». قال له بارسينو: «ما المميز في هذه النبتة؟».

قال له الحطّاب: «إن نبتة جذور الشمس تنمو بالقرب من الأطلال في الغابة، مما يجعلها تمتص الكثير من الطاقة، ويمنحها القدرة على مواجهة قوة الظلال».

ارتشف بارسينو رشفة من كوبه، وترك السائل الساخن يتدفق في عروقه ليمنحه الدفء.

توجه الحطّاب لحجرة نومه، ثم عاد حاملاً كتاباً، وقال لبارسينو: «فلتجرب قراءة هذا الكتاب».

أمسك بارسينو بالكتاب في رهبة، كان القدم بادياً عليه، ولكن غلافه الجلدي بدا متماسكاً، وصفحاته الصفراء لم تتفتت في أصابعه رغم مظهرها الذي بدا عتيقاً. قال لنفسه: لا شك أن الكتب محمية بسحرٍ ما لكي تصمد طيلة هذه القرون.

ذكرته الكلمات الأولى بالطقوس التي يقوها العمدة أو رجال الشعائر في المناسبات المختلفة، تمجيد الشمس والقمر والنور، ولكن الآن بعدما عرف بارسينو بإرث أبناء النور صار للكلمات وقعاً مختلفاً بالنسبة له.

قال له أوركين: «فلتقرأ بصوتٍ عالٍ».

قرأ بارسينو المكتوب بصوت عالٍ، بينما أوركين يصحح له نطق بعض الكلمات، ثم قال له في إعجاب: «لقد أتقنت اللغة القديمة في وقت قصير نسبيًا. هذا شيء لم يفعله خطاب آخر من قبل، إلا هؤلاء الذين تشرّبوا اللغة من نعومة أظافرهم».

شعر بارسينو بالحجل من إطراء الخطاب عليه، ولكنه في الوقت ذاته شعر بالعجب، فهو لم يتوقع أن يتقن اللغة في هذا الوقت القصير.

واصل الخطاب حديثه قائلاً: «لن تحتاج إلى وقت طويل كي تتقن لغة القرية، فهي مبنية على اللغة القديمة، ولكنها بشكل أكثر تبسيطاً بكثير».

أوماً له بارسينو برأسه، فقال أوركين: «سأترك لك هذا الكتاب لتقرأه في البيت، ولكن احرص على ألا يراه أحد غيرك، ولا حتى جدتك».

قال بارسينو: «أتمنى أن أجد فيه إجابات لبعض أسئلتني».

ابتسم الخطاب وقال: «ربما».

وضع بارسينو الكتاب في سلته، وألقى عليه وشاحه ليخبئه. وبينما الخطاب يودعه عند الباب قال له: «بالمناسبة، اسمك باللغة القديمة يعني ابن القمر».

فعدّد بارسينو حاجبيه، لم يفكر في معنى اسمه من قبل، ثم نظر إلى الخطاب العجوز وقال: «وأنت؟ هل لاسمك معنى باللغة القديمة؟».

تنهد أوركين ثم قال: «إنه يعني الوحيد».

أوماً بارسينو برأسه متفهماً، ثم ودع الخطاب الذي أغلق الباب وراءه، قبل أن يخطو عائداً إلى بيته.

\*\*\*

كان بارسينو مستلقياً في فراشه، مستغرقاً في قراءة الكتاب على ضوء شمعة وحيدة. كان منبهراً بالتفاصيل التي يذكرها الكتاب، حكايات تفوق كل تصوراته عن العجائب التي كان أبناء النور قادرين على تحقيقها، وممالكهم العظيمة على الأرض، وحروبهم مع أبناء الظلال عبر الزمان.

أحياناً ما يجد كلمة لا يقدر على فهمها ولكنه يستنتج معناها من السياق، أو يقارنها بكلمة شبيهة في لغة القرية المألوفة بالنسبة له، وبمرور الوقت صار هناك مخزون كبير من الكلمات في عقله.

رغم ضخامة الكتاب لم يقدر على النوم حتى وصل إلى صفحاته الأخيرة. ينتهي الكتاب بتأسيس لينوريم، ووصف مبانيها التي تحولت الآن إلى أطلال، ولكن لا ذكر لحربهم الأخيرة مع أبناء الظلال، ولا بهموت، ولا سجنه.

أغلق صفحات الكتاب والحيرة تتزايد في أعماقه، يريد أن يعرف لمّ سجن أبناء النور بهموت بدلاً من القضاء عليه ما دام أنه كان ضعيفاً؟ يقول أوركين إن بهموت يزداد قوة بمرور الوقت، إذن فقد كان في زمنهم أضعف بكثير من حالته الآن. لا يزال هناك شيء غير مفهوم. وأكثر ما أزعجه هو أن الخطاب لا يبدو مستعداً للإجابة عن كل أسئلته، لا يزال عازماً على أن يجيب عنه شيئاً مما يعرفه.

تمنى أن يتحدث إلى أكيانو وأن يشاركه تساؤلاته ومخاوفه، ولكنه كلما تذكر نظرة الرعب التي ارتسمت على وجه صديقه شعر بالخوف من مواجهته مرة أخرى.

حاول الهمس أن يتصاعد من أعماقه، فوضع يده على ندبة صدره كأنها ليكبح جماحه، متجاهلاً هذا الإحساس وهو ينظر ناحية النافذة. تفاجأ عندما أدرك أن الفجر موشك على الانبلاج، فنظر ناحية الشمعة ليجد أنها كادت أن تذوب بالكامل. لم يشعر بمضي الساعات وهو يقرأ الكتاب. فطوى صفحاته وخبأه

بحرص تحت وسادته، قبل أن يخلد إلى النوم، وقد حسم أمرًا في قرارة نفسه. سيكون عليه معرفة إجابة كل أسئلته مهما كلفه الأمر!

\*\*\*

صار بارسينو يقضي ليله كل يوم مع الكتب التي يمنحها له الحطّاب، رغم انزعاجه من أن أوركين لا يتركه يختار الكتب بنفسه، أو حتى يتصفحها، بل يختار له كتبًا معينة كي يقرأها، وجميعها تدور حول الموضوع ذاته، الصراع ما بين النور والظلال.

عزّاه الوحيد هو أن الحطّاب بدأ يعلمه الأبجدية المستخدمة في قريته، فصار قادرًا على رؤية الرابط بينها وبين اللغة القديمة، رغم أنه بدا له في البداية رابطًا ضعيفًا واهيًا، ولكنه أدرك مع مرور الوقت كيف أن هذه اللغة قد تطورت من تلك مع مرور العقود والقرون.

ولكن مع قراءة المزيد من الكتب لم تكن أسئلته تقترب من إجابتها، بل ازدادت تشابكًا وتعقيدًا، وقد تيقن بارسينو من شيء واحد؛ لن يجيب الحطّاب العجوز عن المزيد من أسئلته، إن كان يريد الحقيقة فسيكون عليه البحث في مكانٍ آخر.

هذه الليلة أنهى بارسينو كتابه وراح يتقلب في فراشه غير قادر على النوم، بينما يصارع فكرة تدور في عقله. كانت السماء غائمة، ولكنه أحس بأول أضواء الفجر يحاول التسلسل من بينها، وفي النهاية حسم أمره، فبدل ملبسه، واتشح بوشاحه، وخرج من البيت يصفعه هواء الصباح البارد المبلد بالغيوم.

خطا بارسينو عبر شوارع القرية. لم يكن متوجهًا ناحية بيت الحطّاب، أو غابة الظلال، بل نحو هدفٍ آخر. ورغم هذا كان يحمل سلة الحطب، والفأس متدلّ من حزامه. لقد صارا - الفأس والسلة - جزءًا من شخصيته لا يقدر على التخلي عنهما، أو لعله يلتمس من وجودهما معه بعض الأمان والثقة في نفسه.

ما إن وجد نفسه في الساحة الكبرى، ينظر إلى بيت العمدة، حتى توقف في موضعه وأخذ نفسًا عميقًا. كان قادمًا من أجل تقريره الدوري للعمدة، متظاهرًا بأنه لم يعرف بما حدث لأكينو. إنه يكره العمدة بسبب ما فعله بصديقه، ولكنه أدرك عدم جدوى مواجهة العمدة بهذا الآن، بل إن فكرة أخرى كان تلح على عقله حتى لم يعد قادرًا على تجاهلها؛ العمدة يعرف شيئًا ما، ويجب عليه أن يعرف ما يعرفه العمدة.

لمح اثنين من رجال العمدة بملابسهما الصفراء ينظران إليه بتساؤل وهو يقترب، فرجال العمدة يعرفون أن السيد أمرىد يتوقع مجيء الفتى كل بضعة أيام لسبب ما، ولكن ربما ليس في مثل هذا الصباح الباكر.

أمره أحد الحارسين أن ينتظر بالخارج، بينما الآخر يجبر العمدة بمجيئه. انتظر بارسينو في موضعه وقد مر الوقت بطيئًا. لم يكن من اللائق أن يأتي للعمدة في مثل هذا الوقت المبكر، وتوقع أن يعود الحارس ليخبره أن يعود أدراجه، ولكن لدهشته لم يعد الحارس وحده، بل جاء وبصحبه السيد أوثار، وقد بدت آثار النوم على ملامحه.

قال الحاجب بحدة: «ما الذي جاء بك؟».

قال بارسينو ببساطة محاولاً إخفاء التوتر في أعماقه: «جئت لمقابلة العمدة».

نظر أوثار ناحية الشمس التي لم ترتفع كثيرًا في الأفق، ثم قال: «في مثل هذا الوقت المبكر؟».

أوماً بارسينو برأسه، ثم ازدرد لعابه، قبل أن يقول: «إنه شيء متعلق بالحطّاب... وغابة الظلال».

بدا التوتر واضحًا على الحارسين، فنظر إليهما الحاجب، ثم قال مخاطبًا بارسينو: «حسنًا، فلتدخل».

تأمل الفأس والسلة وقال: «ولكن أولاً...».

تنهد بارسينو، ثم وضع سلته الخوصية أرضاً قبل أن يستل فأسه ويتركه بداخلها، كما يفعل في كل مرة يجيء فيها إلى العمدة. اصطحبه الحاجب إلى الحجرة التي يلتقي فيها عادة بالعمدة، ولكنها كانت خاوية. تركه الحاجب وحده، فاختم بأفكاره مضطرباً، حتى عاد أوثار بصحبة أمريد، الذي بدا منزعجاً لإيقاظه من نومه مبكراً، ثم قال وهو يجلس وراء مكتبه: «أمل أن لديك سبباً وجيهاً لإيقاظي في مثل هذه الساعة». قال بارسينو في برود: «أنت من يريد أن يعرف كل شيء عن الخطاب، لذا خمنت أنك ستكون ممتناً لمجيئي في أي وقت». كان يشعر بالكراهية الشديدة تجاه العمدة، ولكنه بذل قصارى جهده لإخفاء هذا. قال العمدة في نفاذ صبر: «حسنًا، هات ما عندك إذن». تأمله بارسينو قليلاً ثم قال: «جئت إليك كي أسئلك إن كنت لا تعرف حقاً ما يوجد بداخل كرة الضوء؟».

عقد العمدة حاجبيه وقال: «أنت هنا لإخباري بالمعلومات أم ل طرح الأسئلة؟». تنحج بارسينو، ثم قال: «كنت أفكر أنك - بصفتك العمدة - تعرف كل شاردة وواردة عن القرية، وما يحيط بها».

تبادل العمدة وحاجبه النظر، ثم قال أمريد: «هناك حكايات قديمة في الكتب بالطبع، ولكن لا أحد يعرف شيئاً على وجه اليقين، بعض الشائعات والهمسات يتناقلها الناس جيلاً بعد جيل، ولكن لا شيء أكيد». ثم مال للأمام وقال باهتمام: «لم تسأل الآن؟ ألم تقل إنك لا تعرف شيئاً عن الأمر؟». قال بارسينو في حدة: «لأنني أعتقد أنك تكذب».

قال أوثار في غضب: «كيف تجرؤ...». ولكن باقى الكلمات اختنقت في حلقه. أما أمريد فقد سأله في هدوء: «ولم تعتقد هذا؟». ضم بارسينو قبضتيه وهو يقول: «أنت تعرف مقدار الخطر المحدق بالقرية، تعرف ما يوجد بداخل كرة الضوء، إنه... إنه...». أحس بألم نابض في قلبه، أحس بغضب، ولكنه... لم يكن غضبه هو! قال العمدة باهتمام متزايد: «إنه ماذا؟».

سأله بارسينو فجأة: «هل تعرف الحكايات المتعلقة بأبناء النور وأبناء الظلال؟». لقد نطق بالكلمات بدون تفكير، الآن سيشكلون في الخطاب. لام نفسه في غضب على اندفاعه.

نظر إليه العمدة في دهشة وقال: «من أخبرك بهذا؟». ولم يقل حاجبه عنه دهشة. قال بارسينو: «أخبرني الخطاب بالحرب القديمة ما بين أبناء النور وأبناء الظلام، عن تلك الآلهة المظلمة، وعن ذلك الكيان القديم الموجود داخل كرة الضوء، إنه إله مظلم قديم محبوس بداخلها، إله يسمى بهموت». وأحس مع الكلمة بالمزيد من الألم في صدره.

تبادل العمدة وحاجبه النظرات، ثم قال: «لم أتوقع أن يخبرك الخطاب بهذا القدر، لا شك أن لديه أسبابه لفعل هذا، ولكنها حكايات قديمة تذكرها الكتب التي يتوارثها العمد. نحن بالفعل من نسل أبناء النور، ولكن هذا شيء قديم، لا شيء يهم الآن سوى قرية جانب التل».

كان هذا هو دور بارسينو لكي يشعر بالدهشة، توقع أن ينكر العمدة هذا، ولكن ها هو ذا يعترف بالأمر بكل بساطة.

قال بارسينو في حيرة: «إذن فأنت تعرف أن هناك عالماً واسعاً وراء غابة الظلال بالفعل؟». هز العمدة كتفيه وقال: «ربما كان هناك عالم ذات يوم، ولكن الآن لا يوجد وراء الغابة سوى الظلام والظلال، لم يعد النور يشرق إلا على هذا التل».

لم يشعر بارسينو بالرضا لسماع هذه الإجابة، فقال: «وأنت تعرف بالخطر المحقق في الغابة؟ الخطر الذي يزداد قوة مع كل عام؟».

قال العمدة بلا اكتراث: «لطالما وُجد هذا الخطر، لا شيء جديد في الأمر». تحولت دهشة بارسينو إلى غضب وهو يقول: «ولماذا تبقى هنا كخرافٍ تنتظر الذبح؟ لمْ لا نحاول البحث عن ملاذٍ آمنٍ في مكانٍ آخر؟». هنا قال الحاجب على الفور وبحدة: «ها أنت ذا قد كشفت عن وجهك الحقيقي، لقد لوث الحطاب العجوز رأسك بأفكاره!».

قال له أمريد: «أهدأ يا أوثار». ثم التفت إلى بارسينو وقال: «أهذا ما قاله لك الحطاب؟». قال بارسينو: «لقد أخبرني الحطاب عن الحروب ما بين أبناء النور وأبناء الظلال، وكيف طارد أبناء الظلال أسلافنا في كل مكان في الأرض حتى وصلنا إلى هنا. أخبرني عن الحرب التي أدت لتدمير مملكة لينوريم القديمة وتركت وراءها هذه الأطلال، وحكى لي عن سجن بهموت، الذي يزداد قوة مع مرور الزمان. وأخبرني عن محاولته للبحث عن مكانٍ آخر كي يهرب إليه قاطنو القرية. ولكنه أخبرني أن كل محاولاته باءت بالفشل، ولم يعد يتحدث عن الأمر». وعندما نظر إليه كلاهما في ريبة قال: «صدقاني هذه هي الحقيقة».

هنا جاء صوت طرقات على الباب، فقال العمدة أمرًا: «أدخل». دلف خادمًا يحمل صحيفة عليها ثلاثة أكواب من الشاي الساخن يتصاعد منهم البخار، قدم أحدهم إلى العمدة، وآخر إلى الحاجب، ثم تردد وهو يتبادل النظر ما بين العمدة وبارسينو ولكن مع إيحاءة من أمريد قدم الكوب الثالث له. أخذه منه بارسينو بكلمات شاكرة، قبل أن يسرع الخادم مغادرًا الحجرة. أخذ بارسينو رشفة من الشاي الساخن، فأحس بالدفء يسري في أوصاله. ارتشف ثلاثتهم الشاي في صمت، قبل أن يقطعه العمدة قائلاً: «أرى أن أوركين قد أغفل ذكر شيء مهم في حكايته، ولعل هذا ما جاء بك إلي».

نظر إليه بارسينو باهتمام، فقال أمريد: «صحيح أن أجدادنا، أبناء النور، قد سجنوا... بهموت في سجنٍ من نور، ولكن الحطاب لم يخبرك أنه كان بمقدورهم في تلك اللحظة القضاء عليه تمامًا». لم يستطع بارسينو إخفاء الدهشة من ملامحه، هذا بالضبط ما كان يتساءل عنه، ولم يذكر الحطاب أي شيء قريب من هذا، فابتسم أمريد وقال: «أتعرف لماذا لم يقضوا عليه؟ ألم يخبرك لمْ أبقوه حيًّا؟». هز بارسينو رأسه، لمْ قد يخفي الحطاب شيئًا كهذا؟ كان يحاول أن يجد الإجابة، فقال له العمدة: «دعني أخبرك شيئًا، ما قاله الحطاب عن أبناء النور صحيح، لقد طاردهم أبناء الظلال في كل ركن من الأرض، وفي كل مرة يتمكنون من الاختباء يعثرون عليهم. أتعرف كيف كانوا قادرين على العثور عليهم؟». نظر إليه بارسينو في تساؤل، فقال له العمدة: «لأننا بالنسبة لهم نكون كمصباح في ليلة عاتمة. كلما ازداد عددهم وازدهرت معيشتنا يجدوننا ويسعون وراءنا للقضاء علينا. لقد وضع أجدادنا بهموت هنا لكي يسجننا لا لكي نسجنه. لكيلا يبتعد أحفادهم عن هذا المكان، ولكيلا يتكاثروا أو يزددهروا أكثر من اللازم فتجدهم الظلال وتقضي عليهم».

نظر بارسينو إليه، ثم نظر إلى الحاجب، كانت الجدية مرتسمة على وجهيهما، ولكن الأمر يفوق قدرته على الاستيعاب. أحس بألم نابض في عقله فقال وهو يفرك جبينه: «إذن فالهجمات المتتالية... والناس التي تقضي نحبها كل عدة سنوات... كل هذا خطط له أسلافنا؟».

أوماً له أمر يد برأسه ثم قال في أسى: «هذا هو الواقع المؤلم يا بني». هز بارسينو رأسه مما ضاعف من ألمه النابض، قبل أن يقول: «لا يُعقل أن هذا هو الحل الوحيد، لا شك أن هناك حلاً آخر».

قال له العمدة في سخرية مريرة: «مثل أن يغادر الناس القرية؟». ثم أضاف بجديّة: «سيكون هذا إعلاناً عن وجودنا لعدونا الأزلي، ستكون نهايتنا، وسينقرض عرقنا حقاً، ولن يتبقى على الأرض سوى الظلال». فكر بارسينو قليلاً، ثم قال: «والناس لا يعرفون سوى هذه القرية؟ بالنسبة لهم هي العالم بأسره، أليس كذلك؟ ماذا لو عرفوا الحقيقة؟».

عقد العمدة حاجبيه: «ما أخبرك به أسرار لم يكن يعرفها على مر التاريخ سوى العمد، ويتشاركها معهم الحطّابون، ولم أكن لأناقشك في الأمر لو لم يتصرف الحطّاب بحماقة ويحكي لك عن الأمر، ولكن على أي حال اتفق العمد والحطّابون جميعاً منذ أمد بعيد على أن يتحاشى الجميع ذكر الأمر، ليس من مصلحة أحد أن يعرف أنه يعيش في سجن. إنهم سعداء فلم لا نتركهم سعداء هكذا؟».

قال له بارسينو وهو يضم قبضتيه ليمنع نفسه من الارتجاف غضباً: «ألهذا لا يتعلم أحد القراءة؟ ألهذا تبقونهم في ظلمات الجهل وتبقون الكتب لأنفسكم ورجال طقوسكم لكيلا يعرف الناس حقيقتهم؟». قال العمدة محافظاً على هدوئه: «معرفة الحقيقة لن تزيدهم إلا تعاسة، وإن تركناهم يختارون بحرية فسيمشون مباشرة إلى حتفهم. لقد حاول العديد من المغامرين من قبل مغادرة القرية وانتهى بهم المطاف موتى،...».

قاطعته بارسينو في غضب: «لم يعتقد الجميع أن من حقهم تحديد مصير الآخرين؟ هذا ليس عدلاً! من حق كل إنسان أن يختار قدره».

قال أوثار في حدة: «تأدب يا فتى، فأنت في حضرة العمدة». التفت إليه بارسينو وقال في حدة مماثلة: «كونه العمدة لا يمنحه الحق في تحديد مصيرهم، ولا يمنحه لغيره!».

قال العمدة في غضب مخاطباً أوثار وبارسينو: «يكفي هذا!». ثم التفت إلى بارسينو وقال في ضيق واضح: «إذن فأنت ترى - مثل الحطّاب - أنه على الناس أن يحاولوا مغادرة جانب التل حتى لو أدى هذا إلى موتهم جميعاً».

فتح بارسينو فمه، ولكنه أغلقه دون أن يتكلم وقد بدت عليه الحيرة، ثم قال أخيراً: «لا أرى هذا، ولكن لا يمكنني تخيل هذا المصير، لا شك أن هناك مخرجاً ما، سبباً آخر فعل من أجله أسلافنا ما فعلوه. لا يُعقل أنهم توقعوا أن نحيا هكذا إلى الأبد!».

تأمله أمر يد ملياً ثم أخذ نفساً عميقاً قبل أن يقول: «لا، لم يتوقعوا هذا، بل هناك نهاية للأمر». لم يتوقع بارسينو هذه الإجابة، ولاحظ أن أوثار يتململ في وقفته. قال بارسينو متسائلاً: «وما هي النهاية إذن؟ هل هناك مخرج؟».

أوماً العمدة برأسه ثم قال: «هناك نبوءة متعلقة بالأمر، أنه ذات يوم سيولد شخصٌ قادرٌ على أن يكسر السجن ويواجه بهموت، وألهة الظلام من ورائه. ولكن حتى اليوم الذي يولد فيه هذا المختار لا يمكن لنا أن نرحل عن جانب التل».

عقد بارسينو حاجبيه وهو يقول في ريبة: «المُختار؟».

قال له أمريد ببساطة: «أجل، ولهذا حذرت من قبل أن يملأ أوركين عقلك بحديث عن رؤية أشياء لا يراها أحد سواك، أن يقنعك بشكلٍ ما أنك المُختار، وأن يستخدم هذا لكي يقنع قاطني القرية بأن يتبعوكما إلى خارج القرية».

قال له بارسينو: «هذه فكرة سخيفة». ولكنه تذكر ما قاله أوركين عن خطر متعلق بنبوءة قديمة. كان قد أغفل ذكر هذا الجزء وهو يحكي للعمدة ما قاله الحطّاب، ولكن... قاطع العمدة أفكاره وهو يقول: «لماذا يهتم بك الحطّاب كثيرًا؟ لم يُعلمك بأشياء لا يجب أن يعلمها أحد سواه؟ ألا ترى هذا غريبًا؟».

فكر بارسينو في كل ما فعله الحطّاب من أجله طيلة هذه الأيام السابقة، ولكنه لا يزال غير قادر على تصديق حكاية العمدة، من المستحيل أن يكون هذا ما يفكر فيه أوركين. أحس في هذه اللحظة أنه يفقد قدرته على كبح الهمسات بداخله، وسمع صوتًا يهمس: ولم لا تكون المختار حقًا؟

قال بارسينو بصوتٍ عالٍ: «لا، أنا لست مختارًا!».

قال العمدة مبتسمًا: «هذا ما أقوله لك».

ولكن الهمس بأعمقه تردد مرةً أخرى: لست مختارًا أبناء النور، ولكنك قد تكون المختار.

بدا بالنسبة له حديثًا متناقضًا، ولكنه في الوقت ذاته أحس بشيء من دفاعاته يرتخي، أحس كأنها... يريد أن يسمع ما يقوله هذا الهمس. إنه حائر ما بين الحطّاب والعمدة، ولكن... ربما هناك إجابة أخرى في مكانٍ آخر.

قال العمدة في حزم: «بغض النظر عما قاله لك الحطّاب عني فإن أولويتي الأولى هي الحفاظ على القرية وأمنها. يمكنني أن أحتجرك، أو أن أنفيك خارج القرية، إن أحسست أنك ستُمثل لنا خطرًا».

احتقن وجه بارسينو بالدماء أمام تهديدات العمدة، بينما يفكر فيما فعله في صديقه، وتمنى في هذه اللحظة أن يضرب العمدة مهما كانت العواقب. ولكن العمدة قاطع أفكاره بأن قال في نبرة صارمة: «هل تحب القرية وترغب في الحفاظ على أمنها وسلامة قاطنيها؟».

قال بارسينو على الفور: «بالطبع!».

قال له العمدة: «عليك إذن أن تثق في حكمة أسلافنا الذين وضعونا هنا، لا يجب علينا أن نرحل حتى يحين موعد رحيلنا المناسب. وإن كانت هذه الفكرة الحمقاء لا تزال تراود أوركين فسيكون عليك أن تثنيه عنها بطريقة ما دون أن تخبره بما دار بيننا من حديث. لا يجب أن يرحل أحد عن جانب التل!».

صمت بارسينو قليلاً، ثم سأله: «أتعرف بشأن كسوف الشمس القادم؟».

عقد أمريد حاجبيه وقال: «أي كسوف هذا؟».

قال بارسينو: «يقول الحطّاب إن هناك كسوفًا قريبًا، وقد يمثل خطرًا على القرية».

تبادل أمريد وأوثار نظرات قلقه، ولكن أمريد قال متجلدًا: «لا أعرف شيئًا عن هذا، ولا أعتقد أن الحطّاب عرافًا لكي يعرف بشيء كهذا قبل حدوثه. وإن حدث فستجاوزه كما تجاوزنا غيره، حتى لو خسرنا بعض قاطني القرية، فهذا هو الثمن الذي ندفعه منذ قرون لنخفي نورنا عن أعين الظلال».

تمتم بارسينو بصوتٍ خافت: «كخرافٍ تنتظر الذبح».

قال له أوثار: «ماذا تقول، ارفع صوتك».

فنظر إليه بارسينو وقال: «أقول فلتحمننا الشمس».

ابتسم العمدة وقال: «هذا صحيح يا فتى، ستحمينا الشمس، وسيحمينا القمر، فنحن أبناء النور».  
سمع بارسينو صوت ضحكات ساخرة في أعماقه، فقال لنفسه: لا يزال عليّ البحث عن الحقيقة، ولكن... ربما  
عليّ البحث في مكانٍ آخر!

\*\*\*

ما إن رحل بارسينو حتى نظر أوثار إلى العمدة وقال: «ظننت للحظة أنك ستخبره بكل شيء».  
زفر أمريد وقال: «لن ينفعه أو ينفعنا معرفة كل شيء الآن».  
سأله أوثار في اهتمام: «ألا يزال هناك احتمال أن هذا الفتى يمثل خطراً؟ أعني بعدما بدأ الخطاب يعلمه كل  
ما يعرفه».

هز أمريد كتفيه وقال: «لقد أكد لنا الخطاب يوم مولده أنه لا خطر منه».  
أوماً أوثار برأسه، ولكنه يعرف شيئاً واحداً أكيداً؛ لولا أوركين لما بقي بارسينو حياً يوماً واحداً بعد  
مولده.

فجأة قال متسائلاً في قلق: «ماذا عن كسوف الشمس القادم؟».  
قال العمدة وهو يتسّم: «ستجاوزه، كما تجاوزنا غيره». ولكن ابتسامته كانت تخفي قلقاً عظيماً.

## الفصل الثاني والعشرون

### ابن القمر

بعدهما رحل بارسينو من بيت العمدة توجه ناحية الحانة. نظر إلى اللافتة وقد صار قادرًا على تمييز الحروف. قرأ بصوت عالٍ: «الغزال الواثب». ثم دلف إلى داخل الحانة.

كانت خالية من الزبائن في مثل هذا الصباح الباكر، ولكنه وجد كينورا بالداخل، وقد بدا عليها أنها لم تستيقظ منذ وقت طويل، فشعرها الأحمر ليس ممشطًا أو معقودًا بالأشرطة الفضية كعادتها. كانت تمسح إحدى الطاولات بقطعة قماشية، وعندما رأته قالت في دهشة: «بارسينو؟». ثم أضافت في خجل: «الحانة لم تفتح أبوابها بعد، فنحن لا نتوقع زبائن في مثل هذا الوقت المبكر».

لم يرها بارسينو بمثل هذا الخجل من قبل، ولم يفهم الأمر في البداية، ثم أدرك أنها لم ترغب في أن يراها هكذا. سألها: «أين العجوز طاييو؟ ألا يزال نائمًا ولا يساعد ابنته المسكينة على تنظيف حانته؟».

ضحكت وقالت: «دعك منه وقل لي، ما الذي جاء بك في مثل هذا الصباح البارد؟».

قال لها: «أنا ذاهب لمواجهة شخص ما، وظننت أنني قد أحتاج لكأس من الشراب قبل مواجهته».

سألته في اهتمام: «أكينو؟».

هز رأسه وقال بأسى: «لا، شخص آخر».

عقدت حاجبيها وقالت في حيرة: «الخطاب أوركين إذن؟».

قال لها: «لا تشغلي بالك بالأمر، أحضري لي كأسًا من أقوى مشروب عندكم».

قالت في دهشة: «ظننت أنك لا تشرب شيئًا مخمرًا».

تنهد وقال: «هناك مرة أولى لكل شيء».

أمسكت بيده لتجذبه إلى إحدى الطاولات، فوضع سلته جانبًا، وجلس إلى الطاولة، بينما جلست هي قُبالتة. سألته في اهتمام: «أخبرني بما يدور في ذهنك يا باري».

ساد الصمت للحظات وهو يصارع تردده، ثم قال لها: «ألا تعتقدين أن القرية في خطر؟».

حدقت إليه للحظة، ثم سألته: «خطر؟ ماذا تقصد؟».

قال لها: «أعني أن الذئاب قد هاجمتنا من قبل، مخلوقات الظلال، ما الذي يمنعها من مهاجمتنا مرة أخرى؟».

قالت له: «حسبما سمعت من حكايات فإن هجمات الذئاب ليست شيئًا جديدًا، هذا هو قدر قرينتنا».

قال لها: «أتمنى لو كان بمقدوري تغيير هذا القدر».

أمسكت بيده وقالت: «لا تشغل بالك بتغيير الأقدار، فلا أحد يمكنه تغييرها. عليك فقط أن تضع ثقتك في الشمس، فإنها ستمدنا دومًا بالبركة والدفء والحرارة».

عندما سمع بارسينو هذا الحديث أطرق برأسه في أسى، فسألته في قلق: «ما الأمر؟».

قال لها: «القرية تعتقد أنني ولدت محرومًا من مباركة الشمس، حتى أكينو يعتقد هذا الآن».

قالت في عدم تصديق: «أكينو؟ أنتما أكثر صديقين مقربين في القرية بأسرها». ثم صممت قليلًا قبل أن تقول: «لاحظت مؤخرًا أنكما لا تلتقيان كثيرًا، ولكنني لا أصدق أن يعتقد أكينو هذا».

قال لها وهو يشيح بنظره: «لقد ساءت الأمور بيننا. حدث ما أغضبني، ثم فقدت سيطرتي على نفسي، و... حدثت أمور ما كان يجب أن تحدث».

قالت له برفق: «قد تكون مختلفاً عن الآخرين، ولكن هذا ليس شيئاً سيئاً بالضرورة. أنت تحاول دوماً فعل الخير، وتمضي قدماً في حياتك مهما عاملك الناس بسوء دون أن تقابلهم بالمثل. لا أنسى اليوم الذي وقفت فيه بيني وبين الذئاب لكي تحميني. بالنسبة لي أنت إنسان شجاع ورائع».

حدق إليها بارسينو بعينين متسعيتين، وهو يشعر بالدفء يتسلل إلى قلبه. أدرك فجأة أن هناك مشاعر محتجزة في قلبه منذ وقت طويل، تتوق لأن تكون حرة طليقة، فقال لها: «كينورا... أنا...».

قبل أن يكمل جملته قالت له مبتسمة: «أعرف يا باري». ثم تلفتت حولها قبل أن تقول: «ولكن أرجوك لا تقلها، ليس الآن».

سألها وهو يشعر بالصدمة: «لماذا؟».

قالت في حزن: «أبي لن يعجبه سماع هذا للأسف، إن قلبه مليء بغضب تجاهك، وأنا لا يمكنني... التعلق بشخص قد لا يكون لي في النهاية. يجب علينا أن نتمهل قليلاً، وألا نندفع وراء مشاعرنا».

أحس بارسينو بالدفء يتلاشى والبرودة تعود إليه بسرعة كبيرة. إنها لم تشعر تجاهه يوماً سوى بالشفقة والتعاطف. هذه هي الحقيقة، وها هي تحاول التهرب مما قالت!

قالت وقد لاحظت الصدمة على وجهه: «دعنا نتحدث عن الأمر لاحقاً، وليس في الحانة. لا أريد أن يستيقظ أبي ويقاطع حديثنا».

قال بجمود: «لا بأس».

سألته في قلق: «هل أنت بخير؟».

أوماً برأسه وقال: «أجل، أعطني كأساً من الشراب فحسب وسأنصرف على الفور».

أمسكت كينورا بكأس مسحته بقماشة نظيفة، ثم صببت له الشراب.

لدهشتها تناوله بارسينو دفعة واحدة فاحتقن وجهه الشاحب، ثم قال لها: «شكراً لك». ثم أخرج من جيبه قطعة نحاسية وضعها على الطاولة، وانصرف حاملاً سلتته دون أن يقول شيئاً آخر.

كان عقله يموج بالأفكار وهو يتتعد عن الحانة. لقد أعطته الأمل وسلبته منه في اللحظة ذاتها، كيف تجرؤ على التلاعب به هكذا؟ إنه غاضب منها، غاضب من أكيو، غاضب من الخطاب، غاضب من العمدة، غاضب من القرية بأسرها!

إنهم لا يستحقونك!

لم يعد راغباً في مقاومة الهمسات، بل الغريب أنه بدأ يلمس منها شيئاً من الألفة.

أخذته قدماه إلى مكان مألوف، ساحة الصلوات، حيث تتراص شواهد القبور، ومن ورائها التلالؤ العجيب الذي يفصل ما بين القرية والغابة. لقد اعتاد رؤيته تماماً حتى إنه لم يعد يتعجب منه كذي قبل، رغم أنه لا يزال يثير في نفسه القشعريرة كلما خطا من خلاله.

كان هناك واحد من رجال الشعائر يتلو صلوات خافتة وهو يصوب وجهه ناحية الشمس مغمضاً عينيه رغم أن الشمس محتجبة وراء الغيوم. لعله لم يشعر بمجيء بارسينو، أو أحس به ولم يرغب في مقاطعة صلواته.

وقف بارسينو أمام شاهدي قبر أبيه وأمه، وقرأ الكلمات المحفورة عليهما: تحت ضياء الشمس ونور القمر يرقد نامار وأميلدا. أحس بقشعريرة تسري في جسده وهو يفهم أخيراً الكلمات التي لطالما نظر إليها طيلة

حياته دون أن يفهمها.

هذا هو المكان الذي دائماً ما أحس فيه بالراحة، ولكنه هذه المرة جاء لسبب مختلف، قال بصوت خافت: «جئت إليكما لأنني بحاجة إلى مشورتكما، أنا ضائع وبحاجة إلى الهداية، ماذا يجب عليّ أن أفعل؟».

قال صوت من ورائه: «الجميع يبحثون عن الهداية، ولكن لا أحد يصلي».

انتفض ونظر وراءه، ليجد الرجل قد أنهى صلواته وهو ينظر إليه، بوجه عجوز متعب.

قال بارسينو: «وهل ستجيب الصلوات عن أسئلتى؟».

سأله الرجل مبتسماً: «هل جربت من قبل؟».

هز بارسينو رأسه وقال: «لست من رجال الشعائر».

تنهد الرجل وقال: «هذا ما آل إليه حال القرية، يظنون أنه لا أحد يصلي إلا رجال الشعائر، بينما يكتفون هم بالاحتفال كلما اكتمل القمر».

قال بارسينو في سخرية جافة: «أنا ولدت محروماً من مباركة الشمس، فلم أصلي لها؟».

ابتسم الرجل مشفقاً وقال: «قد يكون هذا ما يعتقده الجميع، ولكنه ليس بالضرورة ما يجب أن تعتقده أنت. إن حقيقتنا تشكل وفق ما نعتقده عن أنفسنا».

أحس بارسينو بالضيق، هذا الرجل يريد أن يلوم نفسه على ما لاقاه طيلة سنوات عمره، لا أن يلوم من يندونه. حتى أقرب أصدقائه يعتقد الآن ما يعتقده غيره، ولعل هذا ما يضمه هذا العجوز في أعماقه بدوره.

انصرف غاضباً وعينا الرجل المتغضنتان تلاحقانه، ولكنه لم يعد ناحية القرية، بل قطع ساحة الصلوات، وواصل سيره، متجهاً ناحية التلال العجيب، ناحية غابة الظلال، بينما الغيوم تزداد تكاثفاً من أعلاه.

\*\*\*

وقف بارسينو أمام معبد الشمس، متأملاً الشجرة العملاقة، ثم هبت الرياح فتردد دوي الأجراس. لقد تزايد الهمس في أعماقه منذ أن خطا عبر الغابة، وقد استسلم له وهو يدعوه للاقتراب. وبينما يقف أمام الفتحة المظلمة أحس بالهمس كدوي الرعد في عقله، ثم بدأت قطرات من الماء تتساقط على رأسه؛ لقد جاء المطر.

وضع سلتته أرضاً، ثم استل فأسه وخطا عبر الفتحة المظلمة، قبل أن يعبر الممر المألوف، حتى وصل إلى القاعة الصخرية ذات الأعمدة، وكرة الضوء بالأعلى توج في اضطراب.

تردد الصوت في القاعة كأنها يأتي من كل مكانٍ من حوله: «لقد جئت أخيراً!!». الصوت الذي عرف بارسينو أخيراً أنه صوت بهموت.

صرخ بارسينو: «ما الذي تريده مني؟».

أجابه بهموت: «أريدك أن تعرف الحقيقة، وألا تنخدع بالأكاذيب».

قال بارسينو: «الحقيقة هي أن أبناء النور قد هزموك وسجنوك».

قهقه بهموت ثم قال: «وهل تشعر بالفخر لهذا؟».

قال بارسينو: «بالطبع، فأنا واحد منهم، أنا من أبناء النور!».

قال الصوت العميق: «هل هذا ما أخبروك به؟ هل هذا ما قاله لك الخطّاب؟».

قال بارسينو: «أجل!». كان يشعر بيقين عميق في أعماقه، ولكنه لسبب ما بدأ يتزعزع.

تسللت خيوط من الدخان من كرة الضوء، كمجسات ثعبانية تتحسس طريقها نحوه. وفي هذه اللحظة رفع بارسينو فأسه وصرخ بالكلمات التي علمها له الحطّاب، ليتوهج نصله بضوء أحمر، قبل أن يهوي بالفأس أرضاً، فتدقق الضوء الأحمر على الأرض، متسلقاً الأعمدة، حتى وصل إلى كرة الضوء فتلاشت خيوط الظلال على الفور مع صرخة ألم.

صرخ بارسينو في غضب: «أخبرني بالحقيقة! ما الذي تحاول أن تقوله؟». قال بهموت: «هذا ما كنت أحاول أن أريك إياه، أنت لست واحداً منهم، أنت من أبناء الظلال!». وقعت الكلمات على بارسينو كالصاعقة، ارتجفت يده الممسكة بالفأس، ولكنه صرخ وهو يهز رأسه: «أنت تكذب!».

قال بهموت: «هذا ما لم يخبرك به الحطّاب أو العمدة أو أي شخص آخر، هكذا يولد أبناء الظلال، بشعر أبيض، وبشرة بيضاء، ولكنهم يحشون رأسك بالأكاذيب عن كونك مولوداً بدون مباركة الشمس! إنهم يخشونك لأنك لست واحداً منهم».

صرخ بارسينو: «هذا كذب! أنت تكذب!». تردد صوت بهموت وهو يقول: «بل ما أخبرك به هو الحقيقة، دعني أريك بنفسي، سأريك أسلافك الحقيقيين».

أحس بارسينو بالضعف، وببطء تلاشى الضوء الأحمر من الطلاسم، بينما خيوط الدخان تتسلل من الكرة وتهبط ببطء ناحيته، حتى لمست الخيوط السوداء صدغيه وموضع قلبه، وفي اللحظة ذاتها أحس بارسينو بألم حاد في رأسه ومشاهد تتمثل أمام عينيه، جيشين متصارعين، النور والظلال، وجيش منها كان جنوده... بشعر أبيض ووجوه شاحبة، وأعين حمراء تلمع في الظلام!

قال الصوت في أعماقه متردداً كألف صوت: «أنت واحد منا، أنت الوعاء الذي يمكنه أن يسمح لي بالعودة، هكذا كان أسلافك يجلبون آلهة الظلام إلى العالم. إن العالم مكان شاسع أكبر بكثير من قريبتكم الضئيلة، أنا وأنت يمكننا أن نحكم هذا العالم! إنهم جميعاً يكرهونك وأنت تعرف هذا، لا أحد منهم يستحقك، ولكن أنا أفهمك».

أحس بارسينو بكل رغبة لديه في المقاومة تتلاشى، أحس كأن الظلال تتسلل إلى أعماقه، تنساب في عروقه...

وفجأة أحس بألم حاد، والظلال تنسحب من أعماقه، وكل النقوش في القاعة تتوهج بلونٍ أحمر ساطع، وصوت مألوف يترنم... صوت الحطّاب... وفي هذه اللحظة غاب بارسينو عن الوعي.

\*\*\*

كان بارسينو يمشي وحيداً في القرية المظلمة، ومن كل نوافذ البيوت تطل عليه أعين حمراء مخيفة، تتبعه في سيره أينما ذهب، وفجأة وجد نفسه محاطاً بحشد من الناس يشيرون ناحيته بأصابعهم وهم يضحكون ضحكات ساخرة. بدوا وكأنهم يقهقهون، ولكنها كانت ضحكات صامتة.

كانت وجوههم شاحبة وشعرهم أبيض، مثله، ولكن ملامحهم مألوفة، أكينو، كينورا، طابيو، نيربو، أمريد، أوثار، أوركين، وحتى الجدة أوريتا، كل قاطني القرية صاروا مثله، ولكن أعينهم حمراء كأبناء الظلال.

وفجأة اجتمع القمر والشمس معاً في السماء، ورغم ذلك لم يبددا شيئاً من ظلمة القرية، ثم التحم الشمس والقمر ليصيرا قرصاً مظلمًا، وعندها خرج رأس أفعوان أسود عظيم من غابة الظلال، اقترب من القرص المظلم، ثم فتح فكه ليلتعه، وبعد ذلك نظر الأفعوان ناحيته فاتحاً فكيه، كاشفاً عن نابين عظيمين. وفجأة انقض الأفعوان ناحيته....

استيقظ بارسينو وهو يلهث ليجد نفسه في مكانٍ مألوف، ولكنه ليس بيته، بعد مرور بعض الوقت أدرك أنه في حجرة نوم الحطّاب، وأنه نائم على فراشه. كان المكان مظلمًا، ولكن هناك ضوءاً يأتي من الباب المفتوح، لعله من نيران المدفأة. أدرك من الأصوات بالخارج أن الأمطار لا تزال مستمرة وقد صارت أكثر غزارة. تلفت حوله وهو يلتقط أنفاسه ويحاول تهدئة نبضات قلبه. كان برق مستلقياً بجانب الفراش، وعندما نظر إليه نبج الكلب بحدة، وهنا جاء أوركين وهو يقول: «ها قد استيقظت أخيراً، خشيت أنني قد فقدتك هذه المرة».

انكمش بارسينو في خوف وهو يتذكر ما حدث في المعبد، لقد ظن في البداية أنه كان كابوساً، ولكن كلمات الحطّاب أكدت أنه حقيقة.

قال أوركين معاتباً: «ما الذي ذهب بك إلى معبد الشمس؟ ألم أحذرك من الذهاب إلى هناك؟». ثم جلس إلى كرسي بجانب الفراش وقال: «عندما لم تأت اليوم ظننت أنك لم تأت لأنه اليوم الأول من احتفال اكتمال القمر، فذهبت إلى الغابة وحدي، ولكنني شعرت بطاقة غير طبيعية تصدر عن المعبد، وعثرت على سلتك أمامه فأدركت أنك بالداخل، ولولا وصولي في الوقت المناسب لهلكت». ثم صمت قليلاً قبل أن يسأله مرة أخرى: «ما الذي ذهب بك إلى هناك؟».

تعجب بارسينو، لم يكن يدرك أن احتفال اكتمال القمر قد جاء مرة أخرى بالفعل، لم يشعر بمرور الأيام... ولكنه نحى هذه الفكرة جانباً وهو ينظر إلى الحطّاب ليسأله بصوتٍ مرتجف: «من أنا؟».

عقد أوركين حاجبيه وقال: «ما الذي تعنيه بهذا السؤال؟ هل فقدت ذاكرتك؟».

قال بارسينو: «بل أعني من أنا حقاً؟».

قال أوركين: «أنت بارسينو؟».

قال بارسينو: «أخبرني بهموتٍ إنني من أبناء الظلال... لقد جعلني أرى أشياء من الماضي... إنهم... يشبهونني حقاً. هل أنا واحد منهم؟».

صمت أوركين قليلاً، ثم قال له: «لو كنت من أبناء الظلال لقتلتك يوم مولدك».

فاجأت الإجابة بارسينو، ورغم قسوتها إلا أنها في الوقت ذاته طمأنته قليلاً، لا شك أن لدى الحطّاب سبباً مقنعاً لقول هذا، ولكنه قال في حيرة: «ولكنني أشبههم... أم أن هذه الرؤى كانت زائفة؟».

قال أوركين: «لا لم تكن زائفة، ولكنك بالتأكيد لاحظت شيئاً يجعلك مختلفاً عنهم».

ارتجف بارسينو وهو يتذكر الأعين الحمراء المخيفة.

وكانها قرأ الحطّاب أفكاره فقد قال له: «هذا صحيح، ما أنفذك من الموت هو عينك الزرقاوان، لو كانتا حمراوين لقطعت عنقك يوم مولدك».

قال بارسينو وهو يهز رأسه: «ولكن لماذا ولدت أنا هكذا؟ ولماذا تغامر وتركني على قيد الحياة بسبب لون عيني فقط؟».

صمت أوركين قليلاً، ثم قال: «كل إنسان يولد تتصارع عليه قوتان؛ النور والظلام، ومن ثم فإن أبناء النور هم من تتصر بداخلهم قوة النور، وأبناء الظلال هم من تتصر بداخلهم قوى الظلام، الأمر لا يتوقف

على أسلافك فحسب».

قال بارسينو: «إذن فهذا يعني أنني قد أكون...».

رفع أوركين يده ليقاطعه، ثم قال: «عندما يولد الطفل بين أبناء النور يغلب عليه أن تنتصر بداخله قوة النور، وعندما يولد في البيئة المظلمة التي يعيش فيها أبناء الظلال يغلب عليه أن تنتصر قوة الظلام. أما أنت فقد كانت ظروف ولادتك غريبة، فقد ولدت بين أبناء النور، وأبوك كان حطّابًا، ولكن كسوف الشمس منح الظلال قوة أكبر، لذا أعتقد أن أيًا منهما لم تنتصر في ذلك اليوم، ولعلهما لا تزالان تتصارعان بداخلك حتى يومنا هذا».

أحس بارسينو بالصدمة لسماع هذا، ثم قال: «إذن فأنا لست من أبناء النور ولا أبناء الظلام، بل مجرد مسخ هجين...».

تنهد أوركين ثم قال: «أنت تحمل بداخلك قوة عظيمة، هناك شيء لم أخبرك به، نبوءة قديمة يتوارثها أبناء النور».

قال بارسينو في سخرية مريرة: «أهي نبوءة عن المختار؟».

نظر إليه الحطّاب في دهشة، ثم سأله: «كيف عرفت بهذا؟».

أطرق بارسينو برأسه في خجل، ولم يقدر على إجابة هذا السؤال.

تأمله أوركين للحظة، ثم سأله: «هل العمدة هو من أخبرك بهذا؟».

رفع بارسينو عينيه في دهشة وقال: «كيف عرفت هذا؟».

تنهد الحطّاب وقال: «مجرد تخمين فحسب».

قال بارسينو: «لم تخبرني أنت بما قاله العمدة؟ لم تخبرني أن أسلافنا قد وضعوا بهموت لسجننا نحن لا لسجنه هو؟».

قال أوركين ببساطة: «لأنني لا أتفق مع ما فعله أسلافنا. كنت أتمنى لو أنهم قد قاتلوا حتى آخر قطرة من دمائهم بدلًا من وضع هذه الخطة اليائسة، والاعتماد على نبوءة قد تتحقق وقد نفى قبل أن تتحقق. لا أريد منك أن تستسلم لفخ هذه النبوءة، وتجلس متكاسلاً كما يفعل العمدة وحاجبه».

سأله بارسينو في دهشة: «ولكنك قلت للتو إن هناك علاقة ما بيني وبين تلك النبوءة، أليس كذلك؟».

ابتسم الحطّاب وهو يقول: «لا يزال الأمر مجرد احتمال، وقد حاولت الهرب من التفكير فيه لسنوات عديدة، ربما لم أرغب في تعليق أملي على شيء قد لا يتحقق، لذا عقدت عزمي على البحث عن مخرج لهذه القرية، ولكن كل محاولاتي باءت بالفشل».

قال بارسينو في حيرة: «لم أفهم بعد ما علاقتي بالأمر».

صمت أوركين قليلاً، ثم قال: «تقول النبوءة إنه يومًا ما سيولد شخص ما من أبناء النور، شخص قادر على التحكم في قوى النور والظلال في وقت واحد، شخص يمتلك قوة كهذه سيكون أقوى أبناء النور، وسيكون أقوى حتى من آلهة الظلام، وأنه من سينقذ أبناء النور في حربهم الأخيرة في وجه الظلال».

صاح بارسينو في دهشة: «وأنت تعتقد أنني هذا الشخص؟».

هز أوركين كتفيه وقال: «ولم لا؟». ثم قال بجديّة: «عندما ولدت خشيتك كما يخشاك العديد من قاطني القرية، ولكنني فكرت في هذا الاحتمال، ماذا لو كنت أنت المختار؟ وأن ظروف مولدك قد مهدت لك الطريق لكي تكون الشخص الموعود؟».

صمت بارسينو، كان المطر بالخارج يطرق على نوافذ البيت وجدرانه، ومن آن لآخر يدوي البرق. وأخيراً قال: «العمدة يعرف كل ما تعرفه عن النور والظلال، ألم يفكر في قتلي؟».

ابتسم الحطاب وقال: «لقد حاول قتلك ولكنني وقفت في وجهه، قلت له إنه ربما يقتل الأمل الوحيد لقرية جانب التل. لا أعتقد أنه قد اقتنع بما قلته رغم أنه يؤمن إيماناً راسخاً بالنبوءة، فهو لن يقبل بأن يكون المختار شبيهاً بأبناء الظلال. ولكنني حذرته أنني سأقتله إن مسّ شعرة منك. لا شك أنه أيقن أنني جاد في تهديدي، ولكنه يكرهني منذ ذلك اليوم، ويكرهك بطبيعة الحال».

قال بارسينو بسخرية مريرة: «أشكرك للدفاع عن حياتي، ولكن ألا تعتقد أنك ربما تعرض القرية لخطر عظيم؟».

تنهد أوركين وقال: «أصدقك القول إن هذا يخطر على بالي، ولكن منذ مقتل معظم الخطّابين وأنا أشعر بيبأس عظيم. لم يعد هناك الكثير من الأمل للقرية، إما الرحيل عنها، أو أن نجد سبيلاً آخر لإنقاذها، وكنت أنت هذا السبيل. عندما أيقنت باستحالة الرحيل، لم يعد أمامي سوى وضع كل الأمل على عاتقك. أعرف أنها مسؤولية عظيمة، ولكن لا مفر من تحملها».

ثم صمت قليلاً، قبل أن يضيف: «أصدقك القول إنني أحسست بالرعب عندما رأيت الظلال تحيط بك في معبد الشمس، وظننت للحظة أنني قد خسرت كل شيء».

قال بارسينو بصوتٍ مرتجف: «لقد وصفني بالوعاء، هل تعرف شيئاً عن هذا؟».

أوماً الحطاب العجوز برأسه، ثم قال: «آلهة الظلام لا توجد بشكل مادي في عالمنا، إنها لا تقدر على هذا بمفردها، بل تحتاج لما يسمى بالوعاء، وهو يكون عادةً واحداً من أقوى أبناء الظلال، حيث يتجسد الإله المظلم من خلاله».

ثم نظر إلى بارسينو بمزيج من الرهبة والفخر وهو يقول: «إن كان بهموت يعتقد حقاً أنك تصلح لأن تكون وعاءً إذن فأنت بالقوة التي توقعتها، أو ربما أقوى».

ارتجف بارسينو وهو يفكر في الأمر، ثم سأله: «متى سأقدر على مواجهته إذن؟».

هز أوركين رأسه وقال: «لا أعرف هذا، ربما يختار القدر هذه اللحظة بالنيابة عنا، ولكن حتى تخين هذه اللحظة يجب عليك أن تكون مستعداً لها».

مال بارسينو برأسه للوراء وهو يقول: «أتمنى أن يكون هذا قبل يوم كسوف الشمس».

قال الحطاب في وجوم: «دعنا نصلي للشمس أن يكون لدينا ما يكفي من الوقت».

سأله بارسينو في قلق: «ما الذي تعنيه بهذا؟».

قال أوركين: «لقد درست حركة الأفلak والنجوم، ويبدو أن الكسوف قد اقترب كثيراً».

اتسعت عينا بارسينو، قد لا يكون هناك وقت كافٍ على الإطلاق!

## الفصل الثالث والعشرون

### التلاشي

في صباح اليوم التالي استيقظ بارسينو متأخرًا على غير عادته، كان هذا هو يوم الاحتفال الكبير، وقد منحه أوركين هذا اليوم كي يحظى ببعض الراحة، ولكن في هذه اللحظة تمنى بارسينو لو أنه لم يفعل، فلم يكن هناك شيء آخر يمكنه فعله. لم يشعر بارسينو برغبة في مغادرة الفراش أو رؤية أحد، فظل مستلقيًا لبعض الوقت محاولًا العودة إلى النوم ولكن بلا جدوى. في النهاية قرر النهوض من فراشه، ثم فتح النافذة ونظر إلى الخارج. لقد توقف هطول المطر، ولكن السماء لم تكن صافية، فالغيوم الكثيفة لا تزال تحجب الشمس. رتب فراشه ثم بدل ملابسه وهبط إلى الطابق السفلي، ولكنه لم يجد جدته في الردهة، وبعد بحث سريع أدرك أنها ليست في البيت.

خمن أنها تركته يحظى بقسط من النوم وذهبت إلى بيت إحدى الجارات لقضاء يوم الاحتفال الكبير معها. أحيانًا ما تجتمع مجموعة من الجارات العجائز، ليقضين يومهن في إعداد الفطائر والثرثرة، واجترار الذكريات القديمة.

أعد لنفسه فطورًا على نيران المدفأة، ثم كوبًا من أعشاب جذور الشمس، وجلس يتناولهُ مستمتعًا بالدفء. أحيانًا ما يتمنى لو تتوقف الحياة عند لحظات معينة من السعادة أو الدفء، ولكنها دومًا ما تمر عليه سريعًا مرور الكرام.

فكر في أن يشغل نفسه بقراءة بعض الكتب، ولكنه لم يشعر بالحماس لهذا. أدرك أنه لا فائدة من البقاء في البيت، فقرر أن يخرج لكي يتمشى قليلًا. لم يكن هناك الكثير من الناس في الشوارع، معظمهم سيتوجه إلى الساحة الكبرى من أجل إعدادها للاحتفال، وربما يذهبون إلى الحانة لقضاء النهار بها، قبل التوجه إلى الساحة ليلاً.

عندما فكر في الحانة تذكر كينورا وحديثها الأخير، وتذكر مواجهته مع أكينو أمام الحانة. شعر بالاضطراب وهو يفكر كيف صار منعزلًا عن كل من ظنهم قريين منه، حتى جدته لم يعد يتحدث معها كثيرًا مؤخرًا. لم يتبق له سوى الخطاب العجوز.

فكر في أن يذهب للبحث عنه في غابة الظلال، ولكنه أدرك أن ذهابه وحده للغابة بدون أوركين سيكون خطيرًا، ماذا لو حدث شيء والخطاب ليس بجواره؟

بدلاً من هذا توجه إلى ساحة الصلوات التي كانت خاوية في تلك اللحظة حتى من رجال الشعائر. وقف أمام قبري أبيه وأمه في صمت وهو يتخيل كيف كانت لتصير حياته لو ظل والداه على قيد الحياة. هل كان أي من هذا ليحدث؟ زفر بحرارة ثم قال مخاطبًا نفسه: «من يدري؟».

رفع يديه إلى صدره، وأغمض عينيه، ثم بدأ يتلو لوالديه بعض الصلوات التي حفظها من كتب أوركين، مستغرقًا تمامًا حتى انعزل عن كل ما حوله، وأحس بالسكينة تغلف قلبه.

\*\*\*

قال أوركين مخاطبًا برق: «اليوم هو يوم الاحتفال الكبير يا صديقي، ولكني لا أكاد أذكر آخر مرة احتفلت فيها باكتمال القمر».

نبح الكلب الأسود العجوز، فابتسم أوركين مما جعل وجهه يزداد تغضناً بينما يسترجع ذكرى قديمة، لم يحتفل باكتمال القمر منذ أن كان شاباً تبهجه هذه الأشياء. ولكنه قد كبر، ومع تقدم السن يفقد المرء الكثير من مباحج الحياة.

كان يسير بجانب برق متوغلاً عبر غابة الظلال، إنه يعمل حتى في يوم الاحتفال الكبير، شخص مثله لا يجد راحته في البيت، فالعمل يشغل عقله عن التفكير في الكثير من الأشياء.

ولكن فجأة قاطع أفكاره نباح الكلب الحاد، فسأله باهتمام: «ما الأمر يا برق؟».

راح الكلب ينبح بلا انقطاع وهو يرفع رأسه ناحية الأفق. التفت أوركين وراءه ناحية التل الذي لا يزال مرئياً من بين قمم الأشجار قبل أن يعقد حاجبيه في قلق، فتحت السماء الغائمة كان التلألؤ يتلاشى، حتى اختفى تماماً.

قال أوركين متمتاً: «هذا لا يبشر بخير». ثم أسرع عائداً ناحية القرية والكلب يركض إلى جواره.

ما إن وصل إلى سفح التل حتى التفت إلى الكلب وقال: «أذهب وابحث عن بارسينو أينما كان، واجلبه إلى الساحة الكبرى».

أسرع الكلب لينفذ الأمر، بينما الخطاب ينظر ناحية الغابة ويقول مرة أخرى: «هذا لا يبشر بخير».

\*\*\*

ما إن انتهى بارسينو من صلواته حتى فتح عينيه، وابتسم في ارتياح، أحس بشيء من الحزن الثقيل ينزاح من على قلبه، كأن والديه يواسيانه.

قال هامساً: «شكراً لكما». ثم دار على عقبيه لكي يعود إلى القرية، ولكنه تجمد في موضعه وهو ينظر أمامه في دهشة، فقد رأى كلب الخطاب يركض ناحيته، لسانه متدل من فمه وهو يلهث مع عدوه.

وقف الكلب أمامه وراح ينبح، قبل أن يستدير ويبدأ العدو مبتعداً عنه، وبعد بضع خطوات توقف ونظر إليه قبل أن يبدأ الجري مرة أخرى.

قال بارسينو وهو يعقد حاجبيه: «هل يريد مني اللحاق به؟ ما الذي حدث؟».

ثم نظر ناحية الأفق، واتسعت عيناه في دهشة. لم يلاحظ أثناء الانهماك في صلواته أن الحاجز السحري قد اختفى.

بدأ يجري مسرعاً وراء الكلب الأسود، والقلق يعصف بقلبه، خشية أن يكون خطب ما قد ألم بالخطاب. خمن بارسينو أن برق سيأخذه إلى غابة الظلال، ولكنه توجه ناحية القرية، فتوقع أنه سيأخذه إلى بيت الخطاب. سرعان ما أدرك أنه يسلك طريقاً مختلفاً، ثم عقد حاجبيه عندما بدأ يدرك وجهتهما؛ إنه يأخذه إلى الساحة الكبرى!

عندما وصل بارسينو إلى هناك كانت الشمس قد قطعت شوطاً كبيراً في السماء وهي محتجبة وراء الغيوم، والناس في الساحة الكبرى يستعدون للاحتفال الكبير فينصبون المنصات والطاولات الخشبية، ويعد كل منهم بضاعته أو يتدرب على ما سيقدمه من ألعاب، وحراس العمدة في ملابسهم الصفراء يراقبون الاستعدادات في تكاسل. ولكن لم يكن هناك الكثير من الناس، سيأتي معظمهم بعد غروب الشمس.

كان أوركين واقفاً ينظر إلى كل هذا، ثم التفت وراءه ليرى برق يقترب منه راكضاً، ومن ورائه بارسينو. توقف بارسينو بجانب الخطاب وهو يلهث لالتقاط أنفاسه، ثم سأله في صوت متقطع: «ما... الأمر؟ ما الذي... حدث؟ أين ذهب... التلألؤ».

قال أوركين في وجوم: «هناك شيء على وشك الحدوث اليوم».

سأله بارسينو بعد أن هدأت أنفاسه: «هل هو كسوف الشمس؟».  
هز الخطّاب رأسه وقال: «لا، بناءً على حساباتي فلا يجب أن يكون الكسوف اليوم. ولكن هناك شيء آخر  
أحياناً ما يسبق كسوف الشمس، وأخشى أن هذا ما سيحدث اليوم».  
سأله بارسينو في قلق: «ما هو؟».

قال أوركين: «ستعرف، ولكن علينا أولاً أن نتحدث مع العمدة لنقنعه بإيقاف هذا الاحتفال وأن يعود  
الناس إلى بيوتهم». ثم قال وهو يخطو عبر الساحة الكبرى: «هيا بنا، لا وقت لنضيعه». فلحق به بارسينو  
وبرق.

جذب مشهدهم الناس وهم يقطعون الساحة الكبرى، فتوقف معظمهم عما يفعلونه وهم ينظرون إليهم  
في دهشة، وعندما اقتربوا من بيت العمدة قال أوركين مخاطباً الحارسين اللذين يحرسان الباب: «أريد  
الحديث مع العمدة».

نظر إليه الحارسان في رهبة ثم ازدرد أحدهما لعابه وقال بصوتٍ مرتجف: «العمدة يستعد من أجل  
الاحتفال الكبير، وليس لديه وقت للقاء أحد».

قال أوركين في نفاذ صبر: «أخبره أن الأمر عاجل، يجب أن ألتقي به على الفور».  
تبادل الحارسان النظر، ولكنها لم يتحركا فقال الخطّاب في غضب: «هيا أخبراه على الفور! الأمر يتعلق  
بسلامة القرية وقاطنيها!».

قال الحارس: «حسناً، انتظر لحظة».  
ثم غاب في الداخل، قبل أن يعود بصحبة أوثار، فقال أوركين في ازدياد: «قلت لك إنني أريد العمدة لا  
حاجبه».

تجاهل أوثار الإهانة التي تنطوي عليها نبرة أوركين وهو ينظر ناحية بارسينو قبل أن يعيد نظره للخطّاب  
ويقول: «العمدة مشغول الآن، أخبرني بما تريده».

عقد أوركين ذراعيه أمام صدره وقال: «لن أخبر به سوى العمدة، وإن لم يرغب في سماعي سأقول ما أريد  
قوله لرعاياه».

عقد أوثار حاجبيه وقال: «لن تجرؤ...».  
ولكن أوركين قاطعه بحزم: «بل أجرؤ أيها الحاجب!».

في هذه اللحظة جاء صوت أمر يد يقول من وراء أوثار: «ما الذي تريده أيها الخطّاب؟». أفسح الحاجب  
والحارسان الطريق للعمدة في احترام، ثم نظر الأخير إلى بارسينو قبل أن يضيف: «أم عليّ أن أقول أيها  
الخطّابان؟».

قال أوركين: «دعك من هذه الألعاب الكلامية يا أمر يد، هناك شيء أهم من هذا الآن».  
تنهد العمدة وقال: «حسناً، تعال لتتكلّم في الداخل».

قال أوركين في حزم: «لن نتكلّم في الداخل، بل سنتكلّم هنا، لأنك إن لم تنصت إليّ فسأتحدث إلى الناس  
مباشرة».

بدا التوتر على وجه أوثار، بينما قال أمر يد في غضب: «لن تجرؤ على هذا!».  
قال أوركين في حزم: «يبدو أن تساهلي معك وحاجبك جعلكما تعتقدان أنني أفترق إلى الجرأة».

تململ الحارسان وهما ينظران إلى عمدتهما في انتظار أوامره.  
قال أمر يد: «ما الذي تريده؟».

قال الخطّاب: «أريدك أن تأمر الناس بالعودة إلى بيوتهم، وأن يحرص كل منهم على أن يبقى مدفأته مشتعلة. شيء ما سيحدث اليوم».

قال العمدة في استنكار: «تريد مني أن ألغي الاحتفال الكبير؟»  
أوماً أوركين برأسه وقال: «هذا ما أريده».

قال العمدة: «لا يمكنني أن أحرم الناس من شيء ينتظرونه ما بين اكتمال قمر وآخر، وبناءً على تخوفات خطّاب عجوز خرف».

أحس بارسينو بالغضب من كلمات العمدة، ولكنه ترك أوركين يتولى الأمر.  
قال أوركين: «أقول لك إن شيئاً خطيراً على وشك أن يحدث اليوم».

قال العمدة ضاحكاً في عصبية: «لم يحدث شيء ليلة اكتمال القمر من قبل».  
ولكن الخطّاب قال بجمود: «بل حدث من قبل، وأنت تذكر هذا جيداً».

هز أميرد رأسه وقال: «أذكر هذه المرة، ولكنها قد تكون مصادفة. يجب علينا أن نتحلى بالإيمان، فالقمر يرعانا بنوره».

وفي هذه اللحظة تحركت سحابة في السماء، ليسقط ضوء الشمس على الساحة الكبرى، فقال العمدة بظفر: «وكانها لتؤكد الشمس على كلامي، ها هي الغيوم تتبدد، وستكون ليلة صحواً جميلة. سيحميننا القمر والشمس أيها الخطّاب».

قال الخطّاب في حقن: «لا فائدة من الحديث معك». ثم تحرك مبتعداً عن بيت العمدة.  
صاح أميرد: «أحذرك من فعل أي شيء طائش يا أوركين!».

تبع بارسينو الخطّاب وهو يتساءل ما الذي سيفعله.  
وقف أوركين في منتصف الساحة وهو يصيح: «اسمعوني يا أبناء جانب التل!».

نظر الناس إليه في دهشة، أما حرس العمدة المتناثرون في الساحة فقد نظروا إلى عمدتهم، ثم نظروا إلى الخطّاب وأيديهم تحوم بالقرب من هراواتهم.

قال الخطّاب بصوتٍ جهوري: «هناك خطر عظيم على وشك أن يحدث اليوم، أريدكم أن تعودوا إلى بيوتكم، وأن تشعلوا مدافئكم، وأن تتضرعوا للشمس والقمر أن تمر هذه الليلة على خير».

تبادل الناس الهمسات، وقد بدا عليهم الخوف، فقال أوركين: «وإن مرت هذه الليلة على خير سيكون عليكم التفكير في الرحيل عن جانب التل».

هذه المرة كان دور بارسينو لأن يشعر بالدهشة، لم يتوقع أن يفصح الخطّاب عن هذا، ثم نظر إلى وجوه الناس فوجدها مكتسية بالصدمة.

صاح الخطّاب: «لطالما حرص الخطّابون والعمد على إخفاء الحقيقة عنكم، ولكنني أعتز الآن أننا جميعاً قد ارتكبنا خطأ، أنتم تستحقون معرفة الحقيقة. هناك عالم واسع وراء غابة الظلال، إن تعاوننا معاً فيمكننا الوصول إليه».

تفجرت الهمهمات كالعاصفة، وهنا قطع العمدة بضع خطوات للأمام وهو يصيح: «أيها الحراس! امنعوا هذا المجنون من الحديث!».

تقدم الحراس للأمام يطوقون أوركين وبارسينو، بينما برق يزجر في وجوههم بشراسة.

هنا وجد بارسينو نفسه يصيح: «لم تخافون من مواجهة الحقيقة؟ عليكم فقط أن تنصتوا له، وإن لم يعجبكم حديثه تجاهلوه. ليس الأمر وكأنه يجبركم على تنفيذ ما يقوله!».

عبس أمريد وقال: «ها قد كشفت عن وجهك الحقيقي أخيراً! أنت مجرد لعبة في يد الخطّاب العجوز». قال بارسينو في حنق: «لست لعبة في يد أحد! ولكنني مقتنع أن الجميع من حقهم معرفة الحقيقة». توافد المزيد من الناس إلى الساحة الكبرى، وشعر الوافدون الجدد بحيرة أكبر من هؤلاء الذين قد سمعوا كلمات الخطّاب.

استل حرس العمدة هراواتهم، ولكنهم ظللوا مترددين ما بين تنفيذهم لأمر العمدة، وخوفهم من الخطّاب والشاب الأمهق، كما أن برق بدا مخيفاً أكثر من المعتاد وقد كشر عن أنيابه. صاح الخطّاب: «هناك شر يتعاضم في الغابة، وقد اكتسب ما يكفي من القوة لمواجهة القمر، وقريباً سيكون لديه ما يكفي من القوة لمواجهة الشمس ذاتها».

اتسعت عيننا بارسينو، بينما تقدم العمدة إلى الأمام وهو يقول: «هل ستنتصتون إلى هذه المهرطقة؟». تلفت الخطّاب وهو ينظر إلى أعين الناس، فلم يقابله إلا الخوف، والتردد، والخنوع. تنهد الخطّاب وقال لبارسينو: «قضيتنا خاسرة هنا». ثم نظر ناحية الأفق، كانت الشمس قد اقتربت من الغروب. قال مخاطباً أمريد: «لم يتبقّ الكثير من الوقت، يجب أن تأمر الناس بالعودة إلى بيوتهم قبل أن يفوت الأوان».

نظر أمريد إلى الناس، يراقب خوفهم وترددهم، ثم قال بصوت عالٍ: «هل يرغب أي منكم في العودة إلى بيته وترك الاحتفال؟».

صمت معظم الناس، بينما هز البعض رؤوسهم، وتعالّت بعض الهمسات، التي ميز بارسينو من بينها كلمة «لا».

قال أمريد في ظفر: «كما ترى أيها الخطّاب، لا أحد يريد الإنصات إلى ترهاتك». ثم نظر إلى أوركين وقال وهو يبسط يديه: «لقد قلت ما عندك، وحسم الناس قرارهم، هل عندك شيء آخر لتقوله يا أوركين؟». عقد الخطّاب حاجبيه وقال: «إن تعرض هؤلاء الناس لخطر اليوم بسببك فلن أسامحك أبداً». ضحك العمدة وقال: «أنا لم أختر لهم، هم من اختاروا بأنفسهم». ثم ضم قبضته وهو يرفع يده في السماء: «من يريد الاحتفال اليوم؟».

تعالّت صيحات الناس المتحمسة، بينما بارسينو يشعر بالعجز، وهو ينظر إلى أوركين الذي بدا محبطاً مثله. تلفت أوركين حوله ثم قال مخاطباً بارسينو: «تعالّ معي، لم يتبقّ الكثير على غروب الشمس». تبعه بارسينو حتى وقفا خارج الساحة الكبرى، ثم قال الخطّاب فجأة: «أين فأسك؟». قال بارسينو: «في البيت، لم أخرج اليوم من أجل...». ولكن الخطّاب قاطعه قائلاً: «لا تخطو خطوة واحدة بدون فأسك. اذهب إلى البيت وأحضره، سأبقى هنا بصحبة برق لمراقبة هذا الاحتفال».

أوماً بارسينو برأسه، ثم ركض عائداً إلى بيته، بينما الشفق الأحمر يزحف عبر السماء مع اقتراب الغروب، وكل من يراه يركض في الاتجاه المعاكس للساحة الكبرى ينظر إليه في دهشة. عندما اقترب من البيت وجد جدته تفتح الباب بالفتاح الحديدي، فتوقف أمامها وهو يلتقط أنفاسه. قالت له في دهشة: «باري؟ ما الأمر؟».

تجاهل سؤالها وهو يندفع إلى الداخل عبر الباب الذي فتحته. لحقت به على الفور ولكنه ركض صاعداً السلم إلى غرفته كي يجلب فأسه، وعندما هبط سألته في قلق: «ما الأمر يا بني؟». قال لها: «أريدك ألا تغادري البيت هذه الليلة، وأن تبقي المدفأة مشتعلة طيلة الوقت».

أومأت برأسها وقالت: «هذا ما أفعله دومًا، ولكن لم اليوم بالذات؟».  
تردد بارسينو قليلاً ثم سأها: «هل حدث خطر في القرية من قبل في ليلة كان فيها القمر مكتملاً؟».  
شحب وجه الجلدة فجأة وقالت: «أجل، لقد حدث هذا من قبل».  
قال لنفسه: إذن قد يكون الحطاب محقًا! ثم قال لها: «لا تتركي البيت الليلة مهما حدث». وقبل أن تتمكن  
من منعه، أسرع ناحية الباب خارجًا من البيت، وبعدها أطلق ساقيه للريح متوجهًا ناحية الساحة الكبرى.

## الفصل الرابع والعشرون

### عينان داميتان

عندما اقترب بارسينو من الساحة الكبرى وقف في موضع مرتفع على جانب التل يطل على الساحة. كان الاحتفال قد بدأ، ويبدو أن الناس قد نسوا ما قاله الحطّاب، فقد تعالت الضحكات والموسيقى والغناء، وتسلمت إلى أنفه روائح شهية لأطعمة تشوى وتطهى. كانت السماء أعلاهم صافية، والقمر المكتمل يغمرهم بالضوء الفضي، حتى إن بارسينو رغباً عنه أحس ببعض الشك فيما قاله الحطّاب.

وقف عند حافة الساحة يتلفت حوله بحثاً عن أوركين، ثم وقعت عيناه على كينورا تمسك بقيثارتها وتضبط بعض الأوتار، ثم رأى أكينو على مسافة منها يتجرع مشروباً أمام إحدى الطاويلات. تمنى لو يذهب إليهما، ويخبرهما أنه يحتاج إليهما أكثر من أي وقت مضى، ولكنه لم يقدر على هذا.

فجأة انتفض عندما أحس بيد توضع على كتفه، فالتفت على الفور، ثم زفر عندما رأى وجه الحطّاب العجوز.

سأله أوركين: «هل جلبت فأسك؟ حسناً، ممتاز. ليس أمامنا الآن سوى الانتظار».

تأمل بارسينو الاحتفال، ثم نظر إلى الحطّاب وقال له: «ظننت أنك قد عدلت عن فكرة الرحيل عن القرية، فلم تطرح الأمر على الناس الآن؟».

هز أوركين رأسه وقال: «لقد طرحته بدافع من اليأس، إن كان بهموت قد اكتسب ما يكفي من القوة لإسقاط درع القرية السحري فنحن في خطر كبير، وإن نجونا اليوم فلا أعرف ما سيحدث عند كسوف الشمس القادم».

ازدرد بارسينو لعبابه، ثم سأله في تخوف: «ما الذي سيحدث اليوم؟».

تنهد أوركين، ثم قال: «كسوف القمر».

اتسعت عينا بارسينو وهو يقول: «ماذا؟».

قال أوركين وهو ينظر إلى القمر المكتمل: «أحياناً ما يسبق كسوف الشمس خسوف القمر، لقد حدث هذا في كسوف الشمس السابق، وتذكر الكتب إنه قد حدث بضع مرات عبر التاريخ. عندما يأتيان متعاقبين تكون مخلوقات الظلال في أقوى حالاتها. كنت أمل ألا يتكرر هذا الأمر بهذه السرعة، ولكن منذ أن نظرت إلى النجوم والأفلاك وأحسست باقتراب الكسوف وأنا أخشى وقوع هذه الكارثة. حتى إن نجونا اليوم ستكون قوة بهموت عظيمة في كسوف الشمس، وقد يكون هذا في غضون أسبوع أو أسبوعين».

أحس بارسينو باليأس يتقاطر من كلمات الحطّاب العجوز، ثم نظر إلى الناس وهم يحتفلون ويلهون، فأحس بالغضب منهم لأنهم لم يكثرثوا لحديث أوركين، وبالغضب أكثر من أمريد لأنه يسمح بتعرض الناس للخطر مستغلاً جهلهم.

نظر ناحية الغابة، فأحس أنها مقبضة في الليل رغم ضوء القمر الفضي، ثم سأله: «قد يقتنع بعض الناس بالرحيل، ولكن أين يذهبون؟ أنت بنفسك قلت إنك مشيت في الغابة أياماً ولم تبلغ نهايتها».

جلس الحطّاب أرضاً فاستلقى الكلب الأسود بجواره، ثم قال بابتسامة مريرة: «ألم أقل لك إنها خطة يائسة؟».

قال بارسينو بوجوم: «مثلما كان اعتمادك عليّ خطة يائسة؟ أرى أنك فقدت الأمل سريعاً فيما نسبته إليّ من قوة».

اتسعت عينا أوركين في دهشة، ثم قال مشفقاً: «لا يا بني، ولكني لا أرى أنه من العدل تحميلك ما يفوق طاقتك، أن أنتظر منك النجاح فيما فشل فيه الخطّابون على مر القرون».

صمت بارسينو لحظة، ثم جلس إلى جانب الخطّاب وقال: «قد تكون محقاً، حتى أنا نفسي لا أملك هذا القدر من الثقة في نفسي».

وضع أوركين يده على كتفه وقال بابتسامة مشجعة: «لا أحد يعرف ما الذي تخبئه لنا الأقدار». ثم نظر ناحية الاحتفال ولاذ بالصمت، بينما القمر يتوهج أكثر في السماء، لا يعيق طريقه من أن لاخر إلا قليل من السحب المتفرقة.

راح بارسينو ينقل بصره ما بين الاحتفال الكبير وغابة الظلال، حتى خرج العمدة من بيته يرتدي روبه الاحتفالي الفضي، يتقدمه حاجبه، ورجال الشعائر، وحامل الكتاب. أدرك أن العمدة على وشك أن يلقي خطبة أخرى من خطبه المملة، فتشاءب قبل أن ينظر ناحية غابة الظلال. ثم انتفض فجأة وهو يعتدل واقفاً ويقول: «ما هذا بحق الأفلاك؟».

نهض أوركين بدوره وهو ينظر ناحية غابة الظلال، كان هناك شيء أشبه بالدخان يتصاعد من الغابة؛ ضباب أسود يعلو فوق قمم الأشجار العملاقة نحو السماء، وعندما رفع بارسينو عينيه لأعلى متبعباً هذا الضباب اتسعت عيناه في فزع وحيرة، فقد كان القمر الفضي يكتسي ببطء بلونٍ أحمر.

قال الخطّاب وهو يستل فأسه: «لقد بدأ خسوف القمر». بينما كشر برق عن أنيابه وراح يزجر. أمسك بارسينو فأسه بيديه وهو يشعر بالحيرة، لم يعرف ما يجب عليه فعله. التفت ناحية الساحة الكبرى فرأى الناس إما منهمكين في لهوهم غير مدركين لما يحدث أعلاهم، أو قد تعلقت أنظارهم بالعمدة وهو يلقي خطبته، ولكن سرعان ما راح البعض يشيرون بأصابعهم ناحية السماء وهم يتمتمون في خوف. انتبه العمدة إلى ما يحدث، فتر خطبته وهو يحدق إلى السماء في رهبة. كان القمر الأحمر يغرق الجميع من حوله في وهج قرمزي، بينما تجمد الناس في موضعهم، وخيم صمت مطبق على الساحة الكبرى. فجأة صاح العمدة وهو يتراجع إلى الوراء بخطوات متعثرة وأوثار يمسك بيده ليمنعه من السقوط: «عودوا إلى بيوتكم!».

وكأنها كانت كلماته إشارة البدء، فقد تشكل الضباب الأسود في السماء على هيئة غرابان، قبل أن تنقض ناحية الساحة الكبرى.

بدأ الناس يصرخون ويتفرقون، بينما الغرابان تقترب أكثر، ثم بدأت تخفق بأجنحتها ما بين الناس، فتجرح بمناقيرها الحادة الوجوه والأجساد، وتمزق الملابس، لتسيل الدماء.

أسرع أوركين ليقفز من موضعه والفأس في يده، قبل أن يهبط بقوة على الأرض، وما إن لامست قدماه الأرض حتى أسرع في الركض ناحية الساحة.

تجمد بارسينو في موضعه للحظة، قبل أن يمسك بفأسه ويسرع وراء الخطّاب وكلبه، مقتحمًا الكابوس المائل أمام عينيه.

صرخ أوركين بشيء من اللغة القديمة، فومض فأسه بلون أحمر، ثم ألقي به نحو غراب ليمزقه، قبل أن يرتد الفأس ناحيته مرة أخرى ليلتقطه من الهواء بمهارة، بينما برق كلما اقترب غراب من الأرض قفز نحوه

ليمزقه بأنيابه. كل غراب يصيبه فأس الخطّاب أو أنياب الكلب الأسود يتحول إلى دخان قبل أن يتلاشى على الفور.

قفز بارسينو بفأسه، يلوح ذات اليمين وذات اليسار، مصيباً ما يقدر عليه من الغربان، ثم صرخ باللغة القديمة فتوهجت أقرب الأطلال إليه بضوء أحمر، وأحس بالقوة تتدفق في عروقه. قفز في الهواء ليضرب كالإعصار مصيباً عددًا كبيراً من الغربان قبل أن يهبط على الأرض.

راح الناس يركضون في اتجاهات متفرقة، كل واحد منهم يحاول النجاة بنفسه، بينما العمدة يتراجع ناحية بيته وحرسه يحيطون به وهم يلوحون بهراواتهم في وجه الغربان، وقد سقط بعضهم مضرجين بالدماء من جروحهم العديدة، بينما العمدة لا يزال يصرخ في الناس بالعودة إلى بيوتهم.

راح بارسينو يفتش بعينه عن كينورا وأكينو، فوجد صديقه يمسك بهراوة حارس قد لقي مصرعه ويضرب بها الغربان التي تحاول الاقتراب منه وقد أصيب بخدش في وجهه، بينما كينورا قد سقطت أرضاً، تضم قيثارها إلى صدرها، وعيناها تترقرقان بالدموع.

كان بارسينو على وشك أن يسرع ناحية كينورا عندما تعالى من الأفق صوت عواء، قادم من ناحية غابة الظلال، فظفر ناحية الغابة في فزع، قبل أن يصرخ في أوركين: «لقد جاءت الذئاب!».

لم يمض وقت طويل حتى وصلت مخلوقات الظلال المخيفة إلى الساحة الكبرى مكشرة عن أنيابها، فتضاعف الرعب في الساحة الكبرى، وسقط المزيد من الموتى، وأثخت الجراح أجساد الناجين.

تجمد بارسينو في موضعه وهو يحرق إلى المشهد بعينين متسعيتين، أحس أن كل شيء يتحرك من حوله ببطء، الوحوش تهجم على الخطّاب وقلبه، الدماء النازفة من جسد أكينو، كينورا تضع يديها على أذنيها وتصرخ في رعب بينما الدموع تبلل وجهها...

فجأة راح الهواء يندفع من حول جسد بارسينو كالإعصار، بينما وهج الأطلال ينافس ضوء القمر المكتمل الأحمر، ثم بدأ الضباب الأسود ينجذب من السماء إلى جسده بينما يعلو في الهواء ببطء. اكتسى جسده الأبيض بعروق سوداء نابضة، وتحولت عيناه من اللون الأزرق إلى اللون الأحمر. راح بارسينو يتكلم باللغة العتيقة، فتردد دوي كلماته عبر جانب التل، ليعلو فوق كل صوت آخر.

تجمدت وحوش الظلال في موضعها، وراحت الغربان السوداء تحلق حول جسد بارسينو دون أن تهجم عليه، بينما تجمعت الذئاب المظلمة من حوله في حلقات وهي تجثم على الأرض، قبل أن ترفع رؤوسها إلى الهواء وتعوي في عواء مشترك مخيف.

تجمد الجميع بدورهم وهم يحدقون في ذهول ورعب، حتى الخطّاب بدا مصعوقاً وهو يتأمل هذا المشهد. سمع بارسينو همساً بداخله، همساً ظافراً، ولكن بارسينو راح يقاومه بكل ما يملك من قوة، وهو يشاهد قاطني القرية ينظرون إليه في فزع ورعب، حتى التقت عيناه بعيني كينورا الباكيتين، كان فيهما مزيج من الخوف الحزن، وهي تمد يدها ناحيته كأنها تحاول الوصول إليه وانتشاله مما هو فيه. لم يتحمل بارسينو نظرة عينها، التي ملأت جسده وروحه بالألم...

ثم صرخ بارسينو فتفجر الضوء من جسده ليجتاح الساحة الكبرى، وجانب التل. توهجت الأطلال في جنون، بينما وحوش الظلال تصرخ في ألم وتنفجر ويتلاشى دخانها مع إعصار الضوء والهواء المندفَع من بارسينو.

خيم الصمت لوقت طويل بعد تلاشت وحوش الظلال، وأعين الناس مصوبة نحو بارسينو المعلق في الهواء، بينما ينظر بعينه الحمر اوين ناحية غابة الظلال.

كان ينصت إلى صوتٍ في أعماقه يصرخ فيه في غضب، صوت يلومه على اختيار الجانب الخاطيء. بدأ القمر يستعيد لونه الفضي الطبيعي رويدًا رويدًا، وفجأة بدأت العروق السوداء تتلاشى ببطء من جسده، وعينه تعودان بالتدريج إلى لونها الأزرق، ثم بدأ جسده يهوي من السماء، فأسرع أوركين ناحيته ليحتضنه قبل أن يرتطم بالأرض.

ظل الحطاب محتضنًا جسد بارسينو لوقتٍ طويل، بينما الناس يفيقون من ذهولهم، بعضهم يرثى من فقدته من أقاربه ومعارفه، وبعضهم ينظر ناحية أوركين وبارسينو في خوف.

شق العمدة طريقه بين الحشد بخطوات مرتجفة متوكتًا على حاجبه والناس يفسحون له الطريق حتى وقف أمامهما وراح ينظر إليهما في صمت.

رفع أوركين عينيه وقال في غضب: «لقد حذرتك! قلت لك أن تأمر الناس بالعودة إلى بيوتهم، ولكنك لم تفعل هذا إلا بعد فوات الأوان».

رفع العمدة يده ببطء، وأشار بإصبع مرتعشة ناحية الحطاب، قبل أن يقول بصوتٍ مرتجف: «العينان الحمر اوان... إنه طفل اللعنة... ابن الظلال!».

عقد أوركين حاجبيه وقال: «ما هذا الحديث يا أمريد؟».

نظر العمدة إلى الناس، ولكنه أكمل حديثه مخاطبًا أوركين: «كنت تعرف حقيقته منذ مولده، وكنت تدافع عنه. إنه من يجلب هذا الشر من غابة الظلال إلى جانب التل». ثم بدل حديثه مخاطبًا الحشد وهو يكمل: «هذا ما كنت أحذركم منه أيها الناس! الشر الكامن في قريتنا! لقد رأيتم جميعًا كيف ركعت له وحوش الظلال».

صرخ أوركين: «أي جنون هذا؟!».

فتح بارسينو عينيه ووعيه يعود إليه ببطء، ثم قال بصوت خافت ضعيف: «جدتي...».

صاح أمريد ليعلو بصوته فوق صوت الحطاب: «جميعكم كنتم تخافون الأمهق منذ مولده، ربما لم تعرفوا السبب من قبل، ولكنكم تعرفونه الآن، إنه من وحوش الظلال! عاش بين ظهرانينا طيلة هذه السنوات متظاهراً أنه واحد منا، ولكنه الآن قد كشف عن وجهه الحقيقي».

ثم التفت مرةً أخرى إلى أوركين بعينين زائغتين وقال: «يجب أن يرحل عن جانب التل، وإن وقفت في وجهي هذه المرة سترحل أنت أيضًا، لا مكان للظلال في قريتنا». ثم أشار ناحية الغابة وصرخ: «بل مكانها هناك!».

قال أوركين في غضب: «بل يجب على الجميع الرحيل عن جانب التل».

تلقت أمريد حوله وهو يقول: «هل يريد أحد الرحيل عن القرية، والذهاب إلى المجهول وراء غابة الظلال؟».

أطرق بعض الناس برؤوسهم أرضًا، وهز بعضهم رؤوسهم نفيًا وخوفًا، وتعالى كلمة «لا» ضعيفة ومترددة مرة أو مرتين.

تحامل بارسينو على نفسه ليعتدل واقفًا، فراجع جميع الناس في خوف، وأخذ أمريد خطوة مترددة للوراء.

قال بارسينو ببطء: «يا لكم من مجموعة من الجبناء!».

قال العمدة بصوتٍ مرتجف: «كيف تجرؤ...». ولكن نظرة واحدة من بارسينو أحرسته.

تلقت بارسينو حوله ناظرًا إلى الناس في خيبة أمل، ثم نظر ناحية أكينو، كان مصابًا ولكن يبدو أنه سيكون بخير. بدا على أكينو الحزن العميق وهو ينظر إليه. مد بارسينو يده ناحيته، ثم سقطت ذراعه إلى جانبه في ضعف. نقل بصره إلى كينورا، فوجدها تنظر إليه في أسف ولكنها لم تقل شيئًا.

قال بارسينو في غضب مكتوم: «بعد أن عرضكم عمدتكم للخطر، وبعدها أنقذت أنا والحطاب حياتكم، ما زلت قانعين بالعيش في ظلال الخوف».

ثم تلقت حوله، كانت بعض الجثث لا تزال تنزف، وبعضها قد تمزق. مشهد يفوق أكثر كوابيسه بشاعة، ولكنه أدرك من نظرات الناس أنهم يخافونه في هذه اللحظة أكثر من أي شيء آخر.

قال العمدة وهو يرفع إصبع الاتهام مرة أخرى: «أنت لم تنقذنا إلا من شر قد جلبته بنفسك، لقد أدركت في الهجوم السابق أن لك يدا في الأمر، ولكني الآن تيقنت من هذا!».

هز بارسينو رأسه في أسى، ثم بدأ يمشي فأفسح الناس له الطريق في فزع، بينما توتر حرس العمدة، ولكنه كان يقترب من أكينو، حتى وقف أمامه وقال له: «هل تصدقهم يا صديقي؟».

قال أكينو في حزن: «لا أعرف ما الذي يجب أن أصدقه يا باري».

اكتسى وجه بارسينو بالألم، ثم نظر ناحية كينورا، فأشاحت بنظرها بعيدًا عنه والدموع تسيل من عينيها مرة أخرى.

تلقت بارسينو حوله ناظرًا إلى الساحة الكبرى مرة أخيرة، ثم بدأ يمشي مبتعدًا وهو يقول: «إن كنتم تريدون رحيلي فسأرحل إذن، سأرحل عن جانب التل».

تمالك أمريد شيئًا من رباطة جأشه وهو يقول: «هذا ليس اختيارك، بل هو قرار القرية التي أمثلها بكوني عمدتها». ثم نظر إلى أوثار ورجاله وقال: «احرصوا على التيقن من رحيله عن القرية».

لم يتحرك أي من الحرس بل ظلوا متجمدين في موضعهم والخوف لا يزال بادياً عليهم.

ألقي أوركين نظرة ازدراء ناحية العمدة وحاجبه ورجاله، ثم صاح مخاطبًا بارسينو: «انتظر! لا تذهب وحدك!».

أسرع الحطاب لاحقًا ببارسينو، ومن ورائه كلبه الأسود، ليهبط ثلاثتهم جانب التل ناحية غابة الظلال.

\*\*\*

بعد أن ابتعدوا عن الساحة الكبرى، قال أوركين مخاطبًا بارسينو: «إلى أين تظن نفسك ذاهبًا؟».

هز بارسينو كتفيه وقال بأسى: «إلى غابة الظلال».

نظر أوركين وراءه، ثم قال: «يمكنك الاختباء في بيتي، ولن يعرف العمدة بهذا، لن يجرؤ...».

ولكن بارسينو قاطعه قائلاً بمرارة: «لا فائدة من هذا، سينتهي كل شيء قريبًا، أشعر بهذا».

سأله أوركين: «ماذا تعني؟».

نظر بارسينو ناحية القمر المكتمل، قبل أن يقول: «أخبرني بهموت أن هجوم اليوم كان لاختبار قوته فحسب، الهجوم الحقيقي سيكون عند كسوف الشمس، ولن يقدر أي منا على مواجهته حينها».

قال أوركين بصوت يحدوه الأمل: «ولكنك قدرت على مواجهته اليوم، لقد ردعت وحوشه المظلمة».

سأله بارسينو: «ألا ترى هذا غريبًا بعض الشيء؟».

سأله أوركين في حيرة: «ماذا تعني؟».

قال بارسينو: «لقد سمعت همسات بهموت في أعماقي، يلومني على الدفاع عن القرية، ولكن شعرت بشيء آخر، كأنها صرت قادرًا على الإحساس بما يدور في أعماق بهموت، كما يخترق هو أعماقي، ربما حدث هذا الرابط رغمًا عنه، لا أعرف». ثم هز رأسه قبل أن يكمل: «شعرت كأنه يختبرني، يريد أن يعرف مقدار القوة التي يمكنني تحملها، أن يتيقن من أنني الوعاء المناسب».

قال أوركين في شك: «لعله زرع هذا في أعماقك لكي يثبط من عزيمتك بعدما نجحت اليوم في مواجهته، وأنقذت القرية».

قال بارسينو: «أنا لست منقذًا، لقد سمعت ما قاله الناس، أنا الآن مجرد وحش في نظرهم. أنت نفسك قلت إنني لو ولدت بعينين حراوين لقتلتني دون تردد، والآن بعدما رأيتني في صورتي الحقيقية فلم لا تراني وحشًا مثلهم؟».

قال الخطاب بجديّة: «لأنني عرفتك يا باري، وأعرف أنك تريد حقًا إنقاذ هذه القرية. قد يكون هناك قوتان متصارعتان بداخلك، ولكنني أعرف أنك ستميل في النهاية إلى جانب الخير، إلى جانب النور».

تأمله بارسينو للحظة، ثم نظر ناحية غابة الظلال وقال: «أتمنى لو كانت ثقتي بنفسي نصف ثقتك بي، ولكنني صرت أخاف حتى من نفسي».

سأله الخطاب: «ما الذي ستفعله إذن؟».

قال بارسينو بنبرة تمزج ما بين السخرية والإحباط: «سأظل في غابة الظلال حتى ينتهي هذا الأمر، إما بنهايتي أو بنهاية الإله المظلم».

قال أوركين مفكرًا: «البقاء في غابة الظلال سيكون خطيرًا، ربما إن بقينا معًا...».

قاطعه بارسينو على الفور: «لا! سيكون عليك العودة إلى القرية، الناس لا يزالون بحاجة إلى الخطب، والعمدة يعرف هذا، لذا كان مترددًا في نفيك معي. يجب أن تعود، وسيكون عليك أن تطمأن جدتي عليّ. أعرف أنها ستسمع الكثير من الشائعات عني، وستموت قلقًا إن لم يطمئنها أحد». ثم نظر إلى أوركين وقال: «ولكنني أعتقد أنك ستلتقي الكثير من اللوم عند اللقاء بجدتي، سيكون عليك التحلي ببعض الصبر».

أحس أوركين بشعور غريب في هذه اللحظة، لقد بدا بارسينو أكثر نضجًا، أكثر بكثير.

أومأ الخطاب برأسه وقال: «لا تقلق، سأطمئنها، ولكن بالنسبة لبقائك في الغابة...».

نظر إليه بارسينو فقال الخطاب: «لن أثنيك عنه، ولكن سيكون عليك البقاء في مقر الخطابين القديم بالغابة. إنه محاط بالكثير من الأطلال، والسحر الذي يحميه قوي للغاية. سأعلمك الكلمات التي تفتح الباب وتغلقه، وسيكون عليك إغلاقه كل مساء. سألقاك كل صباح في المعتاد، وسنقضي اليوم معًا كالعادة، ولن نفترق إلا مساءً».

قال بارسينو مترددًا: «ولكن العمدة...».

صاح أوركين: «لعنة السماء على العمدة! لن يجرؤ هذا الوضع على إرسال رجاله لمراقبتي في الغابة. وحتى إن أمرهم بهذا، فلن يملك أي منهم الشجاعة الكافية لتنفيذ الأمر».

ارتسمت ابتسامة ساخرة على وجه بارسينو وهو يقول: «صدقت في هذا».

ثم نظر ناحية السماء وقال: «حسنًا، لقد اقتربت النهاية على أي حال، اقترب الكسوف، ولن يكون علينا القلق بعدها، فإما أن نتصر، أو سنكون جميعًا موتى، والموتى لا يقلقون».

فأحس أوركين بقبضة باردة تعتصر قلبه، ولكن في هذه اللحظة وهما يخطوان عبر غابة الظلال، كان هناك تلالؤ خافت، يزداد قوة ببطء.

## الفصل الخامس والعشرون

### وحيد بين الظلال

نام بارسينو في مقر الحطّابين على فراش صنعه من الأغصان وأوراق الشجر ليحميه من برودة الأرض الصخرية، ولكنه لم يستطع أن يخلد إلى النوم، كانت أحداث الليلة تتكرر في عقله بلا انقطاع، كل حركة وكل نظرة وكل صرخة، بينما جسده يتصبب عرقاً رغم البرد.

تذكر اتهامات الناس له بأنه وحش، وراح يقول لنفسه في غضب: كيف يجروون على قول هذا بعدما أنقذت القرية! ولكنه تذكر نظرات الرعب في أعينهم، وخصوصاً في عيني كينورا، فعاوده مرة أخرى إحساسه بأنه مجرد لعنة.

هل أنقذهم حقاً؟ أم أنه من جلب لهم هذا الرعب كما قال أمريد؟ تمزقت روحه ما بين الفكرتين، بينما الهمسات تتصاعد من أعماقه: هكذا يعاملونك بعدما أنقذتهم! إنهم لا يستحقونك، بل ما يستحقك هو مصير أفضل من هذا.

صرخ وهو يسد أذنيه: «اصمت!». ولكن الهمسات لم تصمت، بل ازدادت حدة رغم مقاومته لها. ارتسمت في خياله صورة كينورا بين ذراعيه، الصوت يهمس في مكر: هذا ما تريده أليس كذلك؟ قال بارسينو بصوت كالآنين: «لا! لا أريد شيئاً!». أنت وحيد! لا أحد يجبك!

فجأة تبدلت الصورة في عقله لتصير كينورا بين ذراعي أكيو وهما يتعانقان، فراح يهز رأسه بعنف كي يطرد هذه الصورة.

تبدلت الصورة بصور أخرى أكثر شناعة بينما الصوت يهمس: إنهما سعيدان من دونك. الجميع سعداء برحيلك عن قريتهم البائسة.

قال بارسينو: «أنت كاذب». ولكنه شعر بمقاومته تضعف. راح بارسينو يتلو الصلوات التي حفظها من الكتب، مستعيناً بالنور، وبكل ما يملك من قوة، كي يطرد هذه الهمسات المظلمة.

خيل إليه أنه يشعر بكل شيء في غابة الظلال بالخارج، كل شجرة وكل غصن وكل ورقة، يشعر بالأشياء المظلمة التي تتحرك في عتمة الليل بين أشجار الغابة. ولكنها لن تجرؤ على الاقتراب من هذا المكان، هكذا قال لنفسه وهو يتلو الصلوات بشكل محموم، يغلق عينيه تارة، ويفتحها على اتساعها تارة أخرى.

صارت الهمسات بعيدة، وبالكاد يقدر على تمييزها، حتى تلاشت تمامًا، فأحس بشيء من الراحة. لم يشعر بنفسه وهو ينزلق أخيراً إلى النوم، ولكن حتى نومه لم يكن هانئاً، بل كان مليئاً بالكوابيس المقبضة. لم يعرف بارسينو أن الليل قد انقضى إلا عندما انزاح الباب الصخري جانباً بصوتٍ مرتفع أيقظه من نومه. انتفض بارسينو جالساً في موضعه، ثم ارتخى جسده عندما رأى الحطّاب وكلبه.

كان أوركين يحمل غطاءً صوفياً ثقيلاً، وضعه على الأرض وهو يقول: «سيكون النوم على هذا الغطاء أهون من النوم على الأوراق والأغصان».

ثم وضع سلته الخوصية أرضاً وأخرج منها شيئاً ملفوفاً، وعندما حل الحطاب اللفافة أدرك بارسينو أنه رغيف من الخبز وقطعة من الجبن، وضعهما الحطاب أمامه وهو يقول له: «أحضرت لك ما تظن به».

تمتم بارسينو قائلاً وهو يطرق بعينه: «لا أشعر بشهية حقيقية». قال أوركين بحزم: «يجب أن تأكل، فأنت لم تتناول شيئاً منذ أمس». ثم تأمل بارسينو للحظة قبل أن يقول: «كما أنك ستكون بحاجة إلى كل قوتك في الأيام التالية».

رفع بارسينو عينيه وسأله: «ما الذي تعنيه؟». تنهد أوركين ثم قال: «ما حدث بالأمس يعني أن هموت يحاول إحكام قبضته عليك». قال بارسينو بحزن: «حتى أنت!».

جلس أوركين إلى جواره وقال: «لا أحد سوانا يعرف ما الذي يجري حقاً. أنا مؤمن تماماً بأنك قد أنقذت القرية بالأمس، ولكنني لا أخفيك سرّاً أنني أحسست بالخوف للحظة، لقد ظننت أنك... قد سقطت في الظلام».

قال بارسينو وهو يتحاشى النظر إلى الحطاب: «ربما هذا ما حدث حقاً». وضع أوركين يده على كتفه وقال: «لا، لم يحدث هذا، لقد قاومته، وأنا متيقن من أنك قادر على مقاومته للنهاية».

ابتسم بارسينو ابتسامة شاحبة وقال: «أتمنى لو كان لديّ ربع يقينك». ساد الصمت بينهما للحظات، ثم قال أوركين: «عليك أن تأكل، وبعدها سنخرج من هنا. يمكنك أن تساعدني في جمع الحطب».

أوماً بارسينو برأسه، ثم بدأ يتناول طعامه وهو يفكر في جدته، وسرعان ما انتقل السؤال إلى لسانه، فقال لأوركين: «كيف حال جدتي؟».

قال أوركين: «أوريتا بخير، لقد طمأنتها. إنها خائفة عليك بالطبع، ولكنها تعرف على الأقل أنه لم يمسسك أذى».

أوماً بارسينو برأسه وهو يلوك قطعة من الخبز والجبن ببطء، ربما من الأفضل أنه قد ابتعد عن جدته، الأخرى بها أن تخاف منه لا عليه. ارتسمت على شفثيه ابتسامة سخرية مريرة وهو يفكر في الأمر، ويبدو أن الحطاب قد عرف فيما يفكر، فقد قال له مشفقاً: «لا تقسُ على نفسك».

لم يجبه بارسينو، وبدأ يتناول طعامه بسرعة حتى انتهى منه، ثم نفص كفيه وقال: «الآن يمكننا الذهاب إلى حيث تريد».

أشار له أوركين أن يتبعه، فحمل بارسينو فأسه لحق به، ومن ورائه برق، حتى خرج ثلاثتهم إلى غابة الظلال، وانغلق الباب الحجري وراءهم.

أحس بارسينو بالارتياح لمغادرة مقر الحطابين الخائق، وبدا أن برق يشاركه شعوره، فقد راح يتقافز في سعادة.

بينما يمشيان عبر غابة الظلال غرق بارسينو في أفكاره القائمة، ولم يفق منها إلا على صوت الحطاب وهو يقول في دهشة: «ما الذي يحدث بحق السماء؟».

أفاق بارسينو من شروده، وتلفت حوله، ثم اتسعت عيناه في دهشة. كانت بعض الأطلال تتوهج بضوء أحمر، يظهر للحظة خافتة قبل أن ينطفئ في نبضات بطيئة. عندما انتبه بارسينو للأمر توقفت الأحرف على التوهج، فنظر إليه الخطّاب في حيرة وقال: «لم أرَ هذا يحدث من قبل!». سأله بارسينو في حيرة مماثلة وتوجس: «ما الذي حدث بالضبط؟». قال أوركين وهو يحك ذقنه: «يبدو أن السحر الموجود في الأطلال يستجيب لك دون حتى أن تتحدث، وهو أمرٌ لم أر مثله من قبل».

تنهد بارسينو ثم قال: «قبل شهر مضى لم أكن أشعر بغرابة شيء من حولي، ولكن منذ ذلك الحين حدث كل شيء غريب يمكن أن يخطر - أو ألا يخطر - على بالي، لذا لم أعد أتعجب من شيء». ولكن لا مبالاته الظاهرية تخفي بداخل أعماقه قلقًا عاصفًا. إنه يتمنى لو ينتهي كل شيء، دفعة واحدة، وتعود له حياته القديمة عندما كان مجرد راعي غنم. لقد كانت حياة مملّة، ولكنها مفعمة بالسكينة، وتحفها الطمأنينة. كان لديه جدة محبة، وصديق وفي، وفتاة يكن لها مشاعر دافئة... ولكنه الآن منفيٌّ من قريته، ولم يعد من حوله سوى البرودة والظلال.

أحس أوركين بما يدور في أعماقه، فقال له مُطمئنًا: «سينتهي كل شيء عما قريب». أو ما بارسينو برأسه وهو يفكر: أجل سينتهي كل شيء، إما بانتهاء الظلام، أو بانتهائي! وكانت الفكرة - رغم قمامتها - مريحة له بعض الشيء.

لاحظ بينما يمشي أن هناك خشخشة سريعة بين أوراق الأشجار، والأوراق اليابسة على الأرض، وسمع زجرة الكلب الأسود وهو يتحفز لهذه الأصوات، وعندما دقق النظر أدرك حقيقتها؛ مخلوقات ضئيلة من الظلال، أشبه بحشرات ذات أرجل عديدة، تهرب لتختبئ كلما مر بالقرب منها، أو هكذا خُيل إليه. عندما وصلا بقعة خالية من الأشجار، تحفها الأطلال الحجرية، وقف أوركين واضعًا سلته جانبًا وهو يقول: «ما رأيك في التدرّب على بعض الكلمات الجديدة؟».

تنهد بارسينو ثم قال: «أترى أنني ما زلت بحاجة للتعلّم والتدريب؟». ابتسم أوركين ابتسامة شاحبة وقال: «هل ترى أنك قد عرفت كل شيء؟ يظل الإنسان يتعلّم أشياء جديدة ما دام في صدره نفس يتردد».

هز بارسينو رأسه وقال: «بل لا أرى فائدة من هذا. صرت مكتئبًا ومتشائمًا مثلك. لا فائدة من المقاومة». عقد أوركين حاجبيه وقال: «لا تستسلم يا باري، لقد انتصرت بالأمس، ومن يعرف ما قد يحدث في الغد؟».

وضع بارسينو يده على قلبه متحسبًا موضع نديته، ثم قال في مرارة: «وماذا كان ثمن هذا الانتصار؟ لقد خسرت كل شيء!».

قال الخطّاب بابتسامة مشجعة: «لم تخسر كل شيء، ما زلنا معك أنا وبرق». نظر إليه بارسينو، ثم نظر إلى برق، قبل أن يجبر نفسه على الابتسام وهو يقول: «أنا ممتن لهذا حقًا». خيم الصمت للحظة، ثم قال أوركين: «حسنًا، دعنا لا نضيع وقتًا ولنبدأ على الفور». ثم أمسك بغصن يابس، وبدأ يرسم بعض الرموز على الأرض، قبل أن يسأل بارسينو: «هل يمكنك قراءتها؟».

هز بارسينو كتفيه وقال: «بالطبع». لقد اعتاد الأمر تمامًا، حتى أحس كأنها الحروف تفصح له عن معناها من تلقاء نفسها.

بدأ بارسينو ينطق الكلمات، فاستجابت الأطلال بأن راحت تتوهج، ثم امتد هذا التوهج إلى كل الأطلال المحيطة بهم، وصار صوت بارسينو عميقاً كأنها يتردد في الغابة بأسرها، واندفعت الرياح من كل مكان من حولهم لتعصف بأوراق الشجر التي تطايرت في الهواء.

رفع الخطّاب يده أمام وجهه، وهو يصيح: «يكفي هذا يا بارسينو!». بينما تراجع الكلب الأسود للوراء وذيله بين قائمته وهو يعوي في خوف.

بدا أن عيني بارسينو تحدقان إلى الخواء، بينما يتحدث باللغة القديمة، بكلمات لم يعلمها له الخطّاب، وبالكد كان أوركين قادراً على فهم ما تعنيه الكلمات، بدت أقدم حتى مما يعرفه.

«الأفعوان العظيم سيبتلع الشمس كما ابتلع القمر، لتخيم الظلال على العالم من جديد، وابن القمر المولود من الغسق يقف على الحد الفاصل ما بين الليل والنهار، يحمل في يديه كفتي الميزان، وعلى عاتقيه يقع عبء إعادة التوازن ما بين النور والظلام».

صرخ أوركين: «من أنت؟ من الذي يتكلم؟».

ولكن بدلاً من أن يجيبه الصوت، بدأت الرياح تهدأ، ووميض الأطلال يخفت، ثم زاغت عينا بارسينو وسقط أرضاً.

تجمد الخطّاب في موضعه محدقاً إلى بارسينو، ثم أسرع إليه بينما كلبه الأسود ينبح في تردد. وضع أوركين يده على جبهة بارسينو فوجدها ساخنة، ووجهه يتصبب عرقاً، ثم فتح بارسينو عينيه وحدق إلى أوركين بعينين زائغتين، قبل أن يسأله بصوتٍ مرتجف: «ما الذي يحدث لي؟».

ضمه أوركين إلى صدره وقال في حزن: «لا أعرف يا بني، صدقني لا أعرف».

ثم نظر ناحية التل المرتفع وقال: «يجب علينا العودة إلى مقر الخطّابين، أنت بحاجة إلى بعض الراحة والرعاية».

لدهشته أحس بارسينو بالنفور من العودة إلى مقر الخطّابين، أحس بشيء من ال... خوف؟ لم يعد قادراً على تمييز المشاعر التي تتنابه، ولكنه وجد نفسه يقول للخطّاب: «لا أريد العودة إلى هناك!».

قال أوركين بحزم: «هذا هو المكان الذي ستكون آمناً فيه». ثم تلفت حوله في الغابة كأنها يرى شيئاً في ظلالها، قبل أن يعتدل واقفاً وهو يمسك بيد بارسينو قائلاً: «هيا بنا، سأخذك إلى هناك».

حاول بارسينو أن يقاوم، ولكنه وجد نفسه أضعف من أن يفعل هذا، فترك الخطّاب يجذبه لكي يقف على قدميه، وبعدها سار بصحبة الخطّاب عائداً إلى المبنى الصخري من جديد، ومن ورائه تتوهج بعض الأطلال بخفوت.

\*\*\*

في المساء كان بارسينو مستلقياً على الفراش الذي جلبه له الخطّاب محدقاً إلى المصباح المشتعل المعلق بالجدار الصخري. حاول الخطّاب أن يقنعه بضرورة البقاء معه، ولكن بارسينو أصر على عودة أوركين إلى القرية.

قال له: «القرية بحاجة إليك، كما أنك إن غبت يوماً ولم تذهب لتطمئن جدتي فستموت قلقاً علي».

في النهاية انصاع الخطّاب العجوز لرغبته وعاد إلى القرية، ولكن هذه لم تكن رغبة بارسينو الحقيقية. كان يشعر بالوحشة من وحدته في الغابة، ولكنه في الوقت ذاته يخشى وجود الخطّاب معه، كأنها يخشى أن ينظر إلى ما بداخل روحه.

كان هناك همس عنيف في أعماقه، كأنها هما روحان تتصارعان على جسد واحد، فراح يهز رأسه بعنف محاولاً طرد الأفكار من عقله، وفي النهاية صرخ: «أنا وحيد!».

وفي هذه اللحظة انطفأ ضوء المصباح كأنها بفعل رياح قوية رغم أن الهواء ساكن في الحجر، قبل أن يهمس الصوت بداخله: أنت لست وحدك.

أشاح برأسه جانباً ودمعتان ساختان تسيلان من ركني عينيه، قبل أن يهمس: «بل وحدي تمامًا!». ثم همس بكلمات أخرى، قبل أن يشتعل المصباح من جديد وتراقص النيران، فسمع في ركن مظلم من عقله صوتاً كفحيح غاضب.

وقع بصره على فاكهة القمر التي تركها له الحطاب كي يتناولها من أجل العشاء، ولكنه لم يشعر بشهية حقيقية، رغم أن آخر ما أكله كان الخبز والخبز هذا الصباح.

كل ما يحتاج إليه في هذه اللحظة هو النوم، ولكنه كان عصياً عليه، رافضاً أن يقترب من عينيه. راح يتقلب على الفراش وهو يحاول النوم، وظن أن الأرق سيرافقه حتى الصباح، ولكن في النهاية جاء النوم.

في لحظة كان في عالم اليقظة، وفي الأخرى صار في عالم الأحلام، وكان حلمًا غريبًا لا يشبه أي شيء رآه في حياته.

كان يمشي في شارع واسع، تتراص المباني الحجرية على جانبيه، مبانٍ شاهقة الارتفاع وأسوار وقباب، معظمها أبيض اللون، ولكن يتخللها اللون الذهبي، وترتسم عليها نقوش مألوفة بالنسبة له. كانت الشمس مشرقة، والجو مشبع برائحة جميلة أشبه برائحة الورود والأشجار الخضراء.

كان هناك أناس في كل مكان، يرفلون في ثياب بيضاء وفضية وذهبية، يمشون في تودة، أو يملقون في الهواء بأجنحة بيضاء، أو يطفون في الهواء بدون مساعدة، والجميع تحف وجوههم السكينة.

أحس كأنها ينتمي إليهم، فرفع يده وحاول أن ينادي عليهم، ولكن لم يخرج صوتاً من حلقه، ولم يبدُ أن أيًا منهم يلتفت إليه أو يشعر بوجوده.

أطرق بارسينو ببصره في حزن، ليتأمل الأرض المرصوفة بأحجار ملساء جميلة، قبل أن يرفع رأسه ليحاول النداء مرةً أخرى، ولكنه تجمد في دهشة.

لقد اختفى الجميع، لم يعد هناك أحد سواه هو والمباني الصخرية الصامتة التي بدت مهجورة في هذه اللحظة. أحس بالوحشة تملأ قلبه، وفجأة ظهرت شقوق سوداء في المباني البيضاء، راحت تتسع وتكبر، بينما المباني تتصدع وتتهدم، وكل شيء أمامه يتحول إلى أطلال، والظلال السوداء تغطي كل ما حوله.

ثم أظلمت السماء، وتوسطها قرص أحمر مخيف، بينما أفعوان أسود عظيم يعلو من بين الأطلال، ويحدق إلى بارسينو بعينين حمراوين، وهو يحرك لسانه المشقوق.

تجمد بارسينو في رعب، محدقاً إلى هذا الشيء المظلم المرعب.

وفجأة انقض الأفعوان الأسود ناحيته، فتجمد بارسينو في موضعه منتظراً أن يلتهمه هذا الوحش العظيم. ولكن بدلاً من هذا ارتطم الأفعوان بجسده وأحس أنه يخترقه، كثعبان يزحف إلى جحر بسرعة كبيرة. لم يعرف كيف استطاع جسده الضئيل استيعاب هذا الوحش الضخم، ولم يستطع أن يتحرك حتى اختفى آخر جزء من الوحش بداخله.

رفع يديه في عدم تصديق، فشاهد العروق السوداء تجتاحها كالشقوق السوداء في المباني البيضاء، وفي هذه اللحظة عاد إليه صوته، فوجد نفسه يصرخ.

انتفض بارسينو في موضعه، بأنفاس لاهثة، والعرق يتصبب من جسده بغزارة. تلفت حوله، فوجد أنه لا يزال في الحجرة الصخرية وحده. حاول أن يتذكر ما كان يحلم به، ولكن ما تذكره جعل جسده يرتجف. نفص الفكرة عن رأسه وحاول أن يعود إلى النوم، ولكنه في هذه اللحظة أحس أنه يخشى النوم بقدر خشيته اليقظة. عاد إليه المزيد من اللمحات من حلمه، ثم راودته فكرة غريبة، شعر أن المكان الذي رآه في حلمه هو مملكة لينوريم القديمة، فتعجب من هذه الفكرة.

مضى الوقت بطيئاً حتى انفتح الباب مرة أخرى وجاء الخطاب من جديد. تظاهر بارسينو بالنوم حتى اقترب الخطاب وأشعل المصابيح ثم حاول إيقاظه، ففتح عينيه ببطء. تلفت أوركين حوله، ثم قال: «يبدو أنك لم تتناول شيئاً من الفاكهة بالأمس، ولكن لا بأس، لقد أحضرت لك شيئاً أفضل».

ثم أخرج من سلته خبزاً ولحماً مشويًا، فعبقت رائحة الشواء المكان. قال له أوركين: «لقد شويت اللحم بنفسني هذا الصباح، وجئت لكي أفطر معك».

ابتهج بارسينو قليلاً، وعاد إليه شيء من شهيته، فجلس يتناول الطعام بصحبة أوركين، الذي ألقى بقطعة من اللحم إلى برق فراح يتناولها في سعادة.

وبينما يتناولون الطعام قال بارسينو مخاطباً أوركين: «هل يمكن لشخص أن يرى الماضي في أحلامه؟». نظر إليه أوركين للحظة، ثم قال: «الزمن تيار متدفق، منذ أن أشرق أول نور على هذه الأرض، حتى يتلاشى آخر نور، ونحن جميعاً نسبح مع التيار، ولا نرى إلا ما هو تحت أنوفنا. ولكننا جميعاً نحمل في نفوسنا شيئاً من هذا النور الأول. يقال إن أبناء النور جميعاً كحبات خرز مربوطة في عقد واحد. لم يحدث هذا معي من قبل، ولكنك قد ترى شيئاً رآه واحد من أبناء النور في زمنٍ ماضٍ». ثم صمت قليلاً، قبل أن يسأله: «ما الذي رأيته في حلمك؟».

فكر بارسينو في حلمه هنيهة، ثم قال بابتسامة شاحبة: «رأيت مملكة بيضاء يعمها السكينة والسلام. أتعرف؟ أتمنى لو أنني عشت في زمن كهذا». ثم شرد بعينه، مفكراً في الجزء الأول من حلمه، محاولاً أن يتجاهل نهايته التي قرر ألا يذكرها للخطاب.

قال الخطاب: «الزمن يتعاقب كتعاقب الليل والنهار، وهذا العصر الذي رأيته سيعود يوماً ما». تنهد بارسينو وقال: «أتمنى هذا».

لم يشعر برغبة في الخروج برفقة الخطاب هذا اليوم، ولكنه في الوقت ذاته كان يخشى البقاء وحيداً مختلياً بأفكاره، فقرر الخروج في نهاية المطاف، ولكنه لم يتدرب على شيء هذا اليوم، واكتفى بمساعدة الخطاب في تقطيع الحطب الذي تحتاج إليه القرية.

مر عليه المساء كئيباً طيلة الأيام التالية، ما بين الهمسات التي تزداد حدة، والأفكار المظلمة التي تحاول إحكام قبضتها على عقله، وفي النهاية أحس برغبة في الانفجار، لم يعد قادراً على التحمل. في اليوم السابع من نفيه، كان في مقر الخطابين، يحاول النوم، عندما غلبته الهمسات، التي لم يقدر على كبح جماحها. قال لنفسه: إنه يدعوني إليه! وفي ثورة من الغضب راودته فكرة مجنونة.

حمل بارسينو فأسه، وبحركة عنيفة من يده انفتح الباب الصخري، ثم خرج من مقر الخطابين، وخطا عبر الغابة، متجاهلاً الأشياء الصغيرة التي تزحف وتختبئ من حوله. أخذته قدماه إلى مكان يعرفه جيداً، فوجد نفسه يقف أمام معبد الشمس، وبعض الأجراس ترن بصوتٍ خافت في سكون المساء مع حركة الهواء الطفيفة.

تردد بارسينو، وفكر في العودة، ولكن الصوت صاح في عقله: تعال إليّ. حسم بارسينو أمره، ثم خطا عبر الممر الصخري، بخطوات يتردد صداها في أذنيه، حتى وصل إلى القاعة الحجرية، ثم رفع نظره إلى كرة الضوء، فأراها تنبض بينما صوت بهموت يتردد في القاعة الحجرية: «لقد جاء الوعاء إليّ أخيراً».

صاح بارسينو: «ما الذي تريده مني؟».

قال بهموت بصوت عميق: «أريدك أن تكون أقوى شخص في هذا الكون، أليس هذا ما تريده أنت؟». رفع بارسينو رأسه عالياً وهو يصيح: «بل كل ما تريده أنت هو أن تتخلص من سجنك هذا!». ضحك بهموت ضحكة جمدت الدماء في عروق بارسينو، ثم قال: «سأتخلص من سجنني عاجلاً أو آجلاً، وحطابك العجوز يعرف هذا. ولكني أريدك أن تكون كما كان أسلافك من قبل، أوعية لآلهة الظلام». هز بارسينو رأسه وقال: «أبناء النور لم يكونوا...».

قاطعه بهموت بضحكته المدوية، قبل أن يقول: «أنت تعرف أن أسلافك ليسوا أبناء النور، بل أبناء الظلال. هل ما زلت مصرّاً على تصديق أكاذيب الحطّاب؟».

قال بارسينو في عناد: «لا، ليست أكاذيب». ولكن صوته جاء ضعيفاً.

قال بهموت: «انظر إلى نفسك، الأمهق كما يسميك من تظنهم أبناء جلدتك. أبيض الشعر، أبيض البشرة، وفي داخلك قوة مذهلة لم يحظّ أبناء النور بمثلها».

صمت بارسينو لبضع لحظات، ثم حاول أن يعترض، أو أن يتراجع للوراء، ولكنه لم يقدر على الكلام أو الحركة.

قال بهموت بصوت كالفحيح: «هذا هو قدرك، أن تكون الوعاء المثالي، أن أعود من خلالك إلى العالم».

قال بارسينو كلمة واحدة: «لا!». ولكن صوته جاء مرتجفاً رغماً عنه.

قال بهموت وألسنة من الظلال تتسلل من شقوق كرة الضوء: «أنت تخاف على قاطني القرية رغم كل ما لقيته منهم. تذكر كراهيتهم لك، خوفهم منك، تذكر ما فعلوه بك بعدما أنقذتهم».

اقتربت ألسنة الظلال منه ببطء كأهداب مظلمة، وفجأة رفع بارسينو عينيه، وفأسه يتوهج بالضوء الأحمر، ثم قال في غضب: «أنت تحاول خداعي!».

تراجعت الظلال إلى الكرة على الفور، بينما قال بهموت: «تذكر كل ما قتلته لك من البداية، أنا فقط الذي لم يكذب عليك من بين الجميع، لم أخدعك مثلما حاول أن يفعل الحطّاب أو العمدة، فكر جيداً».

أطرق بارسينو برأسه مرة أخرى، وانطفأ الوهج من فأسه.

بدأت الظلال تتسلل مرة أخرى، وبهموت يقول بصوت أحس أنه يدغدغ عقله: «سيكون النصر لي في النهاية مهما طال الزمن. لقد انتظرت لقرون، ولن يضيرني الانتظار لبضع سنوات أخرى، ولكنني أعرض عليك أن تشاركني نصري، أن نجعلهم يدفعون الثمن».

رفع بارسينو عينين زائغتين، وقال في شرود: «أجل، يدفعون الثمن». وفي أعماقه أحس بكراهية عميقة تغمر قلبه، بينما الندبة في صدره تنبض بقوة.

قال بهموت بصوت هامس كالفحيح: «أجل، سننتقم».

وفي هذه اللحظة بدأت الظلال تغلف بارسينو، وتسحبه لأعلى ببطء، ناحية كرة الضوء التي راحت تنبض في عنف وحاس.

## الفصل السادس والعشرون

### سجن الظلام

فتح أوركين الباب الصخري المؤدي إلى مقر الخطّابين وهو يلوح بيده لكي يشعل الضوء، ثم تجمد في موضعه... لم يكن بارسينو موجودًا بالداخل.

عقد حاجبيه، ثم نظر إلى برق وسأله: «أين هو؟». لم يكن يتوقع إجابة ولكنه فقط يشعر بحيرة شديدة في أعماقه.

لمّ قد يخرج بارسينو وحده إلى غابة الظلال؟ على الفور عاد أدراجه مغلقًا الباب وراءه، ثم أسرع عبر الغابة محاولاً أن يتحسس موضع بارسينو مستخدمًا سحر الأطلال.

لم يعثر له على أثر، ولكنه أحس بنشاط غريب في معبد الشمس. تسارعت نبضات قلبه، وسرت قشعريرة في جسده، ثم بدأ يمشي متوجّهًا ناحية المعبد، ناحية سجن بهموت.

راح يلوم نفسه: ما كان عليّ أن أتركه وحده! ولكن ما حدث قد حدث، عليه الآن أن يجد بارسينو. أحس أوركين بالطاقة المنبعثة من المعبد تتزايد وهو يخطو عبر الباب الصخري، حتى وصل إلى القاعة التي تحوي كرة الضوء، وهناك وقف في ذهول محققًا إلى الكرة.

كان هناك عروق سوداء نابضة على سطحها، كأنها عروق سوداء على جلد ناصع البياض، لم ير شيئًا كهذا طيلة حياته.

نادى أوركين بأعلى صوت لديه: «بارسينو!». ولكن لم يجبه سوى تردد صدى صوته، ونباح الكلب وهو ينظر إلى كرة الضوء في توجس.

نادى بضع مرات، ثم صرخ: «أين بارسينو يا بهموت؟!». ومرة أخرى لم يجبه سوى صدى صوته، والصمت المطبق الذي تلاه.

كان يشعر بوجود بارسينو بشكلٍ مبهم، رغم غرابة الفكرة، فقال لنفسه بصوتٍ عالٍ: «يجب عليّ أن أحرره».

ثم أمسك بالفأس وراح يتمتم بكلمات قديمة، فتوهج فأسه بالضوء الأحمر، وكذلك بعض الطلاسم على الأرض حول قدميه. ثنى الحطّاب ركبتيه قليلاً، ثم قفز لأعلى قفزة عظيمة، جعلته يصل إلى كرة الضوء، ثم هوى عليها بفأسه وهو يصرخ.

اصطدم النصل بالكرة، فتناثرت بضع شرارات زرقاء، قبل أن يرتد أوركين للوراء، ويهوي لأسفل. ارتطم بالأرض الصخرية بقوة، فراحت عظامه تتن. تلاشى الوهج الأحمر من فأسه ومن الطلاسم، بينما يرفع عينيه لأعلى في حزنٍ وألم.

قال بهمس: «بارسينو!». ثم أطرق برأسه أرضاً وهو يقول: «فات الأوان!».

\*\*\*

كان بارسينو نائمًا، والظلام يحيط به من كل جانب. لا أرض ولا سماء ولا نور، بل ظلمة لا نهائية تمتد من حوله. ومع ذلك كان مستلقيًا، يضم ركبتيه إلى صدره ويحيطها بذراعيه، بينما يضع إبهامه في فمه.

كان يشعر بسكينة غريبة، سكينة لطالما اشتاق إليها. بدا جانب التل وقاطنوه أبعد ما يكون عن عقله وقلبه، لا يشعر ناحيتهم بشيء، لا حب ولا كراهية، وقد أراحه هذا كثيرًا. فجأة سمع صوتًا ينادي باسمه، صوتًا مألوفًا، ولكنه بدا كأنها يأتي من مكان بعيد للغاية، من أغوار سحيقة. ارتجف بارسينو قليلاً، لا يريد لأي شيء أن يتزعه من سكينته. تكرر الصوت بضع مرات، قبل أن يتلاشى تمامًا، فتنهد في ارتياح. أحاط به الهمس: قريبًا سيكون الوعاء جاهزًا لكي يمشي الظل على الأرض مرة أخرى. ولكن هذا الهمس سرعان ما تلاشى بدوره، ولم يعد هناك شيء سوى الظلام، والصمت، والسكينة.

\*\*\*

عاد أوركين إلى جانب التل وهو يصيح: «لقد اقترب الخطر، وأوشكت النهاية، وسيؤدي بنا عنادكم إلى الهلاك!». لم يكن يخاطب شخصًا بعينه، بل بدا كأنها يكلم نفسه. لم يجرؤ أحد على الاقتراب منه، حتى حرس العمدة بدوا مضطربين وهم ينظرون إليه. «لقد ضاع بارسينو، وسيضيع معه جانب التل بعنادكم. ستكون نهايتكم جميعًا!». هكذا راح يصرخ وكلبه يركض ويتقافز من حوله في تحفز. بدأ الناس يتبادلون الهمسات، ثم أسرع بعض الحرس لإخبار العمدة، بينما بعض القرويين يتعدون عنه تفاديًا لما قد يحدث من متاعب، ولكن أوركين لم يلتفت إلى أحد منهم. واصل أوركين سيره متسلقًا جانب التل، وصاعدًا الدرجات الصخرية، وهو يصرخ منذرًا من أن لآخر. حتى وصل إلى قمة التل، فجلس هناك أمام بيته بين الأطلال، واضعًا رأسه بين يديه، وقد بدا عليه أنه قد ازداد عمرًا فوق عمره.

بدأ بعض الناس يتجمعون بالقرب من قمة التل، تاركين مسافة كافية بينهم وبين الحطاب وكلبه الأسود، محاولين الإصغاء إلى المزيد من همماته، ولكنه في هذه اللحظة لم يكن صوته مسموعًا، إلا من تمتات غير مفهومة.

لم يمض وقت طويل حتى كان الناس يفسحون الطريق من أجل حرس العمدة، ومن ورائهم العمدة وحاجبه، حتى وقف أمريد وأوثار أمام الحطاب العجوز مباشرة.

رفع أوركين عينين غاضبتين، وحدث إلى أمريد، الذي قال له برود: «ما الذي حدث أيها الحطاب؟». لم يجبه أوركين فقال في حنق: «لم تصر على إثارة خوف الناس؟ أما زلت مصرًا على ترويعهم لكي يقبلوا بخططك الحمقاء بالرحيل عن جانب التل؟».

نظر إليه أوركين في مزيج من الغضب والأسى ثم قال: «لقد فات أوان الرحيل، فات أوان كل شيء». ثم وضع وجهه بين كفيه وقال في حزن عميق: «لقد ضاع بارسينو».

بدا على أمريد الدهشة من رد أوركين، ثم نظر إلى حاجبه فقال أوثار: «إن كانت الظلال قد التهمتته فهذا هو المصير الذي يستحقه».

اشتعلت عينا أوركين بالغضب، أراد أن يصرخ فيه، ولكنه أحس أنه لم يعد يملك ما يكفي من الطاقة لكي يصرخ فاكتفى بالتحديق غضبًا.

كان الناس لا يزالون يتقاطرون ناحية قمة التل، فجاء طابيو صاحب الحانة بصحبة ابنته كينورا، وجاء أكينو بصحبة السيد أسيمار وعدد من المزارعين وجميعهم متأهبون ويحملون الفؤوس، ولأول مرة منذ زمن بعيد، ولعله منذ أن أقيمت قرية جانب التل، يجتمع مثل هذا العدد الكبير بالقرب من قمة التل.

جميعهم يبدوون متهيئين، وهم يحدقون إلى الأفق وراء الجانب الوعر من التل، وأشجار غابة الظلال التي تبدو بلا نهاية.

ثم ظهرت الجدة أوريتا، تمشي متوكئة على العصا بيد، ويدها الأخرى يمسك بها أحد شباب القرية لكي يساعدها على المشي.

بدت متعبة للغاية، ولكنها واصلت المضي قدمًا في تصميم، وعندما اقتربت صاحت بصوتها العجوز المتعب: «أين حفيدي يا أوركين؟ أين باري؟». ثم أضافت بنبرة عتاب: «لقد وعدتني أنه سيكون بخير».

هز أوركين رأسه وقال: «لقد ضيعنا أمريد، ضاع جانب التل بسبب عناده». بدأت الهمسات تتصاعد من قاطني القرية، واكتسب بعضهم شيئًا من الجرأة لكي يقترب أكثر من الحوار الدائر.

صاح أمريد: «صمتًا!». فسكنت الهمسات.

تبادل أكينو وكينورا النظر، وبدا على كليهما الاستياء.

قالت أوريتا في حزن: «أعد لي باري يا أمريد!».

قال أمريد بفظاظة: «كنت تعرفين أن هذا سيكون مصير حفيدك، منذ أن ولد هذا ال... الوحش».

نظرت إليه أوريتا في دهشة، ثم تحولت الدهشة إلى غضب وهي تقول: «باري ليس وحشًا، بل أنت الوحش، جميعكم كنتم وحوشًا حين نبذتموه وهو طفل لا يعي شيئًا».

ثم تلفتت بين الحضور حتى رأت السيد نيربو وهو يقف بين الجموع يصغي السمع، فأشارت ناحيته بإصبعها وقالت: «أنت يا نيربو! لطالما اعتنى بقطعانك، ورضي بأجرك الزهيد، وكيف كنت ترد الجميل؟ بمعاملته بقسوة وفظاظة!».

أطرق نيربو برأسه خجلًا، فنظرت إلى طابيو وقالت: «وأنت يا صاحب الحانة، لطالما منعت ابني عن حانتك».

تمتم طابيو قائلاً: «ولكنه قد أتى مرات عديدة رغبًا عن أنفي». قبل أن ينظر ناحية أوركين في غيظ.

قالت كينورا في أسى: «نحن جميعًا قد كسرنا قلبه. حتى أنا كسرت قلبه دون أن أقصد هذا».

قال أكينو في خجل: «حتى أنا من ظننت أنني صديقه المقرب، لم أكن نعم الصديق، ولكني...». ثم نظر ناحية العمدة وقال: «لقد حاولت حمايته حتى النهاية».

تلفت أمريد حوله ناظرًا إلى وجوه الناس، ثم قال في صرامة: «لا يجدر بكم التعاطف معه، جميعًا رأينا الوحش الذي صار عليه ليلة الاحتفال الكبير».

صاح أوركين: «لولا هلكتم جميعًا!». ثم نظر ناحية الأفق وعاد الحزن إلى عينيه وهو يقول: «ولكن ما الفائدة؟ جميعنا سنهلك على أي حال».

زفر أمريد، ثم قال: «لا فائدة من كلامك هذا أيها الخطّاب». ثم صاح في الناس: «لا يوجد شيء لتقلقوا بشأنه، فليعد كل واحد منكم إلى عمله أو إلى بيته». قبل أن يومئ إلى حرسه بنظرة ذات مغزى.

دفع الحرس الناس بفظاظة لكي يتفرقوا، فبدأوا ينزلون على جانب التل متفرقين إلى مسارات شتى، حتى لم يتبق سوى عدد قليل على قمة التل، فألقى أمريد نظرة أخيرة على الخطّاب، قبل أن يقول لأوثار: «هيا بنا». وبدأ في المشي مبتعدًا بصحبة من تبقى من رجاله.

قال طابيو مخاطبًا ابنته: «هيا بنا يا كينورا».

ولكنها اقتربت من الخطّاب وقالت في حزن: «أين بارسينو؟».

وقال له أكينو في قلق: «أين باري؟».

وقالت أوريتا في جزع: «أين حفيدي يا أوركين؟». نظر أوركين إليهم جميعاً بعينين زائعتين، ثم قال في أسى: «ليتني أعرف!».

\*\*\*

انكمش بارسينو على نفسه في الظلام، ومن حوله ظهرت أشكال باهتة، أوريتا، كينورا، أكينو، أوركين، جميعهم يهمسون باسمه فيتردد صدى همساتهم، ثم تتموج هيئاتهم وتتلاشى وتظهر هيئات أخرى، تنطق باسمه بكرهية في همسات كالفحيح.

راح بارسينو يتلوى في اضطراب، إنه لا يريد سوى السكينة والسلام، يريد الصمت الدائم، أن يظل نائمًا فلا يوقظه أحد.

قال الهمس: لا تقلق، لن يصلوا إليك، أنت معي هنا بأمان.

ثم تموجت كل الهيئات قبل أن تتلاشى تمامًا، ويخيم الصمت المطبق من جديد، والظلام... الظلام الدامس.

\*\*\*

في اليوم التالي خرج أوركين من بيته، واكتفى بالجلوس على قمة التل، محددًا ناحية غابة الظلال، وكلبه الأسود رابض إلى جواره. لم يذهب لجلب الحطب، وقال لنفسه في سخرية مريرة إن قاطني القرية لديهم ما يكفيهم من الحطب لعدة أيام، وبعدها لن يكون أي منهم بحاجة إلى الحطب. أصابته الفكرة بالمزيد من الوجوم، ولكنه لم يتحرك من موضعه. لم يشعر حتى بخطوات الأقدام التي تقترب منه حتى رأى أكينو وكينورا واقفين أمامه.

رفع عينيه إليهما في تساؤل، فقال أكينو بحزم: «نريد الذهاب للبحث عن بارسينو!».

هز الحطاب رأسه وقال: «لا فائدة من البحث، لن تتمكننا من الوصول إليه. إنه في مكان لا يمكن لأحد الوصول إليه».

قالت كينورا في دهشة: «لم تقل إنك لا تعرف مكانه».

صمت قليلًا ثم قال: «إنه في عالم الظلال».

امتزجت الحيرة بالخوف على وجه كينورا، بينما اتسعت عينها أكينو في دهشة، ثم قال له: «ما الذي يعنيه هذا بحق الأفلاك؟».

أطرق أوركين برأسه وقال: «يعني أن هناك شراً عظيمًا على وشك أن ينحل من عقاله، شرًا لا قبل لنا بمواجهته».

نظرت كينورا ناحية غابة الظلال في رعب، ثم نظرت ناحية أكينو الذي قال في حيرة: «لم أنت مستسلم هكذا يا رجل؟ لم أعهدك هكذا، لطالما كنت عنيديًا كالصخرة، أو هذا ما سمعته عنك على الأقل».

أما كينورا فقالت في عتاب: «لو كان بارسينو في موضعك لما تخلى عنك، ولما ارتاح له بال حتى ينقذك من أي خطر تكون فيه».

أحس الحطاب بشيء من الخجل، ثم قال في نبرة خافتة ضعيفة: «لقد حاولت وفشلت».

صاح أكينو: «فلتحاول مرارًا وتكرارًا إذن، سنحاول معك».

ولكن أوركين هز رأسه وقال: «لا فائدة من المحاولة، لقد ضاع كل أمل».

خطأ أكينو بضع خطوات وهو يقول في عناد: «سأبحث عنه وحدي إذن!».

قالت كينورا: «انتظر، سآتي معك». رفع الخطاب رأسه وقال: «انتظرا! لا فائدة مما تفعلانه!». التفتا إليه، وقال أكينو في حزم: «لا تحاول منعنا». قال أوركين: «إن خطوتما خطوة واحدة في غابة الظلال فلن يعود أيُّ منكما حيًّا، هل هذا ما يريده بارسينو؟».

قال أكينو في حيرة واستسلام: «ماذا نفعل إذن؟». قال أوركين: «نتنظر، فقد يأتي الحل من السماء». تفحصه أكينو بحثًا عن أي شيء يشي بالسخرية في صوته أو ملامحه، ولكنه كان جادًا تمامًا. قالت كينورا في حزن: «لا أتحمّل فكرة البقاء والانتظار بينما بارسينو في خطر». تنهد أوركين ثم قال: «كلاكما يشعر بالذنب تجاهه، يمكنني الإحساس بهذا، ولكن صدقاني لا يمكن لأي منا أن يفعل شيئًا لمساعدة بارسينو الآن». ثم نظر الخطاب ناحية القرية الممتدة على جانب التل، قبل أن يقول: «إن كنتما تريدان فعل شيء مفيد، فاذهبا لمواساة أوريتا. المسكينة قلبها مفطور». قال أكينو: «ولكن بارسينو...».

قاطعه أوركين قائلاً: «لا يمكن لأحد أن يساعد بارسينو سوى بارسينو نفسه». عقد أكينو حاجبيه، وأحس أن العجوز يتحدث بالألغاز مرة أخرى. كان على وشك أن يقول شيئًا ما، ولكن كينورا جذبت من يده وهي تقول: «هيا بنا فلنذهب إلى الجدة أوريتا».

تنهد أكينو وقال: «لا أعتقد أنني الشخص المناسب لمواساة الجدة أوريتا، لطالما اعتقدت أنني من يجير بارسينو إلى المتاعب». ثم شرد بصره كأنها ينظر إلى ذكرى بعيدة، قبل أن يقول لها: «ولكنك محقة، هيا بنا». راقبها أوركين وهما يتبعان، ثم عاد لينظر ناحية غابة الظلال وهو يمسد ظهر قلبه، بينما عقله غارق في الأفكار.

\*\*\*

استيقظ أوركين وهو يشعر بالضعف، والرغبة في ألا يغادر الفراش. بذل مجهودًا كبيرًا لكي يعتدل في فراشه، قبل أن يأخذ نفسًا عميقًا، ويمد قدميه ليتنعل نعله الجلدي، ثم مشى ناحية ردهة البيت. كان برق مستلقيًا أمام المدفأة، وما إن رآه حتى راح ينبج في حماس.

هز أوركين رأسه وقال: «ليس اليوم يا برق، لن نذهب إلى غابة الظلال». أطرق برق برأسه وهو يعوي بصوتٍ خافت في احتجاج، فتنهد أوركين وقال: «حتى أنت تلومني يا صديقي. صدقني لا شيء بيدنا يمكننا أن نفعله».

أعد لنفسه كوبًا ساخنًا من نبتة جذور الشمس، وتناول شيئًا من الطعام رغم أنه لم يشعر بشهية حقيقية، وبعدها خرج من بيته ليجلس على قمة التل ويحدق ناحية القرية، قبل أن ينظر ناحية غابة الظلال. لا يزال هذا الشعور المقبض يعتصر قلبه. أحس أن القرية مظلمة أكثر من المعتاد، وأن الدرع السحري المتلألئ الذي يحيط بالقرية أقل سطوعًا. تذكر بارسينو وهو يسميه التلألؤ العجيب، فامتلاً قلبه بشعور دافئ بدد شيئًا من البرودة فيه.

نظر ناحية القرية الممتدة على جانب التل مرةً أخرى، ثم عقد حاجبيه، لقد أدرك لماذا تبدو أكثر ظلمة. كان هناك ضباب شاحب يطفو عبر شوارع القرية، فيتموج ويتداخل، ويكتسب أشكالاً مبهمه، قبل أن يتبدد، وبعد لحظات يظهر من جديد في مكان آخر، كحيوان ضال يبحث عن طريقه.

امتدت يده بشكل غريزي إلى فأسه الموضوع على الأرض إلى جواره، ثم سحبها مرة أخرى، على الأرجح لا يمكن لأحد أن يرى هذا غيره، ولكنه أمر لا يبشر بخير على أي حال!  
قرب الظهيرة اعتلت الشمس عرش السماء، وألقت بشيء من الدفء على القرية، ولكنها لم تبدد هذا الضباب.

انتبه فجأة إلى شخص يصعد جانب التل؛ أكينو، وقد جاء وحده هذه المرة.  
كان القلق بادياً على قسما الشاب، وتأهب أوركين لإجابة سؤال آخر عن بارسينو، ولكن أكينو قال له دون مقدمات: «القرية تموج بحالة من القلق».

عقد أوركين حاجبيه وهو يسأله في اهتمام: «ماذا حدث؟».  
قال أكينو وهو ينظر ناحية القرية: «الناس يشكون من رؤية أشياء عجيبة، حشرات سوداء غريبة الهيئة، ومخلوقات تشبه فئراناً صغيرة، تخرج من شقوق مظلمة في البيوت، وتختفي مرة أخرى. حتى السيد أسيمار قد رأى بعض الحشرات الغريبة تجري في ظلال بعض النباتات ما بين الجذور المتشابكة. عندما يتمكن أحد القرويين من قتل شيء من هذه الأشياء المظلمة فإنه يتبخر ويتلاشى».

نظر أكينو إلى الخطاب وهو يتوقع أن يقدم له إجابة ما، ولكن أوركين اكتفى بالصمت.  
بعدها تعب أكينو من الانتظار قال: «الناس يشعرون بالفرع، وقد ذهب بعضهم بالفعل ليشتكي إلى العمدة. جئت على أمل أن يكون لديك حل. أخشى أن الأمر قد يكون خطيراً».

تنهد أوركين ثم قال: «الأمر خطير بالفعل، وقد يكون أخطر مما تتصور».  
اتسعت عينا أكينو خوفاً، ثم قال بنبرة وجلة: «وما العمل إذن؟».  
اعتدل أوركين واقفاً وهو يقول: «ألم تسمع ما قلته بالأمس يا فتى؟ لقد فات الأوان، لا يوجد شيء لنفعله الآن سوى الانتظار».

ثم استدار على عقبيه وبدأ يمشي ناحية بيته بينما كلبه يتبعه. راقبه أكينو حتى اختفى داخل بيته، ثم التفت لينظر ناحية القرية وقد أحس بقلبه ينقبض.

\*\*\*

في المساء اعتلى القمر الأفق، شظية فضية رفيعة مقوسة، لا تكاد تلقي إلا القليل من الضوء الشاحب على القرية الناعسة. وفجأة تعالت صرخة من مكان ما في جانب التل، تلتها بعض الصرخات المتفرقة، وصل بعضها إلى أوركين في بيته، فخرج على الفور حاملاً فأسه وحدث ناحية القرية.

رأى بعض المشاعل تتحرك هنا وهناك، والناس يتبادلون الصياح، كأنها يبحثون عن شيء ما. ضيق عينيه وهو ينظر إلى الضباب الذي يراه ولا يرويه، يحوم من حولهم ويتفادى ضوء المشاعل.  
تنهد وهو يعود إلى البيت بينما يقول لنفسه: ليس بالقوة الكافية بعد.

\*\*\*

في الصباح التالي جاء زائر آخر للخطاب، ولكنه لم يكن أكينو هذه المرة، بل كان العمدة أمريد نفسه، بصحبة حاجبه أوثار وبعض رجاله، وقد لاحظ أوركين أنهم يحملون السيوف. وقف الحرس على مسافة

بعيدة يتلفتون حولهم في حذر وتوتر، وأيديهم على مقابض سيوفهم، كأنها يبحثون عن شيء خفي.  
قال العمدة مخاطبًا الخطاب: «أسمعت بما يجري في القرية يا أوركين؟».  
ابتسم أوركين ابتسامة ساخرة شاحبة وقال: «ما الذي يجري؟».  
قال أمريد في وجل: «الناس يشتكون من رؤية مخلوقات غريبة، يبدو وكأنها مخلوقات من ... ظلال». نطق  
الكلمة الأخيرة وكأنه يشعر بطعم كراهه في فمه، ثم نظر ناحية حرسه، قبل أن يقول بصوت خفيض: «حتى  
إنني رأيت بعضها في بيتي».  
قال أوركين بلا اكتراث: «خمنت أن شيئاً كهذا قد يحدث».  
نظر إليه العمدة في ريبه، ثم سأله بنبرة حازمة: «هل لك يد فيما يحدث أيها الخطاب؟».  
حدجه أوركين بنظره وقال: «أنا لم أعادر قمة التل منذ بضعة أيام».  
تساءل العمدة: «وهذا هو الغريب! لم لا تذهب وتجلب الحطب كعادتك؟».  
أجابه أوركين بصرامة: «أليس لديكم ما يكفي؟ على أي حال قريباً لن تحتاجوا إلى شيء».  
قال أمريد في سخط: «كف عن الحديث بالألغاز يا أوركين وأخبرني ما الذي يجري حقاً».  
قال له أوركين وهو ينظر ناحية الأفق: «أعتقد أنك تعرف ما الذي يجري حقاً، لقد اقترب كسوف  
الشمس».

قال له أوثار: «ولكن هذا ليس أول كسوف للشمس تواجهه القرية، فما الذي تغير؟».  
قال أوركين مخاطبًا الحاجب: «لقد تغير الكثير». ثم نظر ناحية أمريد وقال: «لقد فات أوان الحديث، كنت  
تصم أذنيك طيلة هذه السنوات، والآن تسأل ما الذي يجري؟».  
لوح العمدة بإصبعه منذراً: «إن كانت هذه حيلة أخرى من حيلك لجعل الناس يرحلون عن...».  
قاطع الخطاب في غضب: «أترى؟ ما زلت مصراً على نفس حماقتك!».  
احتقن وجه أمريد، وبدا الضيق على وجه أوثار، بينما أحاط بعض الحرس مقابض سيوفهم بأصابعهم،  
ولكن العمدة قال بكبرياء: «سنرى من الأحمق أيها الخطاب». ثم ضم عباءته إلى جسده ودار على عقبيه  
مبتعداً بصحبة رجاله.

\*\*\*

استيقظ أوركين على نباح برق، فتململ في فراشه، قبل أن يفتح عينيه وهو يقول: «ما الأمر يا برق؟».  
ولكن الكلب لم يتوقف عن النباح، فاعتدل أوركين في فراشه في قلق، وعلى الفور أسرع خارجاً من البيت  
لينظر ناحية الأفق، ثم أحس بقلبه يهوي بين ساقيه، لقد اختفى الحاجز السحري تماماً، وازداد الضباب الذي  
يخيم على القرية كثافة.  
نظر ناحية غابة الظلال، وهو يشعر بالطاقة المنبعثة من معبد الشمس، من كرة الضوء النابضة بداخلها،  
لقد بدت كشرنقة على وشك أن تتشقق، فارتجف جسده لهذه الفكرة.  
قال الخطاب وهو ينظر إلى برق: «يبدو أن الأوان قد آن يا صديقي».  
نبح الكلب كأنها ليشاركه قلقه، ثم نظر الخطاب وقلبه ناحية القرية الممتدة على جانب التل. كان هناك  
صرخات متعددة في القرية، لم يستطع تمييز الأمر تماماً من حيث يقف، ولكن بدا كأن مخلوقات سوداء تلاحق  
الناس في القرية وهم يحاولون صدها في فزع؛ بعض الحرس يحملون سيوفاً وهراوات، ومزارعين يحملون  
فؤوسهم، والفوضى العارمة تحتاج القرية بأسرها.

عقد أوركين حاجبيه ونظر ناحية السماء، كانت الشمس قد اعتلت الأفق، ولكنها كانت شاحبة، ثم قال في قلق كأنها يخاطب نفسه: «اليوم هو يوم المحاق». وعاد عقله إلى ذكرى بعيدة قبل ثمانية عشر عامًا، عندما حدث خسوف القمر، وبعدها بأسبوعين، يوم المحاق...  
وفجأة تصاعد الضباب كثيفاً من غابة الظلال، ضباب أسود بدا أنه يحاوط الشمس ويخنقها، فاكتمت الشمس بحمرة داكنة، بينما طاقة عظيمة تنبعث من داخل الغابة.  
قال الخطّاب بصوتٍ مرتجفٍ: «كسوف الشمس!».  
ثم تعالت صرخات ألم ورعب من القرية.

## الفصل السابع والعشرون

### كسوف الشمس

نبضت العروق السوداء بجنون، ثم تشققت الكرة البيضاء وبخار داكن كثيف يتصاعد منها، حتى لم يتبق سوى كتلة من الدخان الأسود، تلاشت ببطء لتكشف عن بارسينو معلقاً في الهواء. كان جسده الأبيض مليئاً بعروق سوداء، وعيناه تشعان بلون أحمر، وهو يمسك بفأسه في يده، بينما الضباب الأسود يجاوطه.

راح الضباب من حوله يتشكل على هيئة غربان، والضباب من تحته على هيئة ذئاب، جميعها بأعين حمراء، وتكشر عن أنيابها.

رفع بارسينو عينيه الحمراوين محدقاً نحو السقف الصخري، ثم اندفع لأعلى فجأة محطماً السقف، ومخترقاً الشجرة العملاقة، مخلفاً وراءه أثراً محترقاً، قبل أن يتجمد في الهواء محدقاً ناحية قرية جانب التل. من الفتحة التي صنعها تدفقت الغربان، بينما أسرع الذئاب عبر الممر الصخري لتخرج من باب المعبد، ثم اندفع بارسينو ليشق الهواء ناحية القرية، ووحوش الظلال في عقبه.

\*\*\*

كان أكينو يعمل في الحقل بجدية، ثم توقف ليمسح العرق عن جبينه، وهو يحدق إلى السماء، وفجأة تجمد في موضعه. هل تخدعه عيناه؟ كان الجو يصطبغ ببطء بصبغة حمراء شاحبة، لا تكاد أن تكون ملحوظة، ولكنها هناك بالتأكيد. وضع يده على جبينه ليظل عينيه وهو ينظر إلى الشمس التي راحت ببطء تكتسب لوناً أحمر.

في البداية أحس أنه وحده من يلاحظ هذا، ولكن بدأ المزارعون واحداً تلو الآخر يرفعون بصرهم نحو السماء، ويهمسون بكلمات خافتة، بينما السيد أسيما يحاول تهدئة روعهم ولكنه بدا قلقاً بدوره. نظر الجميع ناحية غابة الظلال عندما ظهرت السحابة السوداء، وتعالى عواء الذئاب ونعيق الغربان، فتحول الهمس إلى صخب، وصاح أسيما: «انجوا بحياتكم!».

بدأ المزارعون يهرولون مبتعدين عن الحقول، ثم لمح الرعاة من بعيد يهرولون عائدين من المراعي والقطعان الهائجة في أعقابهم، كلهم متوجهون نحو بوابة القرية. أسرع أكينو راكضاً من ورائهم، وقلبه مضطرب في وجل وهو يجتلس النظر من آنٍ لآخر ناحية السماء، الشمس تزداد احمراراً حتى صارت دامية، الضوء الأحمر ينعكس على كل شيء في القرية، على الناس، على البيوت، على الأطلال الصخرية الصامتة.

وجد نفسه محمولاً مع التيار المندفع، حتى تدفق الناس عبر البوابة، ومن ورائهم الحرس بسيفهم يحاولون صد موجة الوحوش المظلمة، قبل أن تتصاعد صرخات اليأس والألم.

\*\*\*

أمسك أوركين بفأسه وهو يحدق ناحية الشمس الحمراء، ثم حوّل بصره لينظر إلى السحابة السوداء التي تحلق فوق الأشجار، مقتربة من قرية جانب التل. نظر الحطاب إلى برق ثم انحنى مقترباً منه وهو يتمتم بكلمات خافتة فتوهجت عيناه بالبرق والنور.

قال أوركين مبتسماً في أسى وهو يعتدل واقفاً: «معركة واحدة أخيرة يا صديقي». فنبح الكلب الأسود في حماس.

اندفع الحطّاب هابطاً التل وهو يحمل فأسه، وبرق يركض في عقبه، وعندما وصل إلى منتصف الطريق، كانت صرخات الرعب تصله بالفعل من عند بوابة القرية ممتزجة بعواء الذئاب ونعيق الغربان، بينما الناس يلتحمون بها يملكون من أسلحة بوحوش الظلال.

كان الغالبية العظمى منهم يندفعون ناحية قمة التل، والبعض يتوسل إلى أوركين كي ينقذهم من هذا الخطر، فلم يكن يصغي لهم وهو يبقي انتباهه على وجهته.

ثم تناهى إلى مسمعيه صوت مألوف، العمدة يصرخ في الناس أن يتراجعوا إلى بيوتهم، ويحاول طمأنتهم، رغم صرخات الفرع المتعالية.

نظر أميرد ناحية أوركين عندما رآه يأتي مسرعاً، ثم قال: «فلتضع نهاية لهذا أيها الحطّاب!». تجاهله أوركين وهو يمضي قدماً في طريقه، فصاح العمدة من ورائه في توسل: «أرجوك يا أوركين! فلتنقذ قرينتنا!».

قال الحطّاب: «ها أنت تستفيق من حماقتك أخيراً!». ثم استل فأسه وقد رأى الذئاب والغربان تفتك ببعض القرويين، فصرخ باللغة القديمة: «من أجل الشمس! من أجل أبناء النور!».

راح أوركين يصرخ باللغة العتيقة، فسرت من حول جسده موجة قوية من الهواء، كلما لمست شيئاً من الأطلال تتوهج الرموز عليه بلونٍ أحمر ساطع.

أضاءت عيننا الحطّاب بلونٍ أبيض صافٍ وهو يقفز ناحية الذئاب بسرعة مذهلة، بينما يحرك نصل فأسه ذات اليمين وذات اليسار، فيصيب ما يصيب من وحوش الظلال، ويحوّلها إلى دخان أسود.

رفع برق رأسه نحو السماء، وراح يعوي، وعندما خفض رأسه مرة أخرى كانت عيناه تطلقان شرراً كالبرق، ثم قفز من موضعه مخلفاً وراءه أثراً مضيئاً.

بدا الحطّاب وكلبه كأنهما لسانا برق يتحركان بسرعة خاطفة ما بين الوحوش، فيسقط الحطّاب الوحوش بفأسه، ويفتك بها الكلب بأنيابه.

ولكن مهما أهلكا من وحوش، بدا أن عشرات أخرى تحل محلها، فراح أوركين يصرخ باللغة القديمة ليستمد المزيد من القوة من الأطلال، والشمس الحمراء من فوقه تلقي بظلال مخيفة على كل شيء.

\*\*\*

ركض أكينو صاعداً جانب التل، وفجأة جاءه صوت العمدة يصرخ في الناس لكي يهدأوا، ولكن يبدو أن كلماته كانت بلا جدوى. اختلس أكينو النظر ناحيته فوجده محاطاً بمجموعة من رجاله وهم يشهرون بسيوفهم، ولكن لم يبد عليهم أنهم يثقون كثيراً في أسلحتهم في مواجهة المجهول، ولاحظ أن أيديهم الممسكة بالسيوف ترتجف.

أدرك أنه لا يزال يمسك بفأسه، فأحكم عليه قبضتيه وهو يزدرد لعابه بقوة، وفجأة رأى الحطّاب يركض بصحبة كلبه، فقرر أن يتبعه من على مسافة آمنة.

اخترقت الذئاب شوارع القرية وهي تركز في أعقاب قاطنيتها ومن ورائها الغربان الناعقة. صمد الحرس بسيوفهم والمزارعين بقؤوسهم في موضعهم بشجاعة لمواجهة وحوش الظلال بينما البقية يتراجعون.

صد أكينو بعض الذئاب بفأسه، وكلما أصاب وحشاً بنصله رآه يتفجر متحولاً إلى دخان. كانت أعداد الذئاب كبيرة، وبدا أنها تتدفق من الغابة بلا نهاية.

شاهد أكينو الغربان تفتك بأحد القرويين، وآخر تصيبه أنياب ذئب بإصابة بالغة فيزحف أرضًا في ألم قبل أن تُجهز عليه بعض الذئاب الأخرى، فتجمد في موضعه. أما من نهاية لهذا الكابوس؟ ثم سمع صوت الخطّاب وهو يصرخ، فنظر ناحيته، ثم اتسعت عيناه في ذهول.

فجأة اندفع الهواء مع حول أوركين، وأحس أكينو بموجة من الطاقة ترتطم بجسده وتوهجت الأطلال جميعها بالضوء الأحمر لتنافس حمرة السماء، وشاهد الخطّاب وكلبه يتحركان بسرعة مذهلة ما بين الوحوش حتى عجزت عيناه عن متابعتها، فلا يكاد يرى إلا موضع هجماتهما حيث تتفجر وحوش الظلال إلى دخان أسود.

أحس أكينو بالطاقة تتدفق في عروقه، وعندما تلفت حوله شاهد العديد من الناس يتحركون بسرعة وهم يهاجمون الوحوش، ولكن لم يكن أي منهم بقوة الخطّاب العجوز الذي كانت عيناه تشعان بالضوء وهو يتحرك كالإعصار بين الوحوش.

صرخ أكينو وهو يهجم على الذئاب والغربان بعروق نافرة، وعضلات تلمع بالعرق، وقد عاد شيء من الأمل إلى قلبه. بينما يحاول في الوقت ذاته اللحاق بالخطّاب وهو يتساءل إلى أين هو ذاهب. سرعان ما أدرك وجهته، إنه متوجه ناحية تلك السحابة السوداء التي تندفع من فوق قمم الأشجار ناحية القرية.

كان السور قد تدمر تمامًا، وقد ترامت الجثث على الأرض المملطخة بالدماء، بينما الخطّاب العجوز يقترب من سفح التل ومن ورائه أكينو، الذي شعر أن السماء تزداد إظلامًا مع اقتراب السحابة السوداء منهم حتى كادت أن تصير فوق رؤوسهم. ضيق عينيه وقد خيل إليه أنه يميز هيئة بشرية في قلب الضباب الأسود، ثم اتسعت عيناه مرة أخرى عندما أدرك أنه بارسينو، ينظر بعينين حمراوين مخيفتين!

\*\*\*

هبط بارسينو من السماء ببطء حتى وقف أمام أوركين مباشرة بينما الوحوش تفسح له الطريق، فقال الخطّاب هامسًا: «بارسينو!».

فتح بارسينو فمه ليتكلم ولكن الصوت الذي خرج منه كان عميقًا، يتردد كأنما من أغوار سحيق، وباللغة القديمة التي لا يفهمها إلا الخطّاب: «ها قد تواجهنا أخيرًا أيها الخطّاب. لقد تحطم سجنكم البائس إلى الأبد».

أحس أكينو بالرعب حين سمع حديث بارسينو رغم أنه لم يفهم منه كلمة واحدة، أما أوركين فقد صاح: «أنت ما زلت هناك يا بارسينو! أنا أعرف هذا؟».

ولكن بارسينو ضحك ضحكة كهزيم الرعد، ثم رفع فأسه لتلتف حوله الظلال قبل أن يتحول إلى منجل أسود عريض، وفي اللحظة التالية انقضت ناحية أوركين بمنجله، فتلقاه بنصل فأسه، لتجبره الضربة على التراجع إلى الوراء.

تمالك أوركين نفسه على الفور، فانقض بارسينو ناحيته مرة أخرى. رفع الخطّاب فأسه، ولكن بارسينو اختفى ثم ظهر من ورائه وانقض بالمنجل على ظهره. في هذه اللحظة قفز برق في الهواء، وتحول إلى لسان من الضوء انقضت ناحية بارسينو، ولكن قبل أن يصيبه كان بارسينو قد اختفى وظهر في مكانٍ آخر، ليتشكل برق ويقف على الأرض مرة أخرى وعيناه تشعان بشرر أزرق.

راح أكينو يراقب هذه المعركة في وجل، ولكن وحوش الظلال بدأت في التحرك من جديد، فراح يناور الوحوش وهو يحاول متابعة المعركة الدائرة من طرف عينه.

لم يكن قادرًا على استيعاب ما حدث لصديقه، هل هو وحش حقًا؟ أصابته الفكرة بمزيج من الرعب والفرع، ولكنه سمع الخطاب يصرخ: «هذا ليس أنت يا بارسينو! لا تدع بهموت يسيطر عليك!».  
ما الذي يحدث بالضبط؟ بهموت! بدت الكلمة غريبة للغاية على مسمعي أكينو.

في البداية أحس أن الخطاب وكلبه نَدَّان لبارسينو، يناوران ضرباته، ويحاولان رد الضربة بالضربة، ولكن بمرور الوقت بدأ الخطاب يصاب بجروحٍ من منجل بارسينو الأسود، وتلقى برق ضربة أسقطته أرضًا وهو يئن، والضوء يختفي من عينيه.

أكينو نفسه أصابته بعض أنياب الذئاب ومناقير الغربان بجروح نازفة، وبدأ يشعر بالضعف يدب في ساقيه، وبالكداء يقدر على الوقوف وحمل سلاحه.

في النهاية فقد كل أمل، فنظر ناحية صديقه وهمس في حزن: «بارسينو!».

\*\*\*

كان بارسينو غارقًا في الظلمة، يشعر من حوله بأصوات وهمسات وأشكال تتحرك في الظلال. شعر بشكل ما أن القرية في خطر ولكنه قال لنفسه إنه لا يبالي، إنه المسخ الذي لا يمكنه إنقاذ جانب التل. إنه يشعر في هذه اللحظة بكرهيتهم الشديدة له، وترددت كلمة مسخ الخشنة الفظة في أذنيه مرات عديدة، فقال لنفسه بعناد: «أجل، أنا المسخ، أنا ابن الظلال، أنا طفل اللعنة!»  
«لا يا بارسينو! هذا ما يريد بهموت أن تصدقه».

كان هناك طيف باهت يحاول اختراق الظلمة ليصل إليه، طيف على هيئة رجل، بدا مألوفًا بالنسبة له. أدرك بارسينو أنه الطيف الذي رآه عدة مرات من قبل. قال الصوت من جديد محاولاً اختراق حجب الظلمة: «أنت لست مسخًا. أنت لست من أبناء الظلال، أنت من أبناء النور». توهج الطيف الضبابي بالضوء وخيل لبارسينو أنه يتسم قبل أن يقول: «أنت ابني!».  
اتسعت عينا بارسينو وهو يقول في ذهول: «أبي!».

تحول الطيف إلى هالة من النور بددت الظلمة بعض الشيء، ثم ابتسم الرجل المكون من ضوء أمامه وهو يقول: «أجل يا بني».

قال بارسينو في ذهول: «كيف؟».

قال نامار: «بداخل كل حطاب أرواح كل من سبقوه من حطابين، بداخل كل أبناء النور يوجد النور الأول الذي أشرق على الحياة في بداية الزمان، نحن جميعًا بداخلك يا بني».  
وفي هذه اللحظة ظهرت أشكال عديدة من الضوء، صفوف متراصة لا متناهية من رجال ونساء يقفون جميعًا تحت شمس وقمر ونجوم، جميعهم يصارعون الظلمة بنورهم.

ومع تبدد الظلمة رأى بارسينو الصورة الحقيقية؛ القرية في حالة من الفوضى، تصارع قطعانًا من الذئاب وأسرابًا من الغربان، العديد من الضحايا في كل مكان، والبقية الباقية - رجال ونساء - يصارعون في يأس بالسيوف والفؤوس والسكاكين، وكل ما استطاعوا العثور عليه لاستخدامه كسلاح.

رأى بارسينو الخطاب وكلبه يقفان أمامه يلهثان وهما ينزفان، سمع صديقه أكينو يهمس باسمه بحزن، ثم مد بصره ناحية الأفق. كان قادرًا على رؤية جدته في بيتها تصلي من أجله، مد عينيه ناحية الحانة فرأها محاطة بالوحوش ولكنها لا تزال صامدة، وبداخلها كينورا تمسك بقيثارتها وهي تعزف عليها لحنًا جنائزيًا حزينا للغاية، ومن عينها تسيل دموعتان ساختان، كأنها تودع العالم بموسيقاها. كان ينظر إلى الصور متموجة كأنها تنعكس من على سطح المياه في بئرٍ مظلم.

بدأ الظلام يضغط على الضوء من جديد محاولاً طرده فجاء صوت أبيه مرة أخرى: «أنت تهتم بأمرهم، أليس كذلك؟».

أجاب بارسينو: «أجل».

قال نامار والأشكال المضيئة تتبدد من ورائه: «أنت وحدك من يمكنك إيقافه، أنت وحدك القادر على هزيمة بهموت».

ثم تلاشى أبوه بدوره بينما الظلمة تحكم الخناق من حوله مرة أخرى. عاد إلى عقل بارسينو صورة الخطاب والجدة أوريتا وكينورا وأكينو، وبقية سكان القرية، الفطائع التي تحدث في تلك اللحظة.

كان هناك دخان باهت يزداد كثافة من حوله، ورأى مخلوقاً مبهماً يتشكل من الظلال، لم يستطع أن يتبين ملامحه جيداً، ولكنه بدا كرجل له قرنان طويلان متشعبان. اقترب الظل منه وهو يمد يده للأمام ويصيح بصوت تردد صداه كألف صوت، وكرنين ألف جرس: «أنت ملكي الآن!».

هز بارسينو رأسه وهو يقول: «لا! لست ملكاً لأحد!».

ضحك بهموت، وكان ضحكه أشبه باحتكاك مسامير على سطح معدني، ثم قال بصوته العميق: «لقد فات الأوان!».

لوح بيده فظهر الخراب الذي عم بالقرية، الدماء التي تصبغ جانب التل باللون الأحمر القاني، ثم قال: «كل هذا بسببك، أنت من فعل بهم هذا، إنهم يكرهونك».

صرخ بارسينو: «كاذب!».

كان جسد بارسينو الحقيقي في هذه اللحظة معلقاً في الهواء، يتلوى ألماً وهو يمسك صدغيه بكفيه ويصرخ في ألم.

قال أوركين بضعفٍ وهو ساقط على الأرض مخضباً بدمائه: «لا تستسلم يا بارسينو! لم يفت الأوان بعد!».

وصلت كلمات الخطاب إلى عقل بارسينو وروحه وهو يواجه بهموت، فأغمض عينيه وهو يقول لاهثاً: «لن أستسلم!».

أجل لن أستسلم!

تحسس بارسينو في ثنايا عقله بحثاً عن مصدر قديم للقوة، قوة أسلافه من أبناء النور، فشرع بطاقة تتدفق في عروقه، وقد ومضت في عقله صور آلاف الخطابين الذين مروا على القرية عبر العصور المختلفة. احتشدت الطاقة في عقله، ثم فتح عينيه فأضاءت بنورٍ أبيض صافٍ.

صرخ الظل في ألم وهو يتراجع للوراء، فتردد صدى صرخته في كل الاتجاهات. فتح بارسينو فمه ليتكلم فسطع منه النور، قال بصوتٍ بدا كألف صوت: «لن نستسلم!». ثم رفع فأسه الذي أضاء كألف شمس وهو ينقض ناحية ظل بهموت أمامه.

اخترق الفأس الظل فتجمد في موضعه، ثم راحت شقوق من الضوء تنتشر في جسده، وهو يصرخ بصوتٍ بدا كعواء ألف ذئب جريح، ألف روح تُعذب في الجحيم، وفجأة انفجر الظل، وتلاشى كل الظلام من حوله ليحل محله ضوء أبيض صافٍ في كل الاتجاهات.

انطلقاً الضوء في عيني بارسينو، وفجأة بدأ يهبط للأسفل، وقد تلاشى الضباب من حوله، وعاد المنجل في يده فأساً، وما إن لمست قدماه الأرض حتى أسرع ناحية الخطاب الملقى أرضاً وكلبه بجواره جريح ولكنه يزجر في وجه مخلوقات الظلام التي تجمدت في موضعها.

جلس بارسينو أرضاً وضم الحطاب بين ذراعيه. كانت أنفاس أوركين لاهثة وبطيئة، ولكنه ابتسم وهو ينظر بعينين متعبتين إلى بارسينو وقال: «سعيد بعودتك يا باري».

قال أكينو وهو ينظر إلى الذئب الرابضة دون أن تتحرك، والغربان التي تحوم في الهواء في دوائر ثابتة: «هل انتهى الأمر؟».

نظر بارسينو ناحية غابة الظلال وهو يقول: «أبعد ما يكون عن الانتهاء. لا يزال الظل هناك».

\*\*\*

بدا المشهد كأنه لوحة متجمدة، الوحوش ساكنة، والناس تحدق في فزع وترقب، في انتظار ما سيحدث. وفجأة بدأ الضباب الأسود الكثيف يتصاعد من غابة الظلال ليتشكل ببطء على هيئة أفعوان أسود عظيم يعلو ناحية السماء، ناحية الشمس الحمراء. ثم فتح الأفعوان فكيه ليبتلع الشمس الحمراء أمام الأعين المفزوعة والقلوب الملتاعة.

تراجع الأفعوان ببطء، ليترك موضع الشمس كرة سوداء، وخيم الظلام على القرية إلا من ضوء شاحب. اقترب حاجز الضباب الأسود من القرية ببطء، مع عواء ووحوش الظلام ونعيقها المتصاعد.

ترك بارسينو الحطاب يستريح أرضاً وكلبه رابض بجواره، ثم اعتدل واقفاً ممسكاً بفأسه وهو يقول مخاطباً أكينو: «هذه معركتي الآن».

ثم بدأ يتقدم للأمام وهو يتمم باللغة القديمة، فتوهجت الأطلال أكثر وأكثر، ثم تدفق من حول بارسينو ضوء متألئ أخذ يتسع بسرعة وهو يحيط القرية بحاجز سحري، وكل ما يلمسه من وحوش مظلمة ينفجر ويفتت، حتى التقى الحاجز المتألئ بالضباب الأسود، ليمنعه من التقدم.

قال أكينو من ورائه بفزع: «ما الذي يحدث؟».

قال بارسينو: «لقد جذب الغابة بأسرها إلى عالم الظلال، ويحاول اجتذاب القرية بدورها».

كان الأفعوان العظيم يحدق من الأفق بعينين حمراوين مثل أتونين متقدمين، ثم فتح فمه ليبرز نابان مخيفان، وتكلم بصوت أحس بارسينو أن صدها يتردد في عظامه: «لقد تحمرت، ولن يتمكن أحد من إيقافني».

أسرع بارسينو ناحية الغابة، وفأسه في يده، ثم قفز لأعلى وهالة من الضوء تحيط به، ليخترق الضباب الأسود، محلّقاً في الهواء.

لقد هزم ظل بهموت الذي كان بداخله، ولكن لا يزال عليه هزيمته مرة أخرى، مرة أخيرة!

تعالّت أصوات زئير وزمجرة من الغابة فحدق بعينيه لأسفل ليشاهد مخلوقات تندفق من بين الظلال، لم تعد تبدو ذئباً أو غرباناً، بل أشكالاً مشوهة شبه بشرية وشبه حيوانية بأطراف متعددة، وأنياب حادة كثيفة، جميعها ترحف نحو القرية.

أخذ بارسينو نفساً عميقاً وهو يغمض عينيه، وعندما فتحتها مرة أخرى كانتا تشعان بالضوء، ثم صرخ وهو ينقض بفأسه ناحية الوحوش. راح يلوح بالنصل ليفجر الوحوش إلى ظلال ويبعيدها إلى عالمها الأصلي.

ولكن الأفعوان الأسود، بهموت، انقض ناحيته فاتحاً فكيه على اتساعها. بالكاد تمكن بارسينو من تفادي الناين السامين وهو ينعطف يميناً في تحليقه، ثم ألقى بالفأس ناحية الأفعوان، ولكن لم يصبه النصل بأي خدش قبل أن يرتد الفأس ناحية بارسينو ليمسكه بيده مرة أخرى.

أحس بارسينو بالتشتيت ما بين محاولة صد الوحوش عن الوصول إلى القرية، وتفادي الأفعوان الأسود الذي يحاول الفتك به. رفع عينيه ناحية الشمس السوداء في يأس، ثم تذكر كلمات أبيه، بداخل كل واحد من

أبناء النور ذلك النور الأول الذي أشرق على الأرض، حينها همس: «أبي، امنحني القوة، امنحوني جميعاً القوة».

أغمض عينيه وراح يفكر في القرية، في أطلالها. تذكر كيف علمه أوركين أن يستحضر قوتها، تخيل كل النقوش المرسومة عليها، وفي عقله راحت النقوش تتوهج بضوء أحمر، وهو يشعر بالقوة تتدفق في عروقه. أحس أن القوة موجودة هناك، ففتح عينيه وهما تشعان بالنور، ونظر عبر جانب التل، فرأى لأول مرة كأنها هناك قلب ينبض بالنور بداخل التل، ولكنه بدا ضعيفاً كأنها يلفظ أنفاسه الأخيرة، وتمتد منه شرايين من نور عبر أرض القرية حتى تصل الغابة، وهناك رأى خيوطاً ملتوية من الظلام، أشبه بثعابين سوداء تخنق شرايين الضوء وتمتص منها القوة. إنها الظلال التي سلبت أبناء النور قوتهم عبر قرون.

رفع فأسه عالياً وهو يصرخ بينما الفأس يتوهج بسطوع شديد أجبر الأفعوان على التراجع، ثم هوى بالفأس ناحية الأرض، فاندفعت منه خيوط من الضوء، انقضت على الثعابين، التي راحت تتلوى وتنفجر في دخان أسود، بينما شرايين النور تتدفق بقوة عبر الغابة، والقلب النابض في التل يعود إلى الحياة. بدا أن التل كله يتوهج لا الأطلال فحسب، حتى سيوف الحرس توهجت بالطلاسم القديمة، وقاطنو القرية يشعرون بطاقة تتدفق في عروقهم.

نظر بارسينو بعينه فشهد شرايين الضوء تخترق الغابة حتى تصل إلى تماثيل البشر والوحوش المحيطة بالمعبد. وما إن لمست الشرايين التماثيل الحجرية حتى توهجت أعينها بالنور، ثم انتزعت أقدامها الصخرية من الأرضية الترابية وبدأت تتحرك عبر الغابة، تدهس وحوش الظلال وتصرعها بسيوفها الصخرية التي تتوهج بالطلاسم.

حلق بارسينو فوق المشهد مقرباً من الأفعوان الأسود الذي يينغ من معبد الشمس، سجنه القديم، ومن تحته تشتبك وحوش النور ووحوش الظلال، ثم لوح بفأسه وهو يصرخ فتطير منه الشرر، وفي موضع تساقط الشرر على الأرض تشكلت وحوش، وحوش من نوع مختلف، ذئاب بيضاء بأعين زرقاء ترفع عقيرتها بالعواء، قبل أن تنقض ناحية وحوش الظلال.

ولكن بدا أنه كلما هلك وحش من الظلال تدفق من بين الضباب الأسود عشرة غيره، ثم اندفع الأفعوان الأسود من معبد الشمس، يزحف بين الأشجار العملاقة التي كادت أن تبدو أشجاراً عادية إلى جانب الأفعوان الهائل، ويدهس بجسده الثقيل وحوش النور والظلال على حد سواء، ويضرب بذيله فيفتت التماثيل والأطلال.

تلقى بارسينو ضربة من ذيل الأفعوان جعلت جسده يندفع للوراء بسرعة محطماً أغصان الأشجار قبل أن يرتطم بالأرض بقوة بين الوحوش المتصارعة.

اعتدل بارسينو واقفاً على الفور، وتلفت حوله يراقب المعركة الدائرة، ثم قفز في الهواء في اللحظة الأخيرة متفادياً هجمة من فك الأفعوان، الذي ارتطم بالأرض مثيراً سحابة من الغبار. نظر ناحية القرية، فرأى عدداً من الوحوش تحاول اختراق الحاجز المتألي.

كان برق واقفاً خلف الحاجز يزجر مكشراً عن أنيابه، وهو يحاول أن يحمي أوركين المستلقي على الأرض بينما صدره يعلو ويهبط ببطء، ومن وراء الخطاب يقف أكينو ممسكاً بفأسه، ومن ورائهم يندفع الحرس بسيوفهم المتوهجة للدفاع عن القرية، ثم تفاجأ بارسينو عندما رأى أمريد يتقدمهم وبصحبته أوثار، وكل منهما يحمل سيفاً متوهجاً.

كانت بعض الوحوش قد اخترقت الحاجز بالفعل فتلقاها الحرس بسيوفهم وأكينو بفأسه، ولكن عدد الوحوش كان كبيراً للغاية، كموجة هائلة من الظلام تجتاح النور. تفادى بارسينو الأفعوان ثم دار من حوله، وهو يحاول أن يضربه بفأسه، ولكن بدا أن النصل لا يؤثر في الوحش المظلم. أحس بارسينو باليأس يملأ روحه، ولكنه في هذه اللحظة سمع صوتاً مألوفاً، صوت عزف على القيثارة. كانت كينورا تقترب من الحاجز وهي تعزف على قيثارتها. أول فكرة راودته كانت: *ما الذي جاء بها إلى هنا؟* ولكن الفكرة الثانية التي راودته هي أنه لو لم ينجح في ردع الوحوش الآن فسيهلك كل من في القرية حتى لو كانوا في بيوتهم. ثم اتسعت عينها بارسينو عندما أدرك أن كينورا تغني، وكانت كلمات الأغنية مألوفة له، إنها تغني تهويدة الحطاب!

امتلاً بارسينو بالعزيمة، ثم رفع فأسه ناحية السماء، وفي عقله تتردد كلمات عتيقة لم ينطق بها أحد من دهور، كلمات تستمد السحر من ذلك المصدر العتيق الكامن في قلب التل، طلاسّم أقدم من اللغة القديمة، فانبعث الضوء من التل أشبه بموجات اجتاحت القرية ليغلف النور كينورا وأكينو وأوركين وبرق والحرس وجميع قاطني القرية، فتلاّأت من حولهم هالات مضيئة، وفي اللحظة التالية كان برق وأكينو ينقضان على الوحوش بسرعة مذهلة ليحولها إلى دخان أسود، والحرس يقفزون برشاقة وقد استيقظت الذاكرة في أعماقهم فراحوا يصرخون باسم النور باللغة القديمة.

تأملت كينورا قيثارتها وهي تشعر بالطاقة تندفق في عروقها، فحركت أصابعها على الأوتار لتتوهج بالنور. نظرت كينورا ناحية وحوش الظلام دون ذرة من الخوف، ثم رفعت يدها لأعلى وهي تنظر ناحية بارسينو، قبل أن تهبط بيدها بقوة وهي تحرك أصابعها على الأوتار فتدفتت الموسيقى من قيثارتها كخيوط من الضوء كلما لمست وحشاً حولته إلى دخان متناثر.

كانت التماثيل لا تزال تحارب الوحوش المظلمة في الغابة، وذئاب النور تغرس أنيابها في وحوش الظلال، وعندما رأى قاطنو القرية ذئاب النور اتسعت أعينهم في دهشة، ولكنهم راحوا يتلون صلواتهم للشمس لكي تنصرهم على الظلام.

صرخ الأفعوان: «كل محاولاتيكم للنجاة لا فائدة منها، أنا من سينتصر، أنا إله الظلام!». ولكن بارسينو قال في حزم: «لا تستهين بأبناء النور!».

ورغم هذا لم يشعر بنفس القوة في أعماقه، بل شعر بالقوة المخيفة المتدفقة من بهموت بعد أن تحرر من عقاله، وكان باستطاعته أن يرى أن المزيد من المخلوقات المظلمة ستتسلل إلى القرية، ولن يقدر رفاقه على ردعها كلها.

تمنى لو أن أوركين بجانبه الآن، ولكنه يعرف شيئاً واحداً، الحطاب يرقد ما بين الحياة والموت بسببه، ثم نظر إلى فأسه وهو يشعر في أعماقه بغضب شديد حارق.

ولكنه مع هذا الغضب أحس بشيء آخر، مصدر خفي للقوة، مصدر يحاول أن يتجاهله ويتحاشاه، ولكنه يزداد إدراكاً لوجوده مع مرور الوقت.

تذكر ما قاله له أوركين عن وجود قوتين متصارعتين بداخله، قوة النور وقوة الظلال، ولكن هل يجرؤ على أن يستمد القوة من مصدر كهذا؟

في هذه اللحظة أطبق الأفعوان فكيه على بارسينو، فحاول التراجع ولكنه لم يقدر على فعل هذا في الوقت المناسب، ووجد نفسه يصارع فكي الأفعوان بذراعيه وهما يحاولان الانطباق عليه.

أحس بذراعيه تثنان، وساقيه ترتجفان، ووصل إلى مسمعيه صراخ أكينو، وموسيقى كينورا، وزمجرة برق. من المستحيل أن ينتهي كل شيء بهذه الطريقة.

أغمض بارسينو عينيه وهو يفتش في أعماقه، حتى عثر على ما كان يبحث عنه، كرة بيضاء مشرقة كالشمس، وبجانبتها كرة أخرى تشع بضوء مظلم كأنها هي الشمس السوداء في السماء الآن.

مد بارسينو يده اليمنى ولمس الكرة المضيئة، فأحس بقوة تندفق في أعماقه، ثم تردد قليلاً قبل أن يمد يده ويلمس الكرة المظلمة، وفي اللحظة التالية فتح بارسينو عينيه.

كانت إحدى عينيه زرقاء صافية، والأخرى حمراء متقدة، ونصف جسده أبيض كالحليب، بينما النصف الآخر تغطيه عروق سوداء، ومن حوله دوامة يمتزج فيها الضوء بالظلال.

رفع بارسينو ذراعيه لأعلى ليفتح فك الأفعوان على اتساعه، ثم حلق للوراء وهو يشهر فأسه الذي يتناثر الشرر الأزرق والأحمر منه بعنف مستعداً للهجوم.

صرخ بهموت: «لا! هذا مستحيل! لا يمكنك هذا!».

قال بارسينو بصوت عميق: «هذه هي القوة التي يخشاها أبناء النور وأبناء الظلال منذ بدء الزمان. لقد انتهى الأمر يا بهموت!».

ثم تحرك بسرعة عبر السماء، يتبعه خط من الضوء المظلم، ليهوي بفأسه على عين الأفعوان، لتنفجر ويتناثر منها سائل ساخن.

صرخ الأفعوان في ألم وراح يضرب بذيله محطماً وحوش الظلال والنور على حدٍ سواء، وهادماً المزيد من التماثيل والأطلال.

لم يهمله بارسينو وقتاً كي يستعيد توازنه، بل انقض عليه وضرب عينه الأخرى بفأسه، فراح الأفعوان يتخبط في الظلام وقد أصابه العمى.

تجمد كل من يشاهد هذا المشهد المخيف من بعيد، حتى كينورا توقفت عن العزف وهي تحديق بعينين متسعيتين مذهولتين.

وفي اللحظة التالية اندفع بارسينو عبر السماء ليدور حول رأس الأفعوان بسرعة كبيرة، ومن حوله يتناثر شرر أزرق وأحمر، والأفعوان يصرخ في ألم، مع ضربات متلاحقة من فأس بارسينو الذي كان يتوهج كشمس ساطعة.

ثم انقطع الرأس وحلق في السماء لثوانٍ، وتدفق من موضعه دم أسود كثيف. ثم هوى الرأس أرضاً بدويّ مرتفع، وتهاوى من ورائه الجسد الأسود العملاق ليمتد على الأرض.

خيم السكون على كل شيء للحظات، كأنها الزمن ذاته قد توقف، ثم بدأ جسد الأفعوان ينبض بعنف قبل أن ينفجر، وتندفع منه موجة مظلمة. أحاط بارسينو نفسه بهالة حامية، بينما الموجة من تحته تجتاح كل شيء، وتفجر كل شيء تلمسه في طريقها، حتى وصلت إلى الدرع المتلألئ الذي يحمي القرية.

صمد الدرع أمام الموجة المظلمة، ثم بدا وكأنها يتشقق في أماكن متعددة، وبدا على وشك أن يتهاوى...

ولكن فجأة انحسرت الموجة المظلمة، وتلاشت كل وحوش الظلال، ثم تجمدت التماثيل التي نجت من المعركة في موضعها. بدأ الضباب ينقشع ببطء عن غابة الظلال، وفي السماء انحسر الظلام، لتكتسي الشمس بلونها الذهبي المحبب المعتاد.

هبط بارسينو من السماء ببطء، وقد عادت عيناه زرقاوين، وبشرته بيضاء صافية، وشعره الأبيض يخفق مع الرياح.

وقف أمام كينورا، فنظرت إليه في رهبة، ثم ألقت قيثارها جانباً وأسرعت ناحيته لتضمه إلى صدرها وهي تقول: «بارسينو! حمداً للشمس أنك بخير». ثم نظرت ناحية الشمس الذهبية، قبل أن تنظر إلى عينيه وتقول: «لقد نجونا بفضلك».

جاء أكينو مسرعاً ناحيتهما وهو يصيح في فرح: «لقد نجونا!». ثم احتضن كلاهما بقوة.

قالت له كينورا في قلق: «إن جسدك ممتلىء بالجروح».

قال لها مبتسماً: «لا تقلقي، سأتعافى». ثم نظر ناحية أوركين وقال في قلق: «ولكن الحطاب...». لم يستطع إكمال جملته.

كان برق قد عاد ليرقد بجانب أوركين وهو يعوي في حزن، فأسرع بارسينو ناحيته، كان الحطاب ساكناً على الأرض، فقال بارسينو بحزن: «لقد نجونا يا أوركين، هل تسمعني؟». ولكن الحطاب لم يجبه.

## الخاتمة

كان بارسينو يمشي عبر شوارع قرية جانب التل التي لم يعد الدخان يتصاعد من كل مدافئها ليلاً ونهاراً. لم يصدق الناس إليه في رهبة وخوف كعادتهم، بل كلما رأوه يلوحون له بأيديهم في تحية، فيلوح لهم بارسينو بدوره مبتسماً. لقد مضى أسبوع منذ كسوف الشمس، وبدأت القرية تتعافى مرة أخرى، ولكن الكثير من الأشياء قد تغيرت في أذهان الناس.

لقد اعترف أمر يد بخطئه، وأمر رجال الشعائر أن يحكوا للناس تاريخ القرية المخفي، عن أبناء النور وأبناء الظلال. سيكون أمامهم وقت لمعرفة الحقيقة كاملة.

لمح أكينو يأتي من بعيد وهو يصيح باسمه، فناداه بارسينو بدوره. كان جسد أكينو لا يزال ممتلئاً بالندوب، ولكنه يتعافى بمرور الوقت.

قال أكينو مبتسماً: «مرحباً يا باري».

ابتسم بارسينو بدوره وقال: «مرحباً يا أكينو، تبدو في خير حال اليوم».

ضحك أكينو وقال: «أجل، كأنها لم أواجه أسوأ كابوس في حياتي قبل أسبوع فحسب».

قال بارسينو بابتسامة شاحبة: «أعتقد أنه كان أسوأ كابوس بالنسبة لكل قاطني القرية».

ربت أكينو على كتفه وقال: «أجل، ولكننا جميعاً على قيد الحياة بفضلك».

تورد وجه بارسينو الأبيض خجلاً، ولكنه لم يقل شيئاً، فزفر أكينو وقال: «لا يمكنني أن أفهم كل ما يقوله رجال الشعائر، ولا يمكنني أن أتخيل وجود عالم شاسع خارج القرية، وراء غابة الظلال».

تنهد بارسينو ثم قال: «إنها فكرة صادمة، ولكنك ستعتاد عليها».

هز أكينو رأسه كأنه لم يقتنع، ولكنه قال: «ربما تكون محقاً». ثم قال في مرح: «فلننس كل هذا الآن، ما رأيك في الذهاب إلى الحانة؟». ثم وكزه بمرفقه في جانبه وهو يقول: «لا شك أنك مشتاق لرؤية كينورا».

ابتسم بارسينو في خجل، ولكنه قال: «ربما في وقت لاحق، أنا ذاهب إلى مكان آخر الآن».

سأله أكينو في حيرة: «إلى أين أنت ذاهب؟»

قال بارسينو ببساطة: «إلى قمة التل». ثم بدأ يمشي دون أن يترك لصديقه فرصة لطرح المزيد من الأسئلة.

ناداه أكينو من ورائه: «سأنتظرك في الحانة!».

فلوح له بارسينو بيده دون أن ينظر ورائه.

سار بارسينو صاعداً جانب التل، عبر الشوارع والمدرجات الصخرية، وهو يتحسس في طريقه الأطلال الصخرية التي لم يعد يخشاها مثل السابق. أشياء كثيرة قد تغيرت في حياته في وقت قصير.

ما إن وصل إلى قمة التل، حتى نظر إلى بيت الخطّاب، ثم بدأ يخطو ناحيته ببطء، وهو ينظر إلى ما وراءه، إلى الغابة الشاسعة الممتدة، والأفق من ورائها، وهو يتساءل: أي مجهول يكمن هناك؟

عندما وقف أمام البيت، رفع يده ليترك على الباب، ثم جاء من ورائه نباح برق.

لم تمضِ إلا لحظات حتى انفتح الباب، فقال بارسينو مبتسماً: «ها أنت ذا».

لأول مرة يشعر بارسينو أن عمر أوركين الحقيقي يبدو على ملامحه العجوز. كان متغضن الوجه، ولكن عينيه تشعان بالحوية كعادتهما، وبجانبه كلبه الأسود يبدو سعيداً لرؤية بارسينو فراح يهز ذيله في حماس.

قال أوركين بهجة: «كنت في انتظارك». ثم أفسح له الطريق ليدلف إلى الداخل.

خطا بارسينو إلى بيت الخطّاب، فاستقبلته المدفأة والخطب يقطع بداخلها.

قال بارسينو: «تعرف أننا لم نعد بحاجة إلى هذا».

نظر أوركين إلى برق وهو يستلقي أمام نيران المدفأة قبل أن يقول: «قد لا نحتاجها لطرد الشر، ولكننا نحتاجها لطرد البرد، وعظامي العجوز المسكينة لم تعد تحتمل».

ثم جلس على كرسي أمام الطاولة وهو يسأله: «كيف حال أورتينا؟».

أجابه بارسينو وهو يجلس قبالة: «إنها بخير، لا تزال حتى اليوم غير قادرة على تصديق أنها لم تفقدني كما فقدت أبي، ولكنها سعيدة وممتنة». ثم تأمل الحطاب بعينه قبل أن يقول: «لقد خشيت أيضاً أن أفقدك في ذلك اليوم. عندما رأيت جسدك ساكناً على الأرض... ظننت أنني فقدتك إلى الأبد».

ضحك أوركين ثم قال: «أنا أيضاً ظننت حقاً أن كل شيء قد انتهى ذلك اليوم، ولكنك لم تخيب أمني، لقد أنقذت القرية، وهزمت إله الظلام».

سأله بارسينو عاقداً حاجبيه: «هذا ما جئت أسألك عنه، هل مات بهموت؟».

هز أوركين رأسه وقال: «لا أعرف يا بني، لا أحد يعرف الكثير عن آلهة الظلام، ربما قتلتها، وربما نفيتها لتعيده إلى عالمه الأصلي».

تنهد بارسينو ثم قال: «هذا ما كنت أخشاه، ألا تكون هذه هي نهاية الشر».

قال أوركين مشفقاً: «الشر لا نهاية له يا ولدي. هناك آلهة ظلام آخرون، وأبناء ظلال آخرون، العالم بالخارج يعج بهم».

تردد بارسينو ثم قال: «أريد أن أستكشف هذا العالم».

اتسعت عينا أوركين ثم قال له: «ولكن العالم مليء بالمخاطر، والقرية بحاجة إليك، و...».

قال بارسينو في حزم: «القرية ليست بحاجة إلي الآن، وإن كان العالم مليئاً بالمخاطر فليس من المعقول أن نجلس مكتوفي الأيدي ومنتظر حتى يغشانا الظلام مرة أخرى».

ساد الصمت بينهما للحظات، ثم قال له أوركين: «على الأقل دعنا نتشارك كوين من شراب نبتة جذور الشمس مرة أخيرة».

ابتسم بارسينو وأوماً برأسه.

سرعان ما امتلأت الحجرة بالحلوة، واستمتع بارسينو بالدفء الذي سرى في جسده وهو يرتشف السائل الساخن، بينما الحطب يقطق في المدفأة.

ودع بارسينو الحطاب العجوز وكلبه، وعاد ليهبط جانب التل، وهو يملأ عينيه بشوارع القرية، حتى وصل إلى حانة الغزال الواثب، ولافتتها المتراقصة مع الهواء. دفع الباب ليفتحه، فاستقبلته موسيقى عذبة، قبل أن ينظر ناحية كينورا التي كانت تغني وتعزف على القيثارة.

استقبله طابيو بحرارة، ولوح أكينو بقدحه، وتعالى همهمات الناس ترحيباً به. أحس في هذه اللحظة أنه لا يرغب في الرحيل عن جانب التل، وراح يفكر في وقع الخبر على كينورا، ثم قال لنفسه: ربما لا يجب عليّ الرحيل اليوم، ربما في يومٍ آخر؟

قال له طابيو: «ما رأيك أن ننهي جولة لعبة الحصى التي لم نحسمها؟».

جلس بارسينو إلى الطاولة وهو يقول: «فلتجلب لوحة اللعب». فصاح أكينو في حماس، وتعالى همهمات التشجيع من الناس.

ثم نظر ناحية كينورا، ورآها تبسم له ابتسامة عذبة دافئة، فقال لنفسه: في يومٍ آخر.

- تمت -

## شكر وعرفان

كانت كتابة هذه الرواية رحلة بالنسبة لي، فقد بدأت بفكرة صغيرة، ثم تشعبت حتى صارت العالم الذي عشتم فيه هذه المغامرة. ولكن هناك الكثير من الأصدقاء الذين لولاهم لما اكتمل هذا العمل، ولما خرج إلى النور بالشكل الذي رأيتموه.

شكرًا لزوجتي منار قارئتي الأولى، التي تتحمل قراءة المسودات مرارًا وتكرارًا. الصديق معتر حساين الذي جاءني إلى البيت برزمة من الأوراق عليها الملحوظات بخط اليد لنجلس ساعات نتناقش في الرواية. الصديق أحمد السيد أبو مكّي الذي كان يقرأ كل فصل بمجرد كتابته وقد ساعدني كثيرًا بملحوظاته. أخي محمود المهدي المصحح اللغوي لهذا الكتاب ولكل أعمالي تقريبًا.

شكرًا لوكالة بيرز فاكتر الأدبية، وعلى رأسها الصديق باسم الخشن، لما يبذله من جهد لإثراء محتوى الفانتازيا والخيال العلمي العربي.

شكرًا للأصدقاء الذين قرأوا المسودة الأولى للرواية وساعدوني بملاحظاتهم القيمة: عارف فكري، ضحى صلاح، محمد عصمت، دينا هيكل، ندى حجازي، عمار جمال، حسام نادر، عمار المصري، سلمى الشرفاوي، أحمد نبيل، أحمد أبو سكين، أسامة أبو ترابة، محمد محيي طلبة، أحمد أبو سيف، وائل رداد، حمدي السيد، عبد الله عمر.

شكرًا لعائلي، الداعمين لي دومًا، والصغار: فرح، صفية، فريدة، صهيب، إياد، مصطفى. يومًا ما ستكبرون وتقرؤون هذه الرواية.

شكرًا لدار كيان للنشر وكل القائمين عليها، وعلى وجه الخصوص محمد جميل ونيقين التهامي.

## عن الكاتب

أحمد صلاح المهدي كاتب و مترجم و ناقد مصري، تخرج في كلية الآداب قسم اللغة العربية بجامعة القاهرة، نشرت له عدة روايات ما بين الفانتازيا و الخيال العلمي و الرعب، ترجمت اثنتان منهم إلى اللغة الإنجليزية وهما «ريم» و «ملاذ: مدينة البعث». نُشر له عدد من القصص القصيرة و المقالات الأدبية و النقدية باللغتين العربية و الإنجليزية، و ترجمت بعضها إلى لغات أخرى كالرومانية و الإسبانية. صدر له ترجمات العديد من الروايات المختلفة، مثل سلسلة «القاعدة» من تأليف أيزاك أزيروف التي تحولت مؤخرًا إلى مسلسل على منصة أبل تي في، و «عين العالم» الجزء الأول من سلسلة «عجلة الزمن» من تأليف روبرت جوردن التي تحولت مؤخرًا إلى مسلسل على منصة أمازون.